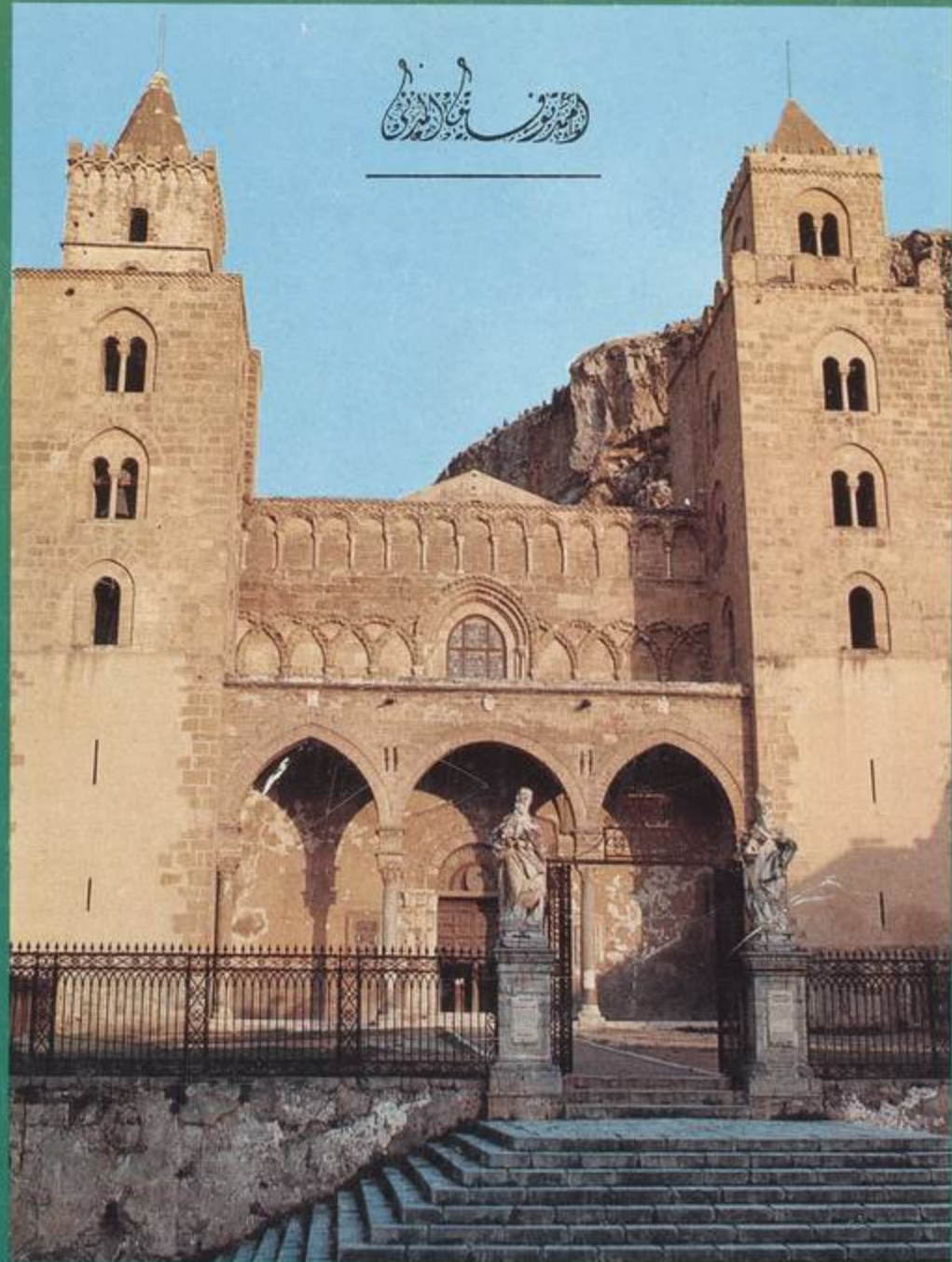
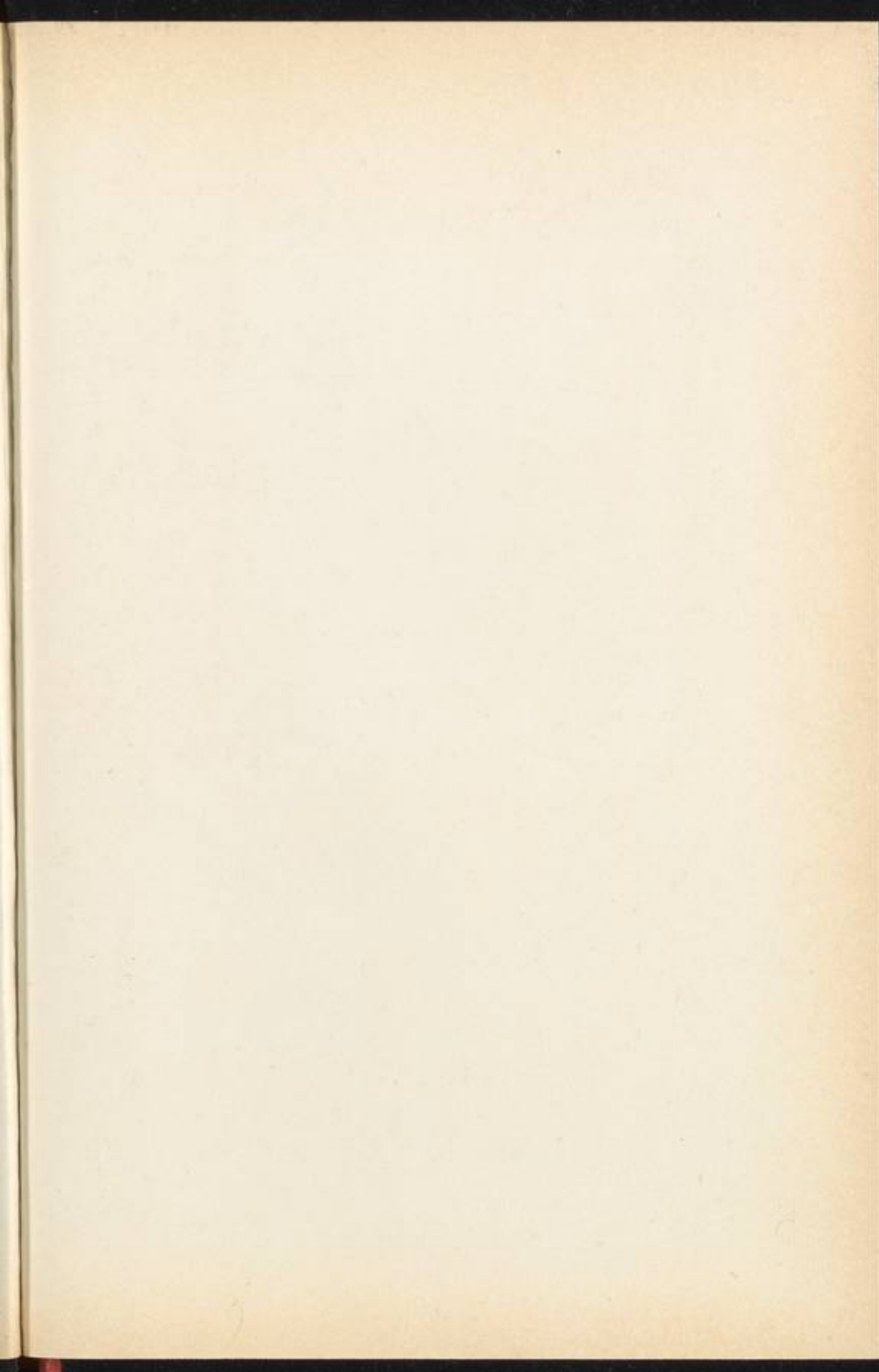


مسجد قرطبة



المسلمون في حجة بركة صقلية
وَجَنُوبَ إِيطَالِيَا





وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الْمُسْلِمُونَ خَيْرٌ مِنْ أَصْقَافِهِ

وَجَنُوبُكَ يُطَالِيْنَا

DG

867.11

M3

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

اجل ! انها لصفحة شرف وفخار ، من تاريخ حافل مجيد .

تلك هي الصفحة التي كتبها اجدادنا الاكرمون بدمائهم الزكية ، على اديم الارض الصقلية ، وسجلوها بجلال اعمالهم في سفر الوجود ، واقتحموا بها وبامثالها ابواب الخلود .

وبالها من ذكريات تشيرها في نفوسنا تلك الصحف المطهرة صحف جهاد الاجداد في سبيل الفتح الاسلامي ، وفي سبيل العمران والرقى ونشر المعرفة والمدنية الحقّة .

انها لذكريات اجداد كرام بررة ، تركوا لنا راسا في التاريخ عاليا ، وذكرنا في الحافقين مجيدا ، انهم لقوم قهروا في سبيل الله وسبيل المدنية اشاوس الارض وطغام البحر ، وتغلبوا بقوة ايمانهم ومتانة سواعدهم وشدة شكيمنتهم على كل معترض لهم في طريق حف بالصعاب ورص بالعقبات ، كان رائدهم يومئذ نكران الذات وتضحية انفس في سبيل المثل الاعلى ؛ على غرار سنة استنهاهم محمد بن عبد الله ، رسول الله ، وخلفاؤه من بعده ؛ فنالهم هنالك الاذى واصابتهم في طريقهم التكببات فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ؛ وما بين مشرق الشمس وبين مقربها ، وما بين جليد الشمال وسعير الجنوب ، رفعوا فوق هام البر وفوق عباب البحر اعلامهم عالية خفاقة ، مرعية الجوار عزيزة الجانب ، وضع النضال حول هامتها هالة من نور الحق وعزة الانتصار .

وانتنا قوم الشمال الافريقى ، ابناء الاطلس الابرار ، لاحق باحياء هذه الصفحة الصقلية وبنفض ما تراكم فوقها خلال عصور الانحطاط ، من غبار . ذلك لأنها صفحة خاصة باجدادنا فى هذا الشمال ، فهم الذين فتحوا هنالك ومدنوا وتغلبوا ، وهم الذين انخذلوا بعد ذلك تحت تأثير عوامل شتى ، وتحت ضربات اعداء الداخل والخارج ، فضاع عنهم ما فتحوه حسا ومعنى بعد طول جلال .

فعلينا - ونحن ابناءؤهم - ان ندرس برورا بهم ، تاريخهم فى حالتيه ، لنحيى ذكركم ، ونصفهم حقهم ، ولنقيم لهم بأقلامنا وفى قلوبنا ، تمثالا خالدا هو عنوان الاجلال والاعتراف بالجميل ، ثم لنستخرج من كل ذلك عظمت وعبرا تنير أمامنا جادة السير فى طريق الحياة الحققة حياة العمل والجد والسعادة وتحقيق الآمال .

فهذه الصفحة الطيبة الثرية ، صفحة التاريخ الاسلامى بصقلية لم تكتب بعد ، ولم يقيض الله لها من يفردها بدراسة قيمة ، كما درست من قبل فتوحات المسلمين فى سائر الاقطار ، فنحن لا نجد من اخبار صقلية الاسلامية الا ما تذاثر فى كتب التاريخ بين عربية وغربية ، وخاصة فى كتب ابن خلدون وابن الاثير وابن الخطيب وابن جبير ، وبعض امهات الكتب الاخرى ، على ان تلك الاخبار المقتضبة التى كانت تذكر استطرادا ، لم تكن تهتم الا بكبريات الحوادث الحربية ، وتاريخ تولى الولاة ووفياتهم على اضطراب بينهم فى الترتيب . وقل من المؤرخين من تعرض لآثار ذلك الفتح ، وما كان له من ضلع كبير فى اشراق انوار المدنية والمعرفة على ربوع اوربا ؛ وبعبارة اصرح ، مدى مشاركة المسلمين الصقليين فى بناء هيكل المدنية الحاضرة ؛ فيكاد يخيّل اليك وانت تتلو كتب التاريخ القديمة ان مقام المسلمين بصقلية ما كان الا سلسلة من حروب وفتن واضطرابات ، وانه لم يكن وراء تلك الحروب والفتن سوى دماء تسفك ، ومعالم تخرب ، وحرمان تنتهك ؛ وتلك لعمري هفوة من مؤرخينا ، علينا ان نتداركها ، وعلينا ان نسد هذه اشلمة فى هيكل تاريخنا القومى العربى .

نعم ! يجعل بهذه المناسبة ، وفي هذا الميدان ان نذكر وان نعترف بجميل عالين جليلين ، ومؤرخين مبجلين اولهما السنيور ميكايل عماري (١) وقد نشر سنة ١٨٥٨ كتابه الحافل (المكتبة العربية الصقلية) وقد جمع فيه اغلب ما تناثر في كتب العرب من اخبار صقلية والصقليين ، ايام دولة المسلمين ؛ والف كتابا حافلا باللغة الطليانية (تاريخ العرب بصقلية) في خمسة اجزاء ضخمة .

وثانيهما صديقي الكبير واستاذي الجليل ، السيد الوزير حسن حسني عبد الوهاب ، مدرس التاريخ بالحللونية سابقا ، وعضو مجمع اللغة العربية ؛ حيث قدم لمؤتمر المستشرقين الرابع عشر المنعقد بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ رسالة قيمة باللغة الفرنسية (١) عن مسلمي صقلية وما كان لهم من اثر محمود في ميادين العلم والمدنية .

(١) هو صاحب السيف والقلم ، وبطل العلم والسياسة . واحد كبار المجاهدين في سبيل الامة والوطن ، والدرة اللامعة في تاريخ الاستشراق الغربي على الاطلاق ؛ ولد في مدينة بالرمة سنة ١٧٠٦ من عائلة ربما كانت تنحدر من اصل عربي حسيما يدل عليه اسمها ، وحسيما يدل عليه اتجاه هذا البطل العظيم من احياء تاريخ المسلمين بصقلية . وجمع آثارهم والاشادة بما كان لهم من فضل على العلم والمدنية بحيث انه قد عمل وحده في هذا المضمار ما تنوء تحت وقرة العصابة القوية من العاملين .

ولقد شب في بيت نادر ، اذ كان أبوه من رجال الحركة الوطنية الاستقلالية بصقلية . وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين سنة ؛ فكان ميكايل متشبعا منذ نشأته بتلك الافكار لكنه اندفع في ميدان العلم فحذق العربية ، مدقوعا لذلك بعاطفة غريزية ولا ريب . واخذ منذ شبابه يدرس تاريخ المسلمين ؛ وعندما حدثت الثورة في سبيل الحرية سنة ١٨٤٨ اندفع صاحبا في مضمارها وخاض غمارها . وسمى نائبا عن وطنه في مجلس الامة ؛ وتولى وزارة المالية حيث جاهد جهاد الابطال في سبيل الشعب والمستضعفين ؛ ثم ترك السياسة واعتكف على الدراسة والانتاج الحثيث . لكن ثورة غاريبالدي عام ١٨٤٠ اخرجته من جديد لعالم السياسة والجهاد فشارك في الثورة مشاركة محسوسة ، واصبح بعد نجاحها مدير المعارف بمدينة بالرمة ثم وزير المعارف للدولة الطليانية الموحدة سنة ١٨٤٦ .

ثم اعتزل السياسة من جديد . واخذ يدرس العربية في جامعة فلورنسا . وتراس بتلك

ثم نشر حفظه الله بمدينة بالرمة سنة ١٩١٠ القسم المتعلق بالشمال
الافريقي وجزيرة صقلية من كتاب اعمال الاعلام ، لابن الخطيب ، مع هوامش
مفيدة باللغة الفرنسية متداركا بذلك ما سها العلامة ميكايل عمارى الآنف
الذكر عن حشره ضمن (المكتبة العربية الصقلية) .

* *

ولقد كان اهتمامى بموضوع التاريخ الاسلامى بصقلية قديما ، وكانت
ولا تزال رغبتي فى اختراق مجاهله اكيدة ؛ فنشرت فى الجزء الرابع من كتابى
تقويم المنصور سنة ١٩٢٦ بحثا وجيزا عن تلك الحقبة من التاريخ ، ولربما
كنت قد وفقت يومئذ بعض التوفيق ، فى تعبيد ذلك الطريق .

واننى لأعود اليوم الى هذا الموضوع ، مقدما بين يدي الامجاد ، قوم
الشمال الافريقى ما اوصلنى اليه جهد البحث والاستقراء عن تاريخ صقلية
الاسلامية متوسعا فى ذلك ، حسبما امكننى ان اتحصل عليه من مختلف الوثائق
والمعلومات وبين طيات ما وصلت اليه من كتب عربية وافرنجية ؛ مثبتا على
هامش ذلك ، حسب طريقتى ؛ اهم الاحداث الكبرى ، بالشرق وبانغرب ، حتى

المدينة مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٧٦ ، واستمر عاملا جادا فى سبيل العربية والتاريخ الاسلامى
الصحيح الى ان توفى بفلورانس سنة ١٨٨٩ . ومن اهم مآثره (تاريخ المسلمين فى صقلية)
فى خمسة اجزاء ضخمة ، نشره سنة ١٨٥٤ ، واعيد طبعه من تعاليمات مفيدة وكتاب (المكتبة
العربية الصقلية) جمع فيه اهم ما كتبه المؤلفون المسلمون عن صقلية ، وكتاب (الآثار العربية
المنقوشة على الحجارة بصقلية) وكتاب (مذكرة عن حوادث التاريخ فى القرآن الكريم) وترجم
للطليانية كتاب سلوان المطاع لابن ظفر : ورحلة ابن جبير بصقلية وتاريخ ابن خلدون . الخ .
وقد اقام المستشرقون حفلا رائعا بمناسبة مرور مائة عام على ولادته ؛ وبذلك المناسبة نشر
استاذنا حسن حسنى القسم المتعلق بصقلية وافريقيا من (اعمال الاعلام) .

وانى لأعتقد انه لا يتسنى للعرب الاطلاع على حقائق ودقائق تاريخ مسلمى صقلية ما لم
يقبض الله من بينهم من يترجم اللغة الضاد كتاب عمارى الحافل الثرى « تاريخ المسلمين فى صقلية »
فهو من مجيب ؟

(1) La domination musulmane en Sicile

يمكن لقرار كتابي ان يخرج بالتاريخ المحلى عن عزلته ، ويربط الحوادث الصقلية فى مختلف ادوارها بمجرى التاريخ العالمى .

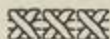
لكننى - والحمد لله - بعيد عن الغرور وكاذب الادعاء ! فاقول بكل صراحة ، ان كتابى هذا لا يجب ان يعتبر الا تمهيدا لدراسة تاريخ المسلمين فى صقلية ؛ فان كنت قد علمت شيئا وسجلته ، فقد غابت عنى ولا ريب اشياء ؛ وان كنت قد ادليت خلال هذه الدراسة التاريخية ببعض آراء وافكار ، فما انا بمقدمها الا لكى تعرض على مجال البحث والمناظرة ، حتى يظهر من الحقائق التاريخية ما اخفته دفات الكتب ، او طمست معالمه حوادث الايام .

بل اننى ازيد غلوا فى الصراحة ، فاقول للعلماء والكتاب والمؤرخين من بنى قومي ، اننى ما اقدمت على وضع كتابى هذا ، ونشره ، وعرضه على النقادين ، الا لكى استفز منهم المشاعر ، واستحث فيهم الهمم ، عليهم نندفعون بهمة وعزيمة وبما آتاهم الله من علم ، فى هذا الباب ، يتداركون النقص ويأتون بفصل الخطاب ، تلك هى غايتى ، وذلك هو منأى (١) .

واننى لأبتهل الى الله ، ان يلهمنا الحق والصدق والصواب ، ويهدينا سواء السبيل ، حتى نخدم تاريخنا الخدمة المثلى ؛ فنخلد بذلك ذكرى اجدادنا ، ونقدم الامانة سليمة لاحفادنا .

وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت ، واليه انيب .

الجزائر - ١٢ ربيع الانور ١٣٦٥



(١) من المؤسف حقا ، انه لم يصدر حول هذا الموضوع ، منذ هذا النداء ، الا كتاب واحد لاغير ، الى يومنا هذا . سنة ١٩٦٨ ، ويكاد يكون قاصرا على ذكر الادب والشعراء والاثر الحضارى .

القسم الاول

وصف جزيرة صقلية ومناخها وعمرانها

معقل طبيعي ، صنعته يد الله في منتصف البحر الابيض المتوسط ، فقسمه الى شطرين شرقي وغربي ، فهيمن على حركة المرور بينهما . وحسن حصين ارتكز بين القسمين البارزين من قارتى اوروبا وافريقيا حيث تجابه شبه جزيرة شريك ، فى هيئة تحد ظاهر ، شبه جزيرة قلورية ، كان كلا منهما يريد ان يمد ذراعه نحو الاخرى ، فتقوم بينهما جزيرة صقلية ، لتكون فى بعض الاحيان حكما ووسيطا ، ولتكون فى كثير من الاحايين جسرا يعبر عليه اهل الجنوب الى اهل الشمال ، او ينحدر منه اهل الشمال الى اهل الجنوب ، حسب القوة والاستعداد ، ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض .

شكل مثلث تكاد تتساوى اضلاعه ، اطلق عليه الاقدمون من اجل ذلك اسم « اترينا كرييا » اى المثلث يفصله بحرا عن قلورية (بايطاليا) مضيق مسينا وهو لا يكاد يجاوز ٣ كيلو مترات ، ويفصله عن البلاد التونسية معبر صقلية ، وعرضه ١٢٠ كيلومترا ؛ ويمسح هذا المثلث الصقلي ٢٥٤٦١ كيلومترا مربعا .

فاذا نحن قمنا بحركة طواف حول الجزيرة الصقلية مبتدئين سيرنا من مدينة مسينا ، رأينا منذ النظرة الاولى ان هذه الجزيرة تكاد تكون مقطعة من ايطاليا حيث تستمر فيها ، فى اتجاه واحد جبال الابينان ، وتكاد تستأنف منها فى نفس ذلك الاتجاه نفس تلك الجبال فى الشمال الافريقى ، متخذة لنفسها اسم « الاطلس التلى » ولا يسع الرأى يومئذ الا الاقتناع بان افريقيا واروبا كانتا متصلتين فى غابر الازمان قبل عهد التاريخ ، بمعبر قلورية ، صقلية ، شبه جزيرة شريك ؛ ولقد صدق الله العظيم اذ يقول : « او لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما » .

ترى اثر خروجك من مسينا ، لاول وعلة ، كتلة هائلة من الصخر والتراب والمعادن المختلفة ، ترتفع الى عنان السماء قمتهما ، وينزل الى قاع البحر اصلها ، ذلك هو فلقان « الاتنا » او جبل النار ، حسبما تسميه كتب التاريخ العربى ، وانه ليثور فى بعض الاحيان ، فيخرج من جوفه فى اصوات كهزيم الرعد القاصف حمما ونيرانا متقدة ودخانا كثيفا ، فلا يبقى حواليه ولا يذر ، يحطم المدائن واقرى والدساكر ويهلك الحرث والنسل ؛ ثم لا تكاد تنقضى ثورته حتى يعود الصقليون الى تجديد ما حطمته النيران وما غمره الحما المسنون ، فكان المعركة هناك خالدة مستمرة بين قوى الطبيعة وبين الانسان ، وكان الله سبحانه وتعالى اراد ان يقيم منها مثالا دائما للجلد والثبات ، والتغلب على العقبات ، والصبر على النائبات .

فاذا نحن انحدرنا من مدينة مسينا نحو الجنوب رأينا ساحلا صخريا ، لا نتوء فيه ولا جون ولا خليج ، ويستمر كذلك الى مقربة من مدينة قطانيا ؛ ومن هنالك تتغير هيئة الساحل فيغدو رمليا لطيفا ، وترى فيه مصب وادى « ليريتو » ثم يبرز الى البحر فى جمال رائع ، راس اكروتشى .

ومن ثم نستمر فى انحدارنا صوب الجنوب ، فنجد عروس صقلية مدينة الفن والجمال ، والصيت التاريخى الرائع ، والذكريات المجيدة ، سرقوسة ، واننا لا نذكرها حتى يتراءى لنا شبح بطلها العظيم ارخميدس (١) الاغريقى حيث اجتمع العلم والوطنية والتضحية فى ذهن واحد جبار ، فهو الى جانب اكتشافاته العلمية العديدة التى تعد فتحا للعنصر البشرى ، تراه يوالى اختراع آلات الدفاع لصد غارة الرومان عن وطنه ، وقد جندله اخيرا سيف الطغيان بيد احد الوحوش الرومانيين .

(١) من اكبر علماء البشرية على الاطلاق . ولد بسرقوسة وقتل بها (٢٨٧ - ٢١٢ ق.م) من اهم اكتشافاته . الثقل النوعى وان اى جرم دخل فى الماء نقص وزنه بمقدار ما ازاله من الماء ؛ وقد اكتشف هذه القاعدة الحادثة التى كانت اساسا لعدة اكتشافات اخرى وهو يستحم ؛ فاخذه السوء بنشوة الاكتشاف وخرج من حمامه عاريا يجرى فى طرقات سرقوسة ويصيح بالكلمة المأثورة EUREK, EUREKA اى وجدت . وجدت .

ومن سرقوسة الى رأس باسيرو ، يتكون من الساحل شكل هلالى ليس فيه ما يستحق الذكر ، وهناك ينتهى الساحل الشرقى من صقلية ؛ ويبلغ عمق البحر المتوسط حوالى ذلك نحواً من ٣٦٠٠ متراً ، وناخذ طريقنا صاعدين مع الساحل الجنوبى فى حركة تدريجية وعلى خط يكاد يكون مستقيماً ، وهناك ينصب وادى سالسو ؛ ثم تقوم مدينة جرجنتى ذات الذكر الطويل فى تاريخنا العربى الصقلى ومن ثم نزيد ارتفاعاً نحو الشمال الغربى فنرى سواحل كثيرة المياه ، وافرة المراعى والمروج ، حيث تقوم مدينة « مرصالا » ، ذات الرحيق الرقيق ، وبعد ذلك نصعد صوب الشمال حيث نجد مرفأ « طرابنة » اللطيف الشهير والذى سيمر بنا ذكره كثيراً اثناء البحث التاريخى .

عند راس كستيلامارى ، تمنحنى الجزيرة ويبتدىء الساحل الشمالى على خط مستو يمتد من الغرب الى الشرق ، فنراه ساحلاً صخرياً جبلياً ، ونلاحظ فيه بادية ذى بدء خليجاً تام الاستدارة بهى الشكل ، بديع الاطار ، هو خليج « كستيلامارى » ومن عجب انه لا يحتوى الا على بلدية « الكانو » الصغيرة وبعض اكواخ لصائدى الاسماك ، فان خرجنا منه وجدنا راس « دى قانو » ومن عليائه تشرف على جون مدينة بالرمة البديعة الطيبة عاصمة صقلية الاسلامية ، ومركز ادارتها الى يومنا هذا . ثم نستمر فى سيرنا مع سواحل صخر وجمال حتى نصل مدينة « مسينا » ذات البهاء والجمال والحركة المستمرة والعمران المتواصل ، ومنها ابتدأنا سيرنا حول سواحل الجزيرة . فلنتجه الآن بانظارنا فاحصين دواخل الجزيرة باحثين فى جبالها وسهولها وانجادها واغوارها .

الجبال : ان جبل « الاتنا » ، هو اول ما يستحق الذكر ويستجلب النظر فى صقلية ، فارتفاعه يبلغ ٣٣١٣ متراً ، من ذلك كان اكبر جبال النال فى أوروبا . ولقد ادركه انهرم من قديم العصور فكلل الثلج هامته بمشييب سرمدى ؛ لكن لم يكن ذلك بمانع لثورة ضميره ، والقاء ما فى قرارة نفسه

امام العالم حيناً بعد حين ؛ اما مساحته فتبلغ نحواً من ١٢٠٠ كيلومتر مربع ويمكن الصعود الى اعلى قمته بكل سهولة حيث الافواه الرهيبة التى يخرج منها على الدوام دخان يكون تسارة لطيفا وطورا كثيفا ؛ وتسمع منها زمجرة نار الله الموقدة وهى تتميز من الغيظ ، فكان الصاعد هنالك يشرف من على على جهنم الحمراء او يرى عينة منها على الاقل .

وجبل « الاتنا » لا يكاد يتصل باى سلسلة من الجبال الصقلية الاخرى . فى شمال الجزيرة تمتد سلسلة من انشرق الى الغرب وهى جبال صخرية جرداء قلما رايت عليها اخضرار نبات او ابتسمت فى وجهك منها زهرة ؛ تتكون طبقتها الخارجية من حجارة كلسية ، ومن انواع الرخام الرفيع ؛ وهذه السلسلة وهى سد طبيعى يحمى الجزيرة من غارات الشمال ، ويقبها رياح الشمال الباردة ، يبلغ ارتفاعها نحو الالفى متر ، وهى تعتبر امتدادا من وراء مضيق مسينا لجبال الابنين بايطاليا ، وتعتبر ايضا ، تمهيدا لجبال الاطلس كما اسلفنا ؛ ومنها تتكون بعض جبال فرعية ، تنحدر من اعلى الجزيرة الى اسفلها ، اهمها الجبال التى ارتفعت فوقها مدينة « قصريانة » ، ويبلغ ارتفاعها نحو ٩٩٠ مترا ، والجبال التى تنحدر صوب مدينة « جرجنتى » ، واسمها جبال مادونيا ، وارتفاعها يبلغ ١٥٨٦ مترا ؛ وفى هذه الجبال ثروة ذريعة من الحزف ، والملح المعدنى ، والجص .

وما بين هذه الجبال ، تجد وهادا ونجودا ، وسهولا ضيقة خصبة ، وغابات قليلة قفرة .

الميساه : ان كانت ارض الجزيرة تختلف بين الشمال والجنوب ، فاوديتها وانهارها تختلف مثل ذلك ، فالساحل الشرقى القاحل ، لا تكاد تجد به الا اودية ضئيلة غير مستقيمة السير ، ومنها ما لا يبلغ عرضه اكثر من متر واحد ، يجف اغلبها ابان المصيف ؛ او هى تلوح كمثل اطلال خاوية ؛ كباقى الوشم فى ظاهر اليد ؛ هنالك واد واحد يستحق الذكر ، هو وادى القنطرة ، وقد احتفظ باسمه العربى هذا ؛ ويبلغ طوله ١١٦

كيلومترا : ويروى حوضا مساحته ٤٣٨٩ (كم) مربع .

اما الساحل الجنوبي : فاوديته غنية بمياهها صيفا وشتاء حيث تغذيها سلسلة الجبال الشمالية : واهم هذه الاودية : وادي سالسو ، وطوله ١٤٤ كيلومترا وحوضه نحو الالفى (كم) مربع .

وبالجزيرة بعض بحيرات ذات اهمية ، اكبرها شانا بحيرة لنتيني في مقاطعة سرقوسة ، ومساحتها ١١٩ كيلومترا مربعا ، وتليها بحيرتا برغوسا وبالتشى .

اما الامطار ، فمعدل نزولها في السنة هو ٧٦٠ ملمترا ، والايام المطيرة تبلغ ١١٢ يوما في السنة .

المناخ : خص الله هذه الجزيرة الطيبة ، بحكم موقعها ووضعيتها الجبال فيها ، بمناخ جميل ، وهواء معتدل ، وجو صاف ، بحيث انه ليس في قارة اوروبا ما يعادلها من حيث اعتدال الطقس ولطف الهواء .

فصل الشتاء فيها ليس بقارس البرد ، يبتدىء من شهر نوفمبر وينتهي عند شهر مارس مع انقطاع الامطار غالبا في شهر جانفي ؛ وخلال شهرى النمو في افريل وماية ينزل من انسواء ماء غزير هو قوام حياة البلاد اذ يذكرى حركة الزراعة والغراسة .

اما فصل الصيف فهو كذلك لطيف معتدل ما لم تهب رياح السموم ، ترسلها افريقيا تحية غير لطيفة الى هذه الجزيرة ؛ لكن السموم لا تزيد مدتها هنالك عن ثلاثة ايام متوالية ؛ ومن غرائب عاداتها - ولماذا لا تكون للرياح عادات كعادات البشر ؟ - انها تهب في شهر افريل بصفة خاصة وعند اختلاف الفصول الاربعة بصفة اعم فتأتى معها بجيش عرمرم من الغبار والرمل وتبلغ عندئذ درجة الحرارة في بالرمة وسواها نحو ٣٧ درجة .

اما معدل الطقس فهو في بالرمة نحو ١٧ درجة ، واقصى ارتفاعه الطبيعي هو ٢٦،١٢ درجة ؛ واقصى نزوله زمن الشتاء هو ١١ درجة ، من اجل ذلك سميت تلك الناحية « بلاد الربيع الابدى » ومن اجل ذلك كانت مستقر

الملوك والكبراء والحكام منذ العصور القديمة .

الثروة الطبيعية : اهم النتائج الطبيعية التى اشتهرت بها الجزيرة هو الكبريت le Soufre ويوجد غالبا فى مقاطعات الجنوب الشرقى ؛ فى « قاطانا سبتا » وجرجنتى و (قطانيا) وكذلك حول مدينة بالرمة ؛ ويلي ذلك فى الاهمية الملح المعدنى المستخرج من طبقات الارض ، والرخام بمختلف انواعه الرفيعة والعادية ، وحجارة الكلس والجص والقار بنوعيه .

ولقد كانت الجزيرة ايام الحكم الاسلامى ، وقبل ذلك ، مكتسية بالغابات الشاسعة الغنية التى تنتج انواعا من الاخشاب الصلبة المستعملة فى بناء السفن والمراكب . الا ان سوء الادارة بعد ذلك وعدم التبصر بعواقب الامور ، وترك الحبل يجرى على الغارب دون مراقبة وانتباه ؛ قد افقر الجزيرة او كاد من غاباتها فاصبحت لا تحجب الا مقدار جزء من عشرين من ارضها .

اما الثروة الزراعية فتلك هى نعمة الله الكبرى على الجزيرة ، وذلك ما جعلها الى جانب مناخها الحسن وموقعها المنيع ، مطمح انظار الفاتحين منذ قديم العصور .

من حسنات المسلمين الخالدة بتلك الجزيرة انهم نقلوا اليها من شمالنا الافريقى ، ولا يزال يوجد هنالك وافرا ، النخل الباسق الذى ينتج الرطب الجنى ، واشجار الليمون والنارج والبرتقال والموز والزيتون .

والجزيرة تنتج كميات عظيمة من القمح والشعير والقطاني والكتان ، وتعتبر بعد البلاد التونسية اكبر منتجى زيت الزيتون .

اما اعنابها فذات شهرة بزت شهرة اعناب اليونان ؛ وتنتج صقلية خمورا وافرة تعتبر احسن خمور اوروبا واجودها ، عند اهل الخبرة .

وان كانت الماشية بالجزيرة غير ذات اهمية ، تشمل قطعان الغنم والبقر والماعز والخنازير ؛ فان سواحلها وافرة الغنى بما ينتجه صيد البحر من اسماك مختلفة الانواع ، يستهلك الاهلون فى طعامهم الكثير منها ؛ ويصبر اغلبها ويوضع فى العلب للتصدير كالتن والسردين وما اشبهها ؛ ونشأت عن ذلك

صناعة ذات بال •

السكان - لا نريد ان نخترق غياهب العصور ؛ حيث يختلط التاريخ بالحرفات وتندمج الحقائق فى الاساطير ؛ لكى نبحث عن سكان صقلية الاصليين ؛ وهل كانوا فى العصر الحجري من اقوام الشمال انحدروا نحو الجنوب ؛ او من اهل الجنوب صعدوا نحو الشمال ايام ، كانت اوروبا وافريقيا قطعة واحدة ، وصقلية اداة وصل بينهما •

وان كان لى ان ابدى رأيا فى الموضوع ؛ لا يعتمد الا على الحدس والتخمين ، فهو ان سكان المغاور والكهوف انذين عمروا صقلية انما صعدوا اليها من افريقيا ولم ينحدروا لها من اوروبا ؛ ذلك ان مناخ صقلية لطيب ، ومراعيها اخصب ، ومياهها اوفر من افريقيا ؛ والانسان الاول فى فجر حياته كان يبحث عن كل ذلك ويسير نحوه حيثما وجده ؛ وعليه فسكان صقلية الاولون يكونون فرعا من اجداد البربر سكان الشمال الافريقى • وهذا البحث جدير بالاهتمام والدراسة •

انما الذى اثبتته التاريخ بصفة قطعية ، هو ان سكان صقلية فى العهد التاريخي كانوا من قوم « الصيقول » وهم امة نشأت فى بلاد البلقان ما بين مقدونيا وبلاد الاغريق ؛ ثم استوطنوا ايطاليا ومنها عمروا الجزيرة التى اشتقت يومئذ اسمها من اسمهم (صيقول = صقلية) فابتلعوا من سبقهم بها من الشعوب الاخرى •

ثم امت الجزيرة جموع واثرة العدد من جزيرة اقريطش ، واخيرا هاجر اليها قوم غفير العدد من الاغريق ، فعمروها وهذبوا حواشيها ، ومدنوها على غرار مدنيتهم انلامعة الزاهية ، وكانت يومئذ نبراس العالم المنير ؛ فابتلعوا فى بودقتهم كل العناصر الاخرى ؛ ولم يبق بالجزيرة الا الاغريقى الاصيل او الاغريقى الصيقولى الاصل •

اشتعلت نيران الحرب البونيقية بين روما وقرطاجنة فوق اديم الارض الصقلية فامتلات الجزيرة بالرومانيين والقرطاجنيين وبالتابعين وتابع التابعين

لكل من الفريقين من عبيد وجند مرتزق شمل اخلاطا من شعوب البربر والقوط والوندال .

ثم ان الفتح الاسلامى قد طبع البلاد بطابعه الخاص : فترك بها من سلالات العرب والبربر ما لا يحصى اثره ، او تنعدم شمائله ، كما ترك اهل الشمال النرمانيون اثارهم كذلك بينة واضحة ، كما تركها من بعدهم الجرمانيون الذين اسسوا دولة « شواب » هنالك .

فالعنصر الصقلى انيوم ، مزيج من شعوب الشرق بين يونان وكنعانيين وعرب وبربر ؛ ومن لاتينيين وجرمانيين . ولا تزال بالجزيرة جماعة لا شك فى اصلها الكنعانى ، تتكلم لسانها العربى المحرف على غرار اهل مالطة ، ولا تزال محافظة على شىء من طقوس من دينها الوثنى القديم .

ولقد انتج اختلاط هذه العناصر وتساكنها ، بله وتنازعها البقاء ثم تشكل بقاياها فى صفة امة ، قوما اقوياء ابنية قصار القامة ، نحيفى الاجسام ، لا يزيد معدل الطول فيهم عن متر و ٦١ فى السواحل وميتر و ٥٠ فى داخل البلاد .

ولقد تقنى بعض الشعراء بجمال المرأة الصقلية ، كما ضربت بجمال المرأة الاسبانية الامثال . انما كلتا المرأتين لا تتميزان بشىء عن المرأة المتوسطة الاعرابية ببلادنا .

وليس للرجل الصقلى ما يميزه كثيرا عن الرجل الاسبانى ، بل انك فى اغلب الجهات تكاد تجده اسبانيا خالص السحنة : اعين سوداء لماعة ، وبشرة سمراء قاتمة ؛ وانف اقنى ، وخدود غائرة ، فهو بلاشك اقل جمالا من العربى الصميم .

وفى كثير من الجهات تجد الشعر الكستنائى والعيون الشهل ، وتجد احيانا على قلة الشعر الاشقر والاعين الزرقاء وذلك فى الاوساط المثيرة الراقية ؛ مما يدل دلالة واضحة على انهم من بقايا النرمان والجرمانيين .

والصقلى بصفة عامة متوسط الذكاء ؛ ويكون ذكاؤه احيانا دون

المتوسط ، وهو غير مبال لعلم ولا لفن ؛ وكانت الامية تغلب على البلاد بصفة مدهشة قبل الاستقلال اذ اتى فهناك تجد ، الحرافات موطننا خصباً ، والاعتقاد فى القوى الطبيعية ومفعول انسحر عظيم ؛ والعادات الوثنية قد تركت هناك اثرها لم تستطع محوه يد الاسلام ولا يد النصرانية .

المجتمع : سكان صقلية اليوم يزيدون عن خمسة ملايين نسمة ، يتكلمون نوعاً من اللغة الطليانية المحرفة ليست بذات رقة ولا جمال ، ويعيش الناس هناك منقسمين الى طبقات اجتماعية ينفصل بعضها عن بعض ولم تستطع ايدى الاصلاح القليلة ان تغير من ذلك شيئاً محسوساً . فالسواد الاعظم من الناس كان يعيش هناك مع السلطة الطليانية الملكية مهضوم الحقوق مهيض الجناح فاقد كل وسائل الحياة الشريفة .

هناك طبقة مستعمرة غنية ؛ تملك الارض وما عليها ، تسرف فى الترف وتنعم بملذات الحياة ، وتمتع بسكنى القصور الفخمة والحدائق الغناء ؛ وترداد الاندية الفاخرة ؛ ثم هى تدير مزارعها الشاسعة مصدر ثروتها ومنبع غناها بواسطة نظار ماجورين ؛ وعمال فلاحين لهم عليهم اغلب الحقوق التى كانت للامراء الاقطاعيين فى القرون الوسطى ؛ وكانت هذه الطبقة قبل النظام الفاشيستي واثناؤه ؛ تؤلف كتلة قوية تخضع لارادتها رجال الحكومة ونواب الامة وشيوخها ايام الحكم البرلماني ؛ وكثيراً ما مد هؤلاء الطغاة ايديهم لعبيدهم ؛ وساعدوهم على القيام بسافل المآرب مقابل المساعدة التى يلقونها منهم لتنفيذ غايتهم من مقاومة الحكومة ان ارادت اصلاحاً لا يرضونه ؛ ومن التعرض لنزع ملكية الارض لفائدة صندوق الدولة اذا ما تراكت الضرائب عليهم ؛ وغير ذلك مما يطول ذكره .

ولقد شكل حثالة الصقليين جمعية سرية اسموها « لامافيا » انتشرت فى انحاء البلاد ونشرت شرورها وآثامها ؛ ولطخت بالدماء البريئة ارجاءها ؛ خدمة للمآرب سافلة وارضاء لمطامع نفسية دنيئة .

تاريخ صقلية - ٢

وتحت هذه الطائفة فى السلم الاجتماعى ؛ توجد طبقة المديرين والمحصلين والسماصرة الذين يباشرون الامور وساطة بين كبار المستعمرين والعملة .

واخيرا فى اسفل الدرجات ؛ تجد طبقة العمال الفلاحين وكانت تكاد تكون من طبقة الرقيق ؛ لا يرى الرأى لها مثيلا ، الا فى روسيا قبل ثورتها الشيوعية او فى بعض جهات الشمال الافريقى ايام الاستعمار الفرنسى الفظيع .

فالتبقات العاملة ، ليست لها مساكن صحية ، ولا تتقاضى من الاجر الا ما لا يكاد يسد الرمق ؛ وليس لها من اللباس الا ما يكفى لتمييزها عن بقية الحيوان ، ثم تراها بعد ذلك ترزح تحت وطأة الضرائب العامة التى تصيب المواد الاولى الضرورية لحياة الانسان ؛ فالصقل كان افقر انسان فى رعوية ايطاليا لكنه يتحمل اربعة اضعاف ما يتحملة الطليانى من الاعباء ؛ ثم هو لجهله وقلة ادراكه ؛ كان يطيع السادة الاقطاعيين طاعة عمياء ؛ ياتمر طوعا باوامرهم وينتهى بنواهيهم ؛ كانه يعتقد دينيا بان الله خلقه من اجل خدمتهم .

اما طبقة العمال فى المناجم والمعادن ، وبقية الصناعات الاخرى ؛ فقد تمكنت بفضل اجتماعها وتغلغل الافكار الاشتراكية فيها ؛ من تغير حالها والاحراز على بعض الحقوق ؛ ولقد جنحت فى بعض الاحايين لفكرة الشيوعية؛ الى ان ضربتها الفاشستية الهوجاء فسوت بينها وبين بقية العمال فى ايطاليا تحت لواء طغيانها . واستمر انين العمال خافتا ؛ الى ان افلت شمس الفاشيستية ؛ وهاجمت قوات المتحالفين من انكليز واميركيين ارض الجزيرة ، فلم يحرك اهلها ساكنا ، بل تقبلوا الفاتحين بصدور رحبة ملئت الحرب ؛ وقلوب مبتهجة سئمت الجور والطغيان ؛ وكانهم قالوا ان ليس فى الامكان اسوأ مما كان ؛ فمرحبا بالقدام الجديد ؛ عله يصلح ما افسده الاقدمون .

وبعد كفاح طويل ، نالت الجزيرة ما كانت تصبو اليه من استقلال

ادارى ، وحكم محلى ، كما سترى فى الموجز التاريخى ، فانكب احرار صقلية
على اعمال الاصلاح الذى شمل الميادين الاقتصادية والاجتماعية • ولا يزال
مجال العمل امامهم فسيحاً •



القسم الثانى

تاريخ جزيرة صقلية من اقدم عصورها الى اليوم

الفنيقيون : منذ نحو الالف سنة قبل الميلاد (١) توطن شعب الصيقول الجزيرة التى اشتقت من اسمه اسمها ، واسس ذلك الشعب المدن والداكر ، واصلح الارض ، ولم يقع اى تصادم بينه وبين رواد المدينة الشرقية بحارة فنيقيا من بنى كنعان ، وقد كانوا يومئذ يجوبون عباب البحار ويؤسسون على سواحلها قرى تجارية كانوا يدعونها « المصارف » وبواسطتها كانت اشعة انوار المدينة الشرقية تبدد ظلمات الوحشية الغربية . وان المبادلات التجارية ولتعارف والتثالف حول تبادل المصالح لاحسن وسيلة لارتباط الشعوب بعضها ببعض وتآخياها فى سبيل التقدم الانسانى ، شتان بينها وبين وسائل الغزو بواسطة الحديد والنار ؛ واخضاع الشعوب الضعيفة تحت نير الاستعمار .

سلك الفنيقيون هنالك مسلكهم فى بقية الحوض الغربى من البحر المتوسط فاسسوا بالجزيرة مراكزهم التجارية العمرانية ومنها « معطية » وبانورم « بالرمة » و « صلديس » .

الاغريق : وانبثق بعد ذلك من الشرق نور جديد ، بسط على صقلية شعاعه مع رجال الاغريق ذوى المدينة الزاهية الزاهرة ، فاستوطنت جموع كثيرة منهم شرقى الجزيرة فعمروها واسسوا بها مدنا شهيرة مثل « سرقوسة » سنة ٧٣٤ قم و « قطانية » خمسة اعوام بعد ذلك و « مسينا » حوالى ذلك التاريخ ، واستمر نفوذ اليونانيين الاغريق فى تقدم وازدياد نحو مائتى عام الى سنة ٥٣٦ قم .

(١) فى نفس الوقت الذى ابتدأت فيه هجرات الكنعانيين الفنيقيين الى المغرب العربى .

تدخل قرطاجنة : تضاعف شأن الاغريق حيث كانت بلادهم ميدانا للانقسام والتناحر حول الحكم والمناصب ؛ وما كانوا يتورعون عن ايقاد نيران الحرب الاهلية فى ذلك السبيل ؛ وكانت يومئذ مدينة قرطاجنة الافريقية الكنعانية تسطع بدرا لا معا فى سماء العالم القديم ؛ وكانت راسخة القدم فى بلاد الشمال افريقى ، تربط بين مختلف ارجائه برباط المصلحة والمدنية ، ولقد مدت ابصارها الشرهة نحو جزيرة صقلية ورامت الاستحواذ عليها ، اما تمهيدا لوثبة اخرى من ورائها نحو القارة الاروبية ، واما اتقاء لشر غارة يشنها عليها من يثبت قدمه بتلك الناحية ؛ وقد كانت قرطاجنة احتلت قبل ذلك جزيرتى سردينيا وكركسكا .

لقد كان انزعاج يومئذ مستفهما بين الاغريق والفنيقيين فى صقلية ، واصبح العنصران يتنازعان هنالك البقاء . فاغتنتم قرطاجنة الفرصة وجهازت اسطواها يحمل جندا عتيدا تحت قيادة السبط « مالى » وكانت مهمته الظاهرة انجاد الفنيقيين فى الجزيرة ونصرتهم ضد الاغريق ؛ ومهمته الخفية نصب سلطان قرطاجنة على لبلاد . لكن السبط مالى اخفق فى انجاز مهمته . وتغلب عليه اغريق الجزيرة فاخلى ما احتله من البلاد ورجع خائبا الى قرطاجنة .

لم تكن الحبيات العسكرية تثنى عزم القرطاجنيين عن مداومة الكفاح والنضال ، فاخذوا يستعدون لاعادة الكرة ، وارادوا قبل ذلك ان يامنوا شر تدخل اجنبى فى الامر ؛ وارادوا ان يجعلوا الاغريق فى عزلة سياسية وحربية ، حتى لا يجدوا معينا لهم فى انبحر المتوسط ، فتعاقدت قرطاجنة مع عدو الاغريق ، ملك الفرس « اكسريس » وتحالفت فى نفس الوقت مع الرومانيين الذين لم يتالق نجمهم بعد فى سماء البحر المتوسط ؛ ووضع القرطاجنيون بهذه الصفة جنوب البلاد الطليانية ضمن منطقة نفوذهم .

جهزت قرطاجنة حملتها الثانية تحت امرة «عملكرض بن ماغون» البرقى وارسلت به الى صقلية ، فتصادم تحت جدران سرقوسة مع الاغريق وما كان

نصيب هذه الحملة الا كنصيب الحملة الاولى : خذلان وفشل ذريع ؛ اما القائد
فقتل ، واما الجند فاسر ، واما الاسطول فدمر .

وكانت بلاد الاغريق يومئذ قد وثبت وثبة جريئة واستعادت قواها
ومنعته فلم يكتف الاغريق بدحر القرطاجنيين بصقلية ، بل تغلبوا مع ذلك
وفى نفس الوقت ، على الفرس اعدائهم الاقدمين فى وقعة سلامين الشهيرة
سنة ٤٨٠ ق م .

طلبت قرطاجنة يومئذ الصلح فنالته بعد لاي من الملك جيلون الاغريقى
الصقلى ، وكان من جملة شروط الغالب على المغلوب ان التزمت قرطاجنة
بالعدول عن تضحية الصبيان بين يدي الصنم ملك ...

ولئن كانت الحية اليمة ، فقد كانت العزيمة عظيمة ؛ وما عثم
القرطاجنيون ان جهزوا حملة نالثة تحت امره حنبعل بن عمكرض (هو غير
حنبعل الشهير بطل الحرب البونيقية) فساروا اليها بقوة وعزم يحدهم
الامل ، وتدفع بهم نحو الامام عاطفة الانتقام والاخذ بالثار ، فنزل حنبعل
الجزيرة ، واخترقها بجيوشه الجرارة ، ونكل برجال الاغريق تنكيلا ذريعا
فذبح فى المكان الذى قتل فيه ابوه عمكرض ثلاثة الاف من مقاتليهم المأسورين ؛
ووطد بعد ذلك سلطانه على نحو الثالث من الجزيرة ، ونال الفنيقيون المتوطنون
هنالك فوزا عظيما . ثم انعقد الصلح بين القرطاجنيين وبين الطاغية دينس
اليونانى ، ملك سرقوسة ؛ نال بواسطته كل من الفريقين الاستقلال
بالحكم فى نصف من الجزيرة .

وما كان الصلح من دينس الا خدعة وكسبا للوقت ؛ فما كانت تنقضى
مدته المعينة ، حتى كان قد اكمل عدته واحسن عدته ؛ وشنها على
قرطاجنيين والفنيقيين حربا شعواء ، دحرتهم آخر الامر فحطم مدنهم وخرب
معالمهم ؛ واسر رجالهم ونساءهم فبيعوا رقيقا .

حاول السبط هملقون محاولة جريئة للأخذ بالثار ؛ وانقاذ ما يمكن
انقاذه ، فحاصر سرقوسة فعلا واحتلها ودحر الاغريق فى عدة مواطن ، وكاد

يستتب له الامر نهائيا ، لو لا ان مددا عظيما جاء الاغريق من بلاد اليونان ام السوطن ، فدارت الدائرة من جديد على رجال قرطاجنة وانتحر السبط - هملقون - بالاقلاع عن الطعام ، وهذه اول مرة فى التاريخ على ما اعلم نرى فيها مثلا لأضراب الجوع الذى اشتهر فيما بعد فى تاريخنا الحديث بأضراب الزعيم الارلاندى « ماكسويل » شيخ مدينة يورك وبأضرابات زعيم الهند « غاندى » المتوالية ؛ وأضرابات احرار الجزائر الصناديد ايام حرب التحرير . وخسرت قرطاجنة يومئذ سنة ٣٩٥ قم جميع ما امتلكته فى الجزيرة ، فاحتله الاغريق .

لكن المحاولة الخامسة لم تبطئ كثيرا ؛ فجهزت قرطاجنة القائد « ماغنون » وارسلته صحبة جند ضخمة واسطول قوى ، فامتلك الكثير من السواحل الصقلية ، وثبتت هنالك اقدام القرطاجنيين الذين اتصلوا بالقائدين صديرا وعملكرض مددا ؛ والقت قرطاجنة يومئذ فى الميدان الصقلى باحسن ما كان لديها من جند وعتاد . واستمرت الحرب طويلا فى الجزيرة بين قرطاجنة وسرقوسة الى سنة ٢٦٤ قم ، حيث استتب لهم الامر بكامل الجزيرة ، لا بواسطة الحرب والقتار ، بل بواسطة انقلاب سياسى خطير ، ذلك ان الملك الاغريقى « هيارون » اذ راي نفوذ روما يقوى ويشتد ويتفاقم امره ، دخل تحت حماية قرطاجنة ، وتعاهد معها على دحر كل طارق جديد .

روما وقرطاجنة : كانت رومة حقا قد نشأت يومئذ نشأة قوية واشتد ساعدها واخذت هى الاخرى ترمى بانظارها وراء البحار ؛ فرأت مثلما رأت قرطاجنة من قبل ان امتلاك صقلية ؛ انما هو عمل اساسى من اجل تحقيق امانيها فى التوسع والاستعمار ، وان السلطان الرومانى لن يتحقق فى البحر المتوسط ، ما لم ينصب اعلامه من قبل فوق اديم الارض الصقلية ؛ ومن ثم شجرت الحروب البونيقية بين روما وقرطاجنة ، فدامت ١١٨ عاما ؛ فى ثلاث دفعات متوالية ؛ ابتدأت بصقلية سنة ٢٦٤ وانتهت بتحطيم قرطاجنة واعدامها من عالم الوجود ، بصفة وحشية ، سنة ١٤٦ قم .

كان السبب الظاهري للحرب البونيقية الاولى ؛ وهى الوحيدة التى يهمنى
امرهما فى جزيرة صقلية ، هو ان جماعة من سكان ايطاليا كانوا يحتلون
مدينة مسينا المواجهة لبلادهم ؛ فكانت - حسب التعبير العسكرى الحديث -
راس جسر مده الطليانيون فى الارض الصقلية ؛ واذا كانت روما قد شبت
وترعرعت واصبحت تحلم بالسيادة البحرية ، راي القرطاجنيون ، كما راي
حليفهم الاغريقى ملك سرقوسة ، ان بقاء الطليانيين بمسينا يوشك ان يكون
خطرا يهدد الجزيرة بشر مستطير ؛ فجهز الحليفان حملة داهمت مسينا ؛
فاستنجد اهلها بنى جلدتهم الرومانيين ، وكان هؤلاء لا ينتظرون الا مثل هذه
الاشارة ، فارسلوا عشرين الفا من خيرة رجالهم ؛ يقودهم القنصل « ابيوس
كلوديوس » نزلوا مرسى رجيو ؛ وارغموا القرطاجنيين على فك حصار مسينا
واطردهم عن ساحتها ، فاعتصموا ببعض معاقلمهم بعيدا عنها ؛ ثم لوى
الرومانيون عنانهم نحو الملك الاغريقى هبارون فاضطروه للالتجاء الى معقله
فى سرقوسة ، ثم فاضوه فى نكت عهد القرطاجنيين . وقد راي رأى العين
قوة شكيمة الرومانيين ، وحسن نظامهم ، واقتنع بان الحسران سيكون
نصيب اعداء الامس وحلفاء الساعة ، فقلب لهم ظهر المجن واعلن محالفة رومة
واخلص لها الولاء . وذلك سنة ٢٦٣ ق م ، ورجع القائد حنون القرطاجنى
لوطنه مذموما مدحورا ، فاتهم هنالك بخيانة الوطن واعدم صلبا .

رأت قرطاجنة يومئذ ، والحق ما رأت ، ان المسالة اصبحت تتعدى
صقلية ، وان الهدف الذى يرمى اليه الرومانيون هو سيادة البحر المتوسط ،
وان الحرب ان غادرت الارض الصقلية فلكى تحل بويلاتها فى الارض
الاfrيقية . ومن اجل ذلك قررت وجوب التضحية بكل عزيز فى سبيل
الاحتفاظ بتلك الجزيرة ؛ او على الاقل بجعل الحرب منحصرة هنالك ، وقاية
لقرطاجنة وارضها الافريقية ؛ فجهزت من اجل ذلك حملة جديدة ، بلغ عدد
رجالها ٥٦ الف رجل ، نزلوا بمدينة « اقريجننت » ، وتصادموا حولها مع
جند الرومان تصادما رهيبا ، وما استطاعوا صد رجال رومة عن تلك المدينة.

فسقطت بين ايديهم ، وباع الرومانيون بيع الرقيق من بقى من اهلها حيا ،
وكانوا زهاء الخمسة والعشرين الفا .

وما كانت تلك خاتمة نكبات قرطاجنة بارض صقلية ، فان هذه الدولة
التي اظهرت بهذه المناسبة ثباتا عز في التاريخ نظيره ، ارسلت القائد صدر
بعل سنة ٢٥٠ قم ؛ لمحاولة استرجاع ما فقدته بصقلية ، ولامداد معاقلها
الباقية هنالك بالنجدات اللازمة ؛ فنال أول الامر فوزا وجيزا ، ثم دحره
القائد الروماني « ميتلوس » آخر الامر وكسره سر كسرة وقتل من جنده
اكثر من عشرين الف رجل ، ورجع القائد المنحدر لقرطاجنة حيث كان
ينتظره الاعداء صلبا .

كانت تلك آخر عملية ذات اهمية قامت بها قرطاجنة هنالك ، وقد اعتقد
رجالها آخر الامر ، وعندما غضب معينهم ، ان صقلية قد افلتت من ايديهم
نهائيا وان لا قبل لهم بمقاومة الرومانيين ، فلم تكذب تخفق المحاولات النهائية
اليائسة التي قام بها القائد عملكرض البرقى سنة ٢٤٢ قم ؛ حتى انسحبت
قرطاجنة نهائيا من تلك الجزيرة بعد تدخل واستيلاء داما ٢٧٤ عاما ، وانتهى
بذلك أمر الحرب البونيقية الاولى .

لقد كانت هذه الحرب اكبر اسباب انهيار قرطاجنة فيما بعد ، اذ فقدت
فيها تباعا زهرة رجالها ، وخيرة قوادها واكثر معداتها ومدخراتها ؛ كما
كانت هذه الحرب ايضا اول اشراق لبدر رومة الذي ازداد فيما بعد - طيلة
قرون عديدة - نموا ولمعانا .

الحكم الروماني - اصبحت الجزيرة يومئذ من ممتلكات روما ، تابعة لها
في حياتها الادارية والاقتصادية ؛ واصبح تاريخها في ذلك العهد جزءا من
تاريخ الامبراطورية الرومانية عدة قرون ؛ شاركت فيها نمو الامبراطورية
وصعودها اوج القمة ؛ وشاركت فيها انحدارها في مهاوى الانحطاط والانحلال
شاركت صقلية روما في حروبها الداخلية الفتاكة ، فنالها من جراء ذلك
خراب كبير ؛ وعلى الاخص بعد تلك الفتنة الوحشية انفضية ؛ فتنة

اوكتافىوس وبومباى ؛ حيث خربت المعالم وحطمت المدن ، وعمت النكبة
سائر اصقاع البلاد ، حتى اضطر امبراطور اغسطس لاعادة بناء مدنها
وتعميرها من جديد بواسطة جموع من الرومان والافاقيين والعبيد .

وقد كان كبار المستعمرين الرومانيين يرسلون الى الجزيرة زرافات من
العبيد يعملون هنالك كالانعام لفائدة السادة ، وكانوا يعاملون معاملة هى
الوحشية بعينها ، رمت بهم الى احضان الثورة العنيفة مرارا ؛ فكانت ثورات
العبيد الفتاكة ضد سادتهم ، سنوات ١٣٩ و ١٠٤ ق م و ٢٥٩ بعده ؛ من
اكبر نكبات الجزيرة اثناء الاحتلال الرومانى .

وعندما انقسمت الامبراطورية الرومانية شطرين : بيزنطية شرقية ،
ورومانية غربية ؛ كانت صقلية من نصيب الرومانيين ونالها ما نالهم فى
عصر الانحطاط والاضطراب ، من فتن فى الداخل ؛ وتدهور فى الاخلاق ،
وانحطاط فى النفوس ، واخيرا السقوط تحت ضربات الشماليين ؛ الذين
كانوا يدعونهم يومئذ « الباربار » اى الوحشيين .

صقلية الرومية - عندما استقرت قدم الوندال بالشمال الافريقى ؛
ونسفوا باعانة البربر فى سنوات قليلة كل معالم الرومانيين بهذه الارض
ما دية كانت او معنوية ؛ اصابتهم ممن سبقهم بقرطاجنة عدوى الفتحة والتوسع ،
فتوجهوا صوب صقلية ايام عاهلهم العظيم جنصريق ، واستحوذوا عليها دون
عناء كبير واتخذوها مركزا لغزواتهم ضد ايطاليا وما حولها .

لكن ايام الونداليين لم تطل كثيرا هنالك ؛ حيث ان الروم البيزنطيين
اعادوا الكرة عليها ، واستخلصوا القائد بليزار من ايديهم نهائيا سنة
٥٣٠ م (١) ، واصبحت منذ ذلك العهد ، ولمدة ثلاثمائة سنة ، قطعة من الارض
البيزنطية ، اصابها اثناءها ما اصاب بقية الارض الرومية ، وخاصة الشمال
الافريقى ، من فتن واضطراب ، وفساد فى الادارة ، وفتن ودسائس ؛ حيث
اصبحت الرشوة هى القانون انعام الذى يخضع له الموظفون واصحاب السلطة
والنفوذ ؛ فما ترك الروم الجزيرة الا وهى اشبه شىء بالحراب البلقع ، وذلك
سنة ٨٢٧ م .

صقلية الإسلامية - توطدت سلطان المسلمين بالبلاد حسبما سيأتى تفصيله ، وتوالت على الجزيرة وفود العرب والبربر ؛ للفتح والسكنى والاستعمار ، فبنوا فيها القرى والدساكر ، وعمرؤا بساكنها ، واحياوا حقولها ، وأسسوا المدارس والمساجد ، وانشأوا بها صناعات كانت يومئذ مجهولة فى اوروبا ، وادخلوا فيها كما رأيت فى القسم الجغرافى ؛ اشجار الزيتون ولنخيل والليمون ولبرتقال وقصب السكر ؛ ثم تركوها جنة يانعة ؛ حسبما سيمر بك فى آخر الكتاب ، رغما عما كان يقع بينهم من فتن دامية واضطرابات ، ورغم الوقائع الحربية التى كانت مسترسلة بينهم وبين المسيحيين دون انقطاع .

ولقد حكم المسلمون صقلية ، غازين فاتحين ممدنين ، مدة ٢٢٣ عاما عنها ، فكانوا طيلة عهد النرمان ، هم الذين يديرون الملك ويدبرون شؤون السياسة ، ويعمرون قصور الامراء ودور العلم ، ويشيدون المعالم والمعاهد ؛ هجرية (٢٢٤ عاما ميلادية) من سنة ٢١٧ الى ٤٥٠ هـ.ج. ومن سنة ٨٣٢ الى سنة ١٠٥٦ م .

الا ان نفوذهم بقى عظيما قويا فى الجزيرة ، بعد ان تقلص سلطانهم والمعاهد فكانوا يومئذ يشتركون فى حكم الجزيرة اشتراكا فعليا ، حتى انه ليكاد يتقرر بان ازهى وازهر عصور المسلمين فى صقلية انما هو العصر الذى عملوا فيه اعمالهم التمدينية الباهرة تحت سلطة امراء النرمان .

ولقد اتخذ اولئك الامراء الشماليون ، وكانوا حديثى عهد بالمدينة ، سيرة ملوك المسلمين ، فلبسوا لباسهم ، وتحلوا باخلاقهم ، وسكنوا مساكنهم ، واستعملوا فى دواوينهم لغتهم العربية ، فكانت الدولة يومئذ

(١) بعد اربعين عاما ، سنة ٥٧١م اذنان العالم بازدياد سيد البشر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة ؛ اسام حكم كسرى اتو شروان بالفرس ، وحينما كان ابرهة ملك الحبشة ، صاحب الغيل ، يحاول فتح مكة لتحطيم الكعبة ، فدمره الله شر تدمير ، وللبيت رب يحميه .

دولة نورمانية اسلامية ، ودامت الحالة على ١١ ذكرنا سائرة لا محالة فى طريق الضعف والانحطاط والتدلى طيلة ١٩٣ عاما ؛ الى ان طغى سلطان التعصب الدينى ، فأخرج الامبراطور افريدريك الألماني المسلمين عامة من الجزيرة وانزلهم بالسواحل الأفريقية ؛ وبقيت منهم بقايا بالبلاد تنصرت او ماتت مما وكمد .

وهكذا اقام المسلمون من اهل الشمال الافريقى بالارض الصقلية بين حاكمين ، ومشاركين فى الحكم ، ومحكومين ٤٢٦ عاما : تفصيلها بالتاريخ الهجرى :

مدة الحكم الاسلامى (٢١٧ - ٤٥٠) ٢٣٣ سنة

مدة الحكم النورمانى (٤٥٠ - ٦٤٣) ١٩٣ سنة

النورمان - النرمان ، واسمهم مشتق من كلمة نور Nord اى الشمال قوم انحدروا من اعلى اوروبا ، وخاصة من قطرى النرويج والدانمارك ، نحو جنوب تلك القارة وشرقها ، فاغاروا خلال القرن التاسع الميلادى على بلاد الشرق الاوروبى وكانت تلك الطائفة المغيرة منهم تدعى « روس » فتوطنوا السهول حوالى نهر « دنيابر » وعمرؤا مدن سمولنسك وكييف وغيرها من شهيرات المدن التى سارت بذكرها الركبان خلال الحرب العالمية الثانية ، ثم توغلوا فى الارض ميممين شطر الجنوب الشرقى ، مقتحمين امبراطورية بيزنطة ، حتى وقفوا تحت جدران القسطنطينية ، ثم رجعوا عنها خائبين ، وثبتت اقدمهم بالشرق الاوروبى ، فاصبحت البلاد هنالك تدعى باسمهم « روسيا » .

ولقد كان لمقامهم بالغرب الاوروبى ، ما كان لمقامهم بالشرق من اثر كبير ؛ فانهم كانوا يتدفقون نحو الغرب فى جماعات متوالية ، قليلة العدد ، يركبون مراكب خفيفة سريعة ، يلقون مرسأها عند مصب الانهر الفرنسية الكبرى ؛ وخاصة نهر انسين ، وهنالك كانوا يطلقون لعواطفهم الوحشية العنان من نهب وسلب ، وتخريب معالم ، وهتك حرمت ، لا يراعون فى مخلوق الا ولازمة ؛ وابتدأ ذلك الخطب الوبيل حوالى سنة ٨٠٠ ، عند ما كان الامبراطور

شرلمان يتولى امر امبراطورينه الغربية ، وعند ما كان ابراهيم بن الاغلب
يؤسس فى افريقيا دولته المستقلة ، ضمن دائرة الخلافة العباسية .

واما ملك الانكليز الفريد الكبير ، فقد او قف تيار هجرة النرمانيين الى
بلادهم بواسطة معاهدة عقدها مع كبرائهم ، بدل فى سبيل تحقيقها غالى الثمن ،
واشترى بواسطتها راحة بلاد الانكليز ائى حين .

اما شارل الاصلع ملك فرنسا ، فقد أخذ يحدو حذو الانكليز ،
ويشترى بالثمن انفاحش مرة بعد اخرى ، انسحاب النرمانيين من بلاده .
ولقد نقضوا مرة العهد ، وضيقوا على مدينة باريس الحصار ، فلم ير شارل
السمين ، ملك فرنسا يومئذ بدا من بذل ثمن لانسحابهم لم يرو لنا التاريخ
مثلا له فى خطته ودنائه : سمح لهم بمقابل فك الحصار عن باريس بنهب
مقاطعة برغونيا الغنية الزاهرة ، ولا تسئل عما وقع هنالك من فظائع واهوال
ووحشية تقشعر لذكرها الجلود (١) .

واخيرا تعاقد معهم نهائيا ملك فرنسا شارل البسيط ، فاقطعهم الناحية
الشمالية الغربية بفرنسا ؛ على ضفاف بحر المانش ، وهى التى اتخذت منذ
تلك الساعة اسمهم فاصبحت تدعى « نرمنديا » وهى اليوم من ازهر وابدع
جهات فرنسا ، وفى مقابل ذلك اعترف اميرهم رولون بالتبعية لملك فرنسا ،
فتأقلموا فى البلاد وانتهى امر عدوانهم .

(١) كان من نتائج اعمال النرمان بالبلاد الفرنسية ، ان انتظمت بها حياة « البسادة » الاقطاعيين ؛
واصبح لهم النفوذ المطلق بالبلاد ؛ حيث ان عامة الشعب لم تكن قادرة على الدفاع عن نفسها ؛
فاخذ الاغنياء ينشئون القصور المحصنة ويحيطونها بالاسوار المنيعة والحدائق العريقة ، وكلما
تم بناء قصر ؛ امته جموع الشعب فسكنت حوله ، واحتمت به ، فكان سيد القصر يبذل حمايته
لتلك الجموع ويتودعها فى الحرب مقابل اطاعتها له واذعانها لأوامره ، وازدادت تلك الطاعة مع
مرور الزمن حتى اصبحت عبودية مطلقة ؛ واصبح السيد يملك رقاب رعاياه ومتاعهم ، ومن
جملة حقوقه الدخول على كل امرأة عند زفافها قبل زوجها ؛ وتفاقم نفوذ هؤلاء السادة ، حتى
اصبحوا اشبه شئ بالملوك المستقلين ، ومنهم من نما سلطانه واستقل فعلا وبتر علاقاته مع
الملك ، وامتلت القرون الوسطى بفظائع ووحشية هؤلاء السادة الهمج ، وكان لهم خلال
العدوان الصليبي على بلاد الاسلام شأن كبير .

الا ان اغرب غزواتهم وابعدها مدى واكبرها اثرا ؛ هي غزوتهم لجزيرة صقلية ، وغزوتهم بلاد الانكليز على يد غليوم الفاتح امير نورمانديا ، المولود بمدينة فاليز من مدنها اثنى لا تزال قائمة الجدران ؛ فانه قد اغار بجموعه على بلاد الانكليز سنة ١٠٦٦ وقتل ملكها فى موقعة هاستينغ التى كانت اعظم انتصار تحصل عليه النرمان فى تاريخهم ، فبايعه الانكليز ملكا عليهم فى مدينة لندن ، واحاط عرشه بسياج متين من الاشراف واللوردات وكبار الامراء ؛ فطبع بلاد الانكليز بطابعه الخاص الذى لا يزال الى يومنا هذا موجودا ، رغم تطور الزمن .

اثناء هذه الحوادث كان فريق آخر من النرمان فى الجنوب الاربوى ؛ قد وطدوا ملكهم على انقاض ممتلكات الاغريق بالبلاد الطليانية الجنوبية ، وفى سنة ١٠٦١ اجتاز احد ملوكهم روجى (رجار) مضيق مسينا ، ووضع قدمه فوق الارض الصقلية لمحاربة المسلمين والقضاء على ملكهم هنالك ، فنشبت بين الفريقين حرب عوان استمرت ثلاثين سنة ، وانتهت عام ١٠٩٦ (١) بتحطيم آخر مقاومة حربية اسلامية ؛ وقد كان حينئذ الامير روبر ، شقيق الملك رجار ؛ قد مد سلطانه فى ايطاليا شمالا حتى مدينة نابولى .

تولى الملك فى صقلية سنة ١١٠١ ، الملك رجار الثانى الحكيم ، وكان فى اعماله وفى تصرفاته ملكا اسلاميا ، نالت الجزيرة فى عهده اوج عزها ومنتهى

(١) من غرائب الصدف ، ان تاريخ انتهاء آخر مقاومة اسلامية بصقلية كان تاريخ ابتداء تلك الحملة الشعواء الهائلة ، التى شنتها المسيحية على الاسلام ؛ والتى تعرف بالحروب الصليبية . فقام المسيحيون فى كامل البلاد الاروبية يحدوهم النعصب الاعمى تحت تأثير بطرس الراهب ؛ والبابا اوربانوس الثانى ، وكانت نتيجة الحملة الاولى من هذه الحرب الوحشية ، احتلال بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ؛ وكان المسلمون قد انتجأوا الى مسجدها الاعظم عندما اندحر جيشهم المؤلف من اخلاط الترك والعرب ، فاقترحم الصليبيون المسجد ، وذبخوا فيه وفيما حواله سبعين الفا من المسلمين ، ويقول التاريخ ان الدماء كانت تسيل يومئذ كالادوية بين الازقة والطرق . وقد استرجع البطل الاسلامى صلاح الدين الايوبى بيت المقدس من الصليبيين سنة ١١٨٧ ؛ واندحر ملك فرنسا لويز التاسع تحت جدران قرطاجنة . وتحت ضربات المستنصر بالله الحفصى سنة ١٢٧٠ ، وسنة ١٢٩١ سقطت آخر معاقل النصارى فى بلاد الشام بايدى المسلمين ، وبذلك انتهت المعامع الصليبية التى لطخت ارض الشرق بالدماء ما يقرب من مائتى عام فى ثمان حملات .

سؤدها ، ونال من البابا ١١٣٠ لقب ملك « الصقليتين » .

مملكة الصقليتين - كانت هذه المملكة تشمل صقلية ، وجنوب البلاد الطليانية الى شمالى مدينة نابولى ، ولقد فقدت صقلية بتأسيس هذه المملكة كيائها الذاتى ، واصبح تاريخها مرتبطا بتاريخ البلاد انطليانية .

لقد كان ازهر عصر من عصور هذه المملكة الفتية الناشئة هو عصر الملك رجار الثانى الأنف الذكر ، وكان قد وطد دعائم ملكه على كواهل المسلمين وعلى سواعدهم وأسس بواسطتهم المدارس الكثيرة العالية التى بثت علوم المسلمين فى كل انحاء ايطاليا ، وبقيت البلاد الاروبية ، وكانت عن حق اساس النهضة الاروبية الحديثة .

الحكم الجرمانى - لكن صقلية النرمانية الاسلامية سقطت سنة ١١٩٤ تحت سيطرة اباطرة المانيا من عائلة السواب الجرمانية ، واصبحت قسما من تلك الامبراطورية التى تخضع عن كره منها لسلطان الجرمانيين . ومن اشهر اباطرة هذه الدولة افريدريك الثانى ، فقد اعاد تنظيم الدولة وأسس لها مؤسسات حديثة جريئة ، فجعل منها اهم دولة اوروبية فى عصره (١٢٢٢ - ١٢٥٠) وكان بلاطه الملكى فى بالرمة بفضل انعرب اشهر بلاط فى بلاد اروبا ، وقد عمر الدولة مدارس ومعالم ، واخط المدن والقرى واكثر العمران ، وكان ميالا للعلوم والفنون والآداب ؛ وسأتيك شىء من تفصيل حياته الغربية .

اخراج المسلمين - الا انه الى جانب ذلك ، جنى جناية على صقلية قاست - ولا تزال تقاسى - من جرائم الامرين ؛ ذلك انه بعد سيرته الحسنة الطويلة مع المسلمين ، اراد ان يوحدتها فى المسيحية ؛ وان يخرج منها الطائفة الاسلامية القليلة التى بقيت بها فاركب جميع المسلمين البحر ؛ واجتاز بهم الى الارض الافريقية ؛ ففقدت البلاد بذلك اذكى عناصرها واشدهم عملا واكثرهم مدنية ؛ (١) واكبر دليل على ذلك ، هو ان الدولة اخذت فى الانحطاط والتدلى عندما تم ذلك الحادث الجلل ؛ واخذت او صالها تنفكك ، وتطاول الادعاء عليها فانهار بنيانها ، واغتتم البابا كليمون الرابع فرصة ذلك الانهيار سؤدها ، ونال من البابا سنة ١١٣٠ لقب « الصقليتين » .

فافتك الدولة من ايدي النرمان والشواب ؛ ونصب على مملكة الصقليتين الامير الفرنسي شبارل دانجو شقيق الملك لويس التاسع ، المعروف باسم القديس لويس الذي حارب المستنصر بالله الحفصي في الحملة الصليبية واهلكه الطاعون تحت جدران قرطاجنة تونس .

وانه لمن رائب الاقدار ، ان دولة النرمانيين ما عاشت في صقلية ، الا ما دامت معتمدة على جماعات المسلمين الذين افكتك البلاد منهم ؛ فلما اخرجتهم من البلاد انهار ملكها ودالت دولتها .

مذابح صقلية - كان عهد الفرنسيين بمملكة الصقليتين عهدا ثقيلا ظل غير مرغوب فيه . فالملك شارل ابتدا امره جاهلا عادات البلاد وتقاليدها ، فجرح احساس القوم ، واثقل الضرائب بصفة فاحشة ، واخذ يسحوذ ظلما وعدوانا على املاك الرعايا ويوزعها على رفاقائه الفرنسيين ، فكانت نتائج كل ذلك ان عمد اهل المملكة الى السلاح ؛ وقاموا ثائرين في وجه الطاغية الظالم وانصاره ، وتلك الثورة تعرف في التاريخ باسم (صلاة العصر الصقلية » *Vepres Sicilienne* : ذلك

لأنها انفجرت يوم عيد الفصح في سنة ١٢٨٢ (١) وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين هي قرع نواقيس الكنائس ايذانا بصلاة العصر المسيحية ؛ فانقض الصقليون على الافرنسيين وقتلوهم حيثما تقفوههم ؛ وعلى الاخص في مدينة بالرمة حيث لم ينج من الفرنسيين الا فارسان اثنان ؛ وكانت مذبحة من افظع واقسى ما رواه لنا التاريخ . وكان الزعيم يوحنا دى ابروتشيدا هو الذى تولى كبر الثورة واشرف على تنظيمها . واصبحت كلمة « صلاة العصر الصقلية » تطلق في الادب على كل مؤامرة تنتهى بمذبحة عامة .

دام الاضطراب بعد ذلك في كل جهات الجزيرة ، وعم بها الحراب

(١) واقتدى به من بعد ملوك اسبانيا ، بعد سقوط غرناطة ؛ فابعدوا المسلمين كافة (ثلاثة ملايين) خلال قرن ونيف ، وقضوا بذلك على العلم والعمران واوقعوا البلاد في وحدة الجهل والحراب .

والدمار ، فاستنجد الصقليون عائلة ارغون الحاكمة فى بلاد الشرق
الاسبانى (٢) ، فانجدتهم ضد الفرنسيين ، الذين ثبتوا فى الجنوب الايطالى ،
وكان خلفاء الملك شارل الفرنسى يتخبطون فى دياجير الدسائس والفتن
والاضطراب ، وذاقت صقلية بعض الراحة تحت حكم الاسبانيين .

الحكم الاسبانى - ورث ملوك قشتالة الاسبانيون ، عائلة ارغون فيما
كانت تحكمه من الارض ، وذلك اثر انقراضها ، فنصبوا سلطانهم على اديم
الارض الصقلية منذ سنة ١٤١٢ (٣) ثم استتب لهم الامر بالجنوب الايطالى ،
فمحقوا خيال الحكم الفرنسى فيه ؛ واعادوا تأسيس مملكة الصقليتين كما
كانت اول مرة ، (١) وكان الفرنسيون يوالون محاولاتهم وتدخلهم مفسدين
على البلاد راحتها ، فعادت الفتن والاضطرابات من جديد ولطخت الدماء
الارض ، ودام ذلك الفساد نحو من تسعين سنة ، سادت فيها الظلمات
ارض الجزيرة وانمحت منها معالم المدينة التى شاهدها المسلمون هنالك
والنرمانيون .

ما صفا الجو للحكام الاسبانيين فى مملكة الصقليين ، وما قضاوا على
آثار الاضطراب القديم الا حوالى سنة ١٥٠٣ ، ودام ذلك الحال فى صفو
نسبى خلال مائتى عام ؛ اخفقت اثناءها دولة النمسا فى محاولة نصب
سلطانها على الجزيرة ، وما كانت ايام الحكم الاسبانى الا ايام ظلمات لم يقع
اثناءها اى اصلاح رغم بعض محاولات فاشلة حاونها بعض ملوك البربون .

(١) سنة ١٢٩٩ . استقل الامير عثمان التركى فى قطعة من بلاد آسيا الصغرى وانشأ على
انقاض المملكة السجوقية الواهية ، السلطنة العثمانية الكبرى التى شغلت كامل التاريخ
الحديث الى سنة ١٩٢٢ .

(٢) وقع ذلك بمدينة « القالة » على الساحل الشرقى الجزائرى ، حيث قام الاسبان باول محاولة
لاستعمار المغرب الاوسط ، فى القرن الثالث عشر .

(٣) فى هذه السنة اعاد السلطان محمد الاول العثماني بناء السلطنة العثمانية بعد ان هد
اركانها الطاغية التترى تيمور لك . فى واقعة امقرة الشهيرة سنة ١٤٠٢ ؛ حيث سقط المجاهد
العظيم بايزيد الاول اسيرا ، وتنازع اولاده الامر بعده مدة عشرة اعوام .

الجمهورية - انبثق فجر الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩ ، فالتهمت نيران الافكار الجديدة ؛ وسرى تيارها فى مختلف البلاد ، وحب جماعة من الصقليين تحت زعامة شامبيوى ، شيخ مدينة نابولى ، واعلنوا اعتناقهم تلك المبادئ السامية الخلافة ، مبادئ اعلان حقوق الانسان ، والتساوى بين عامة البشر ؛ وان لا حكم فى بلاد الا لامة ؛ ثم نادوا بتأسيس الجمهورية الشعبية الحرة .

انما حركة الرجعيين كانت قوية عنيفة ؛ اذ جمع رجال الطغيان من رهبان الكنائس ، امراء الاقطاع ، ورؤساء الطوائف ، امرهم ضد حركة الشعب ؛ اذ ايقنوا ان الثورة الجمهورية تذهب باموالهم وبجذعهم وبامتيازاتهم الفاضحة ، فتحزبوا زمرا واشتروا باموالهم جماعة من اللقيف والرعاع يخربون بيوتهم بايديهم ، وصادموا الجمهورية الفتية فنسفوها وارجعوا الملك فرديناند الى عرشه مؤيدا من قبل الاميرال الانكليزى الشهير نلسون ، عدو فرنسا الالده ومحطم اسطول بوناپرت ؛ فامعن الملك البطش بالجمهوريين ، وارهف سيف الطغيان فوق هاماتهم ، فاسقط منها ما يزيد عن العشرة آلاف راس ، وسجن منهم نحو الثلاثين الفا ونفى من الارض حوالى السبعة آلاف نسمة . تلك كانت اكبر نكبات صقلية فى العصر الحديث .

بوناپرت - تدخل نابليون بوناپرت فى المسألة الصقلية الطليانية ؛ وكاد يصبح يومئذ صاحب الحكم المطلق فى الغرب الاروبى ؛ فاعلن خلع العائلة الاسبانية التى لم يبق بين يدها سوى صقلية وحدها ، ونصب شقيقه جوزاف ملكا على دوتة نابولى ؛ ولقد حاول ملك نابولى الجديد الاجتياز الى صقلية ونصب سلطانه عليها الا ان الاسبانين دحروه عند كل محاولة ؛ فكانت مملكة نابولى تحت امرة بوناپرت تزدهر وتنمو ، وتتفشى فيها افكار الثورة

(١) خلال هذه الحوادث فى ٢٩ من شهر مائة سنة ١٤٥٣ ، وقع الحادث التاريخى الجسيم : استيلاء السلطان العثمانى محمد الفاتح - قدس الله روحه - على مدينة القسطنطينية العظمى . ودخل الاسلام اوروبا من جهة الشرق واستقر بها راسخا متينا الى يومنا هذا والى ان یرث الله الارض ومن عليها . وقد اتفق المؤرخون على اعتبار هذا الحادث نهاية القرون الوسطى وابتداء التاريخ المعاصر الحديث . وبعد اربعين سنة من ذلك ، اى سنة ١٤٩٢ ، سقطت مدينة غرناطة بايدى الاسبان ، وانقرضت بذلك دولة الاندلس الزاهرة .

الفرنسية ، بينما كانت بلاد صقلية تحت امرة الاسبان خاضعة لسلطان الضلال .
لكن ايام جوزاف بوناپرت لم تدم بمملكة نابولى طويلا ، فاندحار شقيقه
نابوليون وانسحابه مرغما من ميدان السياسة الاروبية قد جعل عرشه واهى
الاركان وما اغنت عنه محاولة استمالة الاعداء ولا الاستنجد بالنمساويين
شيئا ؛ ونادى بتوحيد الطليانيين تحت زعامته فذهبت جهوده ادراج الرياح ،
وانتهى امره بان اعدم رميا بالرصاص سنة ١٨١٥ (١) فاجتاز فردناند ملك
صقلية الى الارض الطليانية واعاد « مملكة الصقليتين » سيرتها الاولى ، وأرجع
لاصحاب الكنيسة ورجال الاقطاع كل حقوقهم القديمة .

انما الشعب كان قد افاق من غفلته وتشبع بالاافكار الحديثة ، وقد تركت
فكرة الجمهورية فى نفسه اثرا ، فسادت جمعية « الكاربونارى » اى الفحامين
السرية ، واخذت تفتك بالظالمين وتبطش بالمتجبرين ؛ وكانت نتيجة هذه
الحركة ان ارغم الملك فرديناند سنة ١٨٢٠ على اعلان الدستور ، واجتمع
البرلمان انتشعبى لأول مرة فى مدينة نابولى .

عهد الظلمات - اغتتم الملك الطاغية فرصة انعقاد مؤتمر لايباخ ؛ فخرج
من مملكته وذهب يستنجد دولة النمسا ضد رجال الحرية من قومه الذين
ارغموه مكرها على اعلان الدستور ؛ وكانت امبراطورية النمسا مهد الرجعية
ومعقل المستبدين ، فامدته بجند كثيف دخل على رأسه محاربا جنود الحرية
فدحرهم ؛ واعلن حكم الاطلاق من جديد ، وارسل الى الموت والى التعذيب
وبطون السفن للتجذيف آلافا مؤلفة من الرجال الاحرار ؛ ودامت الحالة بثيسة

(١) كان السلطان محمود الثانى العثمانى يقاسى ازمة عنيفة من جراء الثورة الوهابية ببلاد
العرب ، التى اخمدها بشدة طوسون بن محمد على والى مصر (سنة ١٨١٣) ؛ ثم ثورة بلاد
البانيا . وقد حاول السلطان ادخال الاصلاحات الحديثة لبلاد السلطنة ؛ واعد فرقا الانكشارية
الطاغية ، وانشأ الجند الحديث ؛ الا ان ثورة محمد على باشا فى مصر واقتحامه بلاد السلطنة
حتى قونية ؛ وحرب اليونان ؛ وتحزب فرنسا وانكلترا وروسيا ضد تركيا ؛ تحطيم الاسطول
الاسلامى فى معركة نوارين (١٨٢٧) قد جعلت السلطان يحقق فى كل اعماله ؛ واخذ تدهور
السلطنة العثمانية يتفاقم امره تحت معاول اوروبا ، وبمساعدة سائر العناصر المسيحية
فى البلاد .

دامية طيلة ايام هذا الطاغية السافل ، وايام ابنه الذى خلفه فى الحكم فرانسوا الاول (١٨٢٥ - ١٨٣٠) (١) وكذلك ايام فرديناند الثانى بن فرنسوا الاول ، اذ سار على غرار ابيه وجده فى محاربة الحرية والاحرار ، وبطش بطش الجبار بمحاولة دستورية قام بها رجال صقلية سنة ١٨٣١ - ١٨٣٧ ؛ فقمع حركتهم وشتت شملهم .

انما - هل يلد هذا الضغط العنيف المستمر سوى الانفجار الهائل المدوى ؟ فكانت نتيجة هذا الطغيان الجائر ان ثار اهل صقلية ثورة عنيفة منظمة هائلة سنة ١٨٤٨ (١) وعمت تلك الثورة سائر جهات الجزيرة ، واعلنت خلع الملوك الاسبانيين واستمرت الحرب سجالا ؛ وفضاعتها متوالية ؛ وخراباتها عامة الى ان توطد لامد قصير سلطان الملك الظالم .

غاريبالدی - ما مآل الظالمين الا السقوط والانهار ، فان رجال الثورة الاحرار ؛ هبوا من جديد يحدوهم الامل فى نسف قلاع الاستبداد ؛ ويستشهد بين ايديهم قوم ذاقوا نير الجور ، وفضاعة الاستعباد ومرارة التنكيل والاضهاد . ولقد كان على رأس الثائرين هذه المرة زعيم له صفات تؤهله لقيادة الشعب فى طريق الحرية ، هو غاريبالدی الشهير ، فدحر الثائرون الاحرار جنود الملك فرنسوا الثانى ، حتى الجأوه لفرار صعبة آله وذويه .

وكانت ايطاليا يومئذ قد وحدت صفوفها وجمعت كلمتها تحت امره الملك فيكتور عمانويل الاول ؛ واصبحت بفضل سياسيتها الاكبر « كافور »

(١) كان يتولى ملك فرنسا يومئذ الطاغية الظالم شارل العاشر ؛ فامعن فى خنق الحرية وضيق على الناس ، حتى اخذت بوادر الثورة تظهر ، فاراد ان يشغلهم بحرب خارجية عله بواسطة انتصار حربي يستطيع الثبات ؛ فارسل جندا وعمارة قويتين هاجمتا واحتلتا مدينة الجزائر (٥ يولية عام ١٨٣٠) بعد مقاومة عنيفة . لكن ذلك النصر لم يغن عنه شيئا ، وثار الشعب الطالب للحرية ثورة عنيفة فى ثلاثة ايام يدعوها التاريخ « الثلاثة الماجدة » وذلك بعد اربعين يوما من احتلال الجزائر ؛ واضطر الملك الطاغية للتنازل عن العرش .

(١) فى ٢٤ فيفري من هذه السنة ؛ اسقط الجمهوريون والاحرار الفرنسيون آخر ملك من ملوك فرنسا ؛ لويز فيليب ، واسسوا الجمهورية الثانية التى ما عمت ان اصبحت « الامبراطورية الثانية » حيث اعلن رئيس الجمهورية . نظرا لخلافات الامة وكثرة شقاقها ارجاع امبراطورية نابوليون ؛ واطلق على نفسه اسم نابوليون الثالث .

دولة فتية ، فامتد الشوار الغاريبالديين بصقلية وساعدتهم على التخلص من الطاغية ، وبثت فى البلاد دعاية نشيطة فى سبيل الانظام للوحة الطليانية ، وفى اكتوبر سنة ١٨٦١ ، اى بعد انهيار الملك فرانسوا بنحو الثمانية اشهر ، وقع فى صقلية استفتاء شعبى كانت نتيجته اعلان صقلية ارادتها فى الانضمام للوحدة الطليانية .

الحكم الطليانى - انما لم تكن صقلية سعيدة الحظ فى وقت من الاوقات وهى قابضة تحت السيادة الطليانية الجديدة . فالضرائب الثقيلة والاتاوت الباهضة حطمت جهود الشعب ، واضطرته لاعلان الثورة مرارا ، وخاصة سنة ١٨٩٣ ، حيث هاجم انشوار مراكز جمع الضرائب واوقدوا فيها النيران؛ ثم نكلت بهم الحكومة الطليانية تنكيلا ذريعا ، وغدت صقلية ولاية من ولايات ايطاليا يخيم عليها الجهل كما يخيم على ولايات كلابرا وبلاد الجنوب الطليانى؛ وضائق على الصقليين الارض بما رحبت ، فلبجأوا الى الهجرة افواجا نحو البلاد التونسية او اميركا الجنوبية وغيرها من البلاد ، وشارك الصقليون الطليانيين فى اعتدائهم الاول على بلاد النجاشى منليك امبراطور الحبشة ، ذلك الاعتداء الذى انتهى بكارثة « عدوة » المخجلة ؛ كما شاركوهم فى اعتدائهم الاثيم على ولايتى طرابلس وبرقة العثمانيتين وما وقع خلال ذلك من فظائع ومنكرات ، وشاركوهم فى الحرب العامة الاولى ، وفى الاعتداء الثانى على بلاد الحبشة ، وفى الحرب الاثيمة العالمية الثانية .

انما لم تنل صقلية اثناء كل ذلك ، سواء خلال الحكم الدستورى او الحكم الفاشيستى ، اى اصلاح جوهرى يغير نظامها الاقتصادى والاقطاعى ويجعل للفلاح وللعامل فيها مركزا اجتماعيا معقولا بتمكين الاول من الارض وتثبيت الثانى فى المصنع ، فكان الصقليون يتأففون من الحكم الطليانى انما يعجزون عن خلع نيره واثورة فى وجهه .

فعندما حطمت الجنود الحليفة قوى الالمان والاطليان بالبلاد التونسية سنة ١٩٤٣ واجتازوا الى صقلية يقتفون فيها خطى الالمان والاطليان ، لم يبد الصقليون ادنى مقاومة ، بل تقبلوا الفاتحين باذرع مفتوحة وصدور رحبة ؛ كأنهم املوا منهم اخراجهم من نير الاستبداد وربقة الاستعباد . وما كاد ينهار الحكم الفاشيستي البغيض فى ايطاليا حتى ابتدأ رجال صقلية الاحرار يفكرون فى مستقبل بلادهم ، ويرجون الاحراز على استقلال ادارى واسع النطاق ان لم يتحصلوا على الاستقلال التام ، حتى يتمكنوا من فتح عهد جديد للجزيرة يعيد لها سالف مجدها وسؤدها ايام المسلمين والترمان .

وحركتهم هذه سائرة فى طريق النجاح ، اذ اعترفت الحكومة الطليانية لهم فى اكتوبر ١٩٤٤ ، بامتيازات مركزية عديدة ؛ وقع توسيعها فى العشرين من نوفمبر ١٩٤٥ حتى اصبحت شبه استقلال داخلى .

وان حبنا للحرية يجعلنا نتمنى لهذا الشعب المسكين الذى ذاق مرارة الاضطهاد قرونا مديدة ، واندى تربطنا به ذكريات عديدة ، عهدا جديدا كله حرية وسعادة ومعق لنظام الاقطاع وسيطرة الكبراء وتحقيق لتعزيز الآمال .

واننا بهذه المناسبة لنقول فى كل صراحة وعلى رؤوس الملاء انه هيهات ان يستقر فى العالم السلام وان تنتهى الشحنة والا حن والحروب بين الامم ما لم تنل سائر الشعوب حريتها التامة واستقلالها ، سواء قويا وضعيفا كبيرا وصغيرها وان تغدو العلاقات بين الامم علاقات صداقة وتعاون فى ميادين الثقافة والاقتصاد وتبادل المصالح لا علاقات فتح واستعمار وقضاء على حرية وكرامة وحياة الشعوب .

القسم الثالث

امهات المدن والقرى بصقلية

ومعالمها آثارها

بالرمة

من امهات المدن قديما وحديثا ؛ ومن اجل واجمل الحواضر فى كل الاقطار والامصار ؛ جمال فى المناظر ، واعتدال فى الطقس ، ومياه دافقة ، وحدائق وخمائل ، ومروج وبساتين ، وقصور شاهقة ، ودور فسيحة الرحاب ، وآثار باقية مما تركه السلف للخلف .

كان اسمها اليونانى « بانرموس » وكانت مدينة كنعانية قرطاجنية حسا ومعنى ؛ ولقد رأينا فى المقدمة التاريخية مدى ما بذلته قرطاجنة من جهد عنيف للاحتفاظ بالجزيرة وجوهرتها الفريدة . لكن بالرمة وقد اسحوذت عليها روما لعدة قرون ، قد احتفظت بمركزها الممتاز واصبحت من المع دور التاج الرومانى . انما قد بلغت بالرمة اوج عزتها وسدرة منتهى رونقها وبهائها ، عندما اتخذت منها الامراء المسلمون ثم ملوك بنى المحسن ، عاصمة لملكهم ؛ واصبحت مركزا من اهم مراكز الحضارة والنور بالبحر المتوسط ، وارتفعت بتجاريتها وصناعتها وعلومها الى مصاف عواصم الاسلام الكبرى .

يسكن هذه المدينة اليوم نحو من ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة ؛ حول مرسى هو من اهم مراسى ايطاليا . وقسمه القديم يدعى الى يومنا هذا « القلعة » la Colo على مقربة من آثار القصر العربى القديم « قصر العمارة » Castellammare . ولم تبق حداثات الايام والحروب المتوالية على كثير من آثار الكنعانيين القرطاجنيين ، ولا من آثار الرومان والعهد الاسلامى ، الا ان آثار النرمانيين وهى من انشاء العرب قد بقيت قائمة الى يومنا هذا شاهدة بعظمة وحسن ذوق منشئها . وفى بالرمة العتيقة لا تزال حارات عديدة تحمل انطباع

الافريقي على شكل مدننا الاسلامية بهذا الشمال ، ولا تزال هنالك حارة تدعى «Attorini» كانت بلا ريب حارة او سوق العطارين .

قصر الفوارة - هو من اهم آثار بالرمة الاسلامية ؛ ولقد ترنم بذكر محاسنه الشاعر عبد الرحمان بن ابي العباس حينما يقول :

فوارة البحرين جامعة المنى * عيش يطيب ومنظر يستعظم

يقع هذا القصر الشامخ الذرى فوق جزيرة تحيط بها بركة صناعية من جهات ثلاث ، ولقد شاده وبالع في زخرفته الامير جعفر ؛ من ملوك بنى الحسن ، فيما بين سنتي ٩٩٧ و ١٠١٩ ميلادية ، واتخذ منه هو وخلفاؤه من بعده مقرا للترف والتعيم .

وعندما ضرب الدهر بضرباته وتحطم سلطان المسلمين هنالك ، اصبح قصر الفوارة مقر للهو واللعب والحلاعة لملوك الترمانيين ومن تبعهم ؛ ثم اخنى الدهر على هذا القصر عندما اصبحت الجزيرة العوبة بين ايدي الغاصبين من ملوك اروبا فلم يبق منه اليوم الا الحرابات وكنيسة صغيرة شادها المسلمون للملك رجار وبعض اقبية وغرف ؛ وحوالى انقصر لا تزال ترى البناء الذى يحيط بالبركة الصناعية ليحبس بها الماء ، ولا تزال ترى الحنايا الاسلامية الثلاثة التى كان الماء يجلب عليها للبركة المذكورة .

قصر العزيز - ويدعوه الاروبيون لازيزا la Ziza شاده ليتخذ منه مقرا للملكه وسلطانه ، الملك غليام الاول فيما بين سنتي ١١٥٤ و ١١٦٦ م ، بواسطة مهندسين وبنائين ونقاشين من المسلمين فكان القصر آية من آيات الفن المعماري الاسلامي ، ولقد اوقت الايام على اكثره ، ولم يحل به ما حل بقصر الفوارة من التخريب ، وهنالك ماشئت من باهر الاقواس الهندسية وبديع النقوش الحلابة والكتابة الكوفية على النمط الهندسى حول الابواب والعقود ، وعيون جارية تغذى فوارة في وسط البهو الاكبر ثم يتكون من ذلك سيل لطيف من الماء يخترق القاعة ثم يختفى تحت ابوابها .

قصر القبة - هو بناء على شاكلة قصر العزيز ، اتم صناعه البناؤون المسلمون حوالى سنة ١١٨٠ م ، ولقد تحطم اكثره وياللاسف ، ولم تبق الا بعض جدرانه وقاعاته قائمة ، تذكر الايام بما سلف لها من مجد ، وعلى بعض الجدران ترى آثار الفسيفساء البديعة التنسيق ، وكتابة على النمط الكوفى ذات جمال خلاب ، ونقوش مدهشة على قواعد الرخام ، ومن اجمل ما ابقت عليه عوادى الايام بهذا القصر قاعة القبة ، وهى حسبما يدل عليه اسمها قاعة فسيحة الارعاء تعلوها قبة منمقة بنقوش خلاصة من الرخام الصناعى .

الكنيسة الكاتدرائية الكبرى - هى من اهم بدائع الفن والجمال بالرملة شيدت سنة ١١٨٥ على يد صناع من المسلمين ؛ وكانت خليطاً من الفن العربى والفن الغربى ، انما تغلبت عليها الصبغة العربية . على ان قسماً منها شيد على انقاض مسجد جامع لا تزال هياكله على حالها تقريبا . وعلى ابوابها وبين اقواسها رسمت بالجص آيات من القرآن الكريم بالحط الكوفى .

القصر الملكى - آية خالدة من آيات الفن والجمال ، انشأه الملوك المسلمون فكان مقر الدولة والامارة ، ثم استقر به ملوك النرمان بعد ذلك ، فزادوا فى مساحته ، وازادوا اليه بواسطة البنائين المسلمين اقساماً اخرى ، ولا يزال قائم الذات يذكر الحلف الغافل ، بعظمة تاريخ السلف الحافل . ومن روائع ولا يزال قائم الذات يذكر الحلف الغافل ، بعظمة تاريخ السلف الحافل . ومن اقسام هذا القصر الملكى : الكنيسة الصغرى التى ابتناها العمال المسلمون بأمر ملك رجار الثانى ، فيما بين سنتى ١١٣٢ - ١١٤٠ ، فهى درة وضاعة وسط عقد الآثار الاسلامية الخلاصة ، ومن ابداع ما يراه قاصدوا بالرملة ، تشد اليها رجال السائحين من كل قطر ؛ ومن اغرب ما يراه المشاهد هنالك سقف بديع الشكل يخلب الابصار ، وهندسة غريبة فى بناء النوافذ ، تكسب النور حينما ينعكس بعضه على بعض روائع الموسيقى وروعة الشعر الرقيق ، ولا سبيل للاطناب فى وصف ما هنالك من نقوش على الجص : (نقش حديدية) وفسيفساء خلاصة الالوان .

ومن جملة البدائع المحفوظة بهذه الكنيسة الفنية ضمن ذخايرها الفنية

صندوق من صنع المسلمين كله قطعة من عاج منقوش ؛ وعلى مقربة من القصر الملكي وكنيسته توجد كنيسة القديس يوحنا ، وقد بناها الصناع المسلمون كذلك بأمر الملك رجار الثاني ؛ على النمط العربي الخالص ، وضمن هذه الكنيسة يوجد مسجد اسلامي قديم دخل في صلب الكنيسة وبقي على حاله غير متنافى في هندسته مع ما اضيف اليه .

المتحف الكبير - من أجل ما يرى ايضا ببائزمة متحفها الاثرى الرائع الذي جمع فاعوى : قيمة فنية كبرى ، وجمال عرض وبديع تنسيق ، وفيه قاعة اسلامية عربية عرضت فيها بدائع ما تركه الصناع المسلمون هنالك من تحف نادرة وطرائف ثمينة من اواني وزخارف حديدية وبدائع من الحزف والبلور والرخام وغير ذلك من ادوات المنازل وكماليات الترف والنعيم . هذا علاوة على ما فى المتحف المذكور من آثار الكنعانيين والقرطاجنيين ومن آثار الاغريق والرومان والترمانيين وغيرهم .

وفى بالرمة ، دون ذلك ، عدة من متاحف اخرى تتعلق بالتاريخ الصقلى ؛ وفيها المكتبة البلدية التى تشمل ما يزيد عن مائتى الف مجلد ، منها نحو الثلاثة آلاف مخطوط .

ضواحي بالرمة - على نحو ستة اميال من بالرمة توجد مدينة القاموق الاسلامية الاصل التى احتفظت باسمها فهى تدعى اليوم Alcamo وسكانها يتجاوزون الخمسين الفا ، وحاراتها القديمة تذكر بايام المسلمين ؛ وعلى نحو الخمسين ميلا من بالرمة توجد مدينة الزقاق ، وقد احتفظت باسمها كذلك فهى اليوم Siacca وهى من اهم المدن الاثرية الصقلية ، لا يزال اغلبها على حاله كما كان ايام دولة المسلمين ودولة الترمانيين .

مسينا

من اهم المدن الصقلية واجملها موقعا ؛ يسكنها اليوم ما يزيد عن نسمة ؛ ومرساها من اوسع مراسى البحر الابيض المتوسط واكثرها حركة ،

وتحيط المدينة بالمرسى فى استدارة بديعة ؛ حيث ترى عقدا ثميناً من القصور
 الحلابة الجمال يحيط بجيد حسناء فاتنة • لكن نكبة مؤلمة أصابت المدينة
 سنة ١٩٠٨ (٢٨ دسامبر) حيث اغتالها زلزال رهيب دام ٣٢ ثانية ، فحطمها
 تحطيماً فظيعاً وفتك بأهلها فتكا ذريعاً ؛ فمات فيها وحواليها ما يزيد عن
 المائة ألف نسمة ؛ ثم استرجع الإنسان حقوق حياته ، فأعاد بناء المدينة على
 انقاض الخرابات ، وأصبحت مسينا الحديثة تكاد تعادل مسينا العتيقة بهاء
 ورونقا وجمالا ، ولهذه الحادثة يشير شاعر النيل حافظ إبراهيم رحمه الله
 حيث يقول فى وصف المدن الصقلية الطليانية :

تحتها والعياذ بالله نار * وسعير ومنكر ونكير

ارضها جنة ، وحرور ، وولدا * ن ، واستبرق ، وملك كبير
 وليس فى مسينا ما يدل على انها بقيت بعض قرون مركزاً من اهم
 مراكز العمران الاسلامى بصقلية ، ولعل الحروب المتوالية فيها وفيما حواليها
 بين المسلمين والروم ؛ وبينهم وبين الايطاليين ، ثم الترمانيين قد جعل آثار
 المسلمين هنالك منعومة الوجود •

من اعجب ما فى مسينا ؛ مقبرة ضحايا الزلزال اودكور آنفا ، فقد
 جعلت هذه المقبرة فى ابداع مكان مشرف على المدينة ، يرى منه منظر قد اتفق
 الباحثون على انه من اجمل مناظر ايطاليا وصقلية معا ، وغرست فيها حديقة
 جمعت فى تناسق بديع كل انواع الاشجار والزهور والرياحين •

ومن اهم ما يرى بها متحفها الفنى الغنى ؛ وليس به الا القليل النادر
 من آثار المسلمين ومنها فى الصالة رقم ٥ صندوق بديع الصنع حسن التركيب •

شيفالو

اما سيفالو ؛ فهى مدينة صغيرة يسكنها جماعة من الصيادين ، لا يتجاوز
 عدد سكانها ، انما تمتاز بوجود كنيسة كندراية هى بلا ريب اجمل واقدم
 كندرايات صقلية ، امر ببنائها الملك رجار سنة ١١٣١ ، وابتناها كما ابتنى

غيرها فى ذلك العهد البناؤون المسلمون ، وبالغوا فى زخرفتها وتنميقها ، وفيها اقدم واجمل فسيفساء بالارض الصقلية . وتجاه الكنيسة متحف صغير بديع فيه مجموعة كاملة من النقود الصقلية فى مختلف العصور ؛ ومن بينها بل ومن اهمها النقود الاسلامية . وعلى نحو ميل من المدينة وفوق صخرة ترتفع ٢٦٩ مترا توجد آثار قصر وصهريج من آثار المسلمين .

ترمينى

واما مدينة ترمينى ولا تبعد عن بالرمة الا ١٩٦ ميلا فهى تكاد تكون مدينة اسلامية خالصة بحاراتها وازقتها ودورها وطريقة العيش فيها ، كثيرة الحركة فيها حمامات حارة وفيها متحف بلدى يضم كثيرا من الآثار والنقوش والنقود الاسلامية .

مازرة

ولم يبق بها ما يكشف الستار عن ماضيها الاسلامى الحافل لولا ما يدل على مشاركة البنائين المسلمين فى اقامة هيكل الكاتدرائية وبعض الكنائس الصغرى التى أنشئ اكثرها على انقاض المساجد الاسلامية عندما دلت دولة المسلمين هنالك .

مرسى على

كانت هذه المدينة ايام المسلمين من اكثر المراسى حركة واكبرها تجارة لانها كانت نقطة الاتصال بين صقلية والبلاد الافريقية وقد فقدت المدينة اهميتها منذ انقطعت الصلات بين القطرين ، التونسى والصقلى ، فلم تبق لمرسى على الا اهميتها الحمرية ، وذكرياتها التاريخية .

تجاه مرسى على ، وعلى بعد نحو ٨ كيلومترات منها توجد جزيرة معطية القرطاجنية التى سبق ذكرها فى المقدمة التاريخية وكان المسلمون يدعون

هذه الجزيرة « المعزية » ولقد اجريت حفريات فى هذه الجزيرة ووقع اكتشاف الكثير من آثارها القرطاجينية ومرسأها العتيق .

اطرابنش

تستدير هذه المدينة حول مرسأها فى شكل هلال ؛ وليست بها حركة تذكر كما انه لم يبق بها ما يذكر بايام المسلمين ، لولا ما هو موجود بمتحفها من قطع النقود الاسلامية وبعض اقمشة من صنع المسلمين .

قلعة النساء

لم يبق لها من القديم الا الاسم ، اشتهرت اليوم بتجارة الكبريت لايشغلون سكانها الا بذلك وبما يمت له من صناعة . وبالمدينة متحف صغير فيه بعض آثار اسلامية ليست بذات اهمية ، والى جانب المدينة توجد آثار القلعة الاسلامية التى تدعى اليوم قصر بياترا روسا ؛ ومن هذه القلعة يشرف الانسان على قصر يانا التى لم يبق بها اليوم شئ من آثار المسلمين ، انما على مقربة منها (٣ كيلومتر) توجد « قلعة السبت » Calta Cibella ويمكن اعتبار هذه المدينة اقدم مدن صقليه اليوم من حيث بناؤها الذى بقى على اصله منذ القرون الوسطى ومن حيث لباس اهلها وتقاليدهم التى بقيت فى معزل عن الحياة الحاضرة .

طبرمين وضواحيها

اذا استثنينا جمالها الطبيعى ومركزها الممتاز بالنسبة للمستوحين فاننا لا نجد فى طبرمين اهمية من ناحية التاريخ الاسلامى ؛ ولعلك تذكر ان المسلمين لم يحتلوا مدة طويلة هذه المدينة التى كانت باستمرار معقل المقاومة البرزنطية ، حتى اذا تمكن المسلمون من ناصيتها نهائيا سنة ٩٠٢ ميلادية

دكوها دكا كى يقطعوا آخر امل للروم فيها ؛ وقد بقيت بها للآن آثار قصر
 قديم ، يدعى « قصر المولى » Mola يشرف على المدينة وضواحيها .
 ومن المدينة ، يسير الانسان نحو قرية لا تزال عربية
 اسما هي « القنطرة » Alcantara على مجرى الوادى المدعو
 بالقنطرة ايضا ، وهناك فى تلك الضواحي مدينة لا تزال كذلك
 تحمل اسما عربيا وتكاد ديارها تحمل الطابع العربى الاسلامى ايضا وهى
 قرية « الزعفرانة »

قطانية

ان كانت هذه المدينة تعتبر اليوم ثانى مدن صقلية
 بعد بالرمة ، وان كانت بناءاتها الضخمة وعماراتها البديعة
 تجعلها فى مصاف المدن الكبرى ؛ فانها رغم كل ذلك لاتشبع نهم
 الباحث العربى لانها لا تحوى شيئا يذكر من آثار المسلمين ، وذلك لانها
 علاوة على التخریب الذى لحقها كما لحق كل مدن صقلية من جراء حوادث
 الاحتلال النورمانى قد اصابها زلزال عنيف حطمها تحطيمًا ذريعًا سنة ١٦٩٣ ؛
 فلم يبق بها عمرانًا واهلك فيها ١٦٠٠٠ نسمة .

اهم ما يراه االباحث فيها اليوم متحفها الذى جمع فيه القطانيون كثيرا
 من آثار صقلية ومجموعة ثرية من الصور والرسوم ؛ ومكتبة فيها نحو
 الخمسين الف مجلد منها نحو الخمسمائة مخطوط نفيس والفى رق فيها الكثير
 من اوائل العهد النورمانى .

سرقوسة

روعة وجمال ، وبهاء وجلال ؛ هى مهد الذكريات الاغريقية والقرطاجنية،
 يهيمن عليها خيال ارخميدس العظيم وآثارها السابقة
 للعهد الاسلامى غنية ثرية ؛ وبها متحف يكاد يكون مختصا

بدراسة آثار ومدينة شعب الصيقول ، وبدائع من صنع المدينة الاغريقية والفنيقية ؛ انما ليس بها ما يشبع نهم الباحث عن التاريخ الاسلامي ، واهم آثارها على الاطلاق هو المسرح اليوناني الشهير الذي ابتناه الملك هيارون حورين سنة ٤٧٠ ق م ؛ وهو اهم ما تركته لنا ايدي الزمان من مساح الاغريق وتبلغ دائرته ١٣٨ .

نوطس

كانت اثناء التاريخ الاسلامي مركز ولاية ، وكانت ذات اهمية كبرى اسسها الصيقوليون ووسع دائرتها المسلمون ، واستمرت مدينة اسلامية في جميع مظاهرها الى سنة ١٦٩٣ حيث تحطمت بصفة تامة وهجرها سكانها فابتنوا على مقربة منها مدينة جديدة ؛ انما في آثارها رسم هياتها الاسلامية السابقة ، واما المدينة الجديدة فليست من الناحية الاثرية بذات اهمية .

القسم الرابع

الحكم الاسلامي

ايام الدولة الاغلبية

نشأة الدولة الاغلبية - وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .

كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية الكريمة يوم الفتح الاكبر ، وهو يحطم الاصنام داخل البيت الحرام ، واضعا بذلك حدا فاصلا بين هدى الاسلام وضلال الجاهلية ، فاتحا بذلك عهدا جديدا في تاريخ الانسانية هو عهد النور والمدنية الحقة ؛ عهد تحرير الفرد والجماعة من ربقة الذل والعبودية لغير الخالق ؛ عهد تحرير العقول من الاوهام والباطيل ؛ عهد التساوى الحق الذي لم ير له العالم قبل ذلك ولا بعد ذلك مثيلا .

التهبت يومئذ نيران الثورة العالمية في سبيل التحرير والمعرفة ، يحمل رايتها رفيعة وهاجعة قوم اسلموا لمحمد وآمنوا بما جاء به من الهدى ودين الحق فتدفقوا سيلا نورانيا جارفا يكتسحون الظلمات ، ويدركون اسس انقيصرية والكسروية ، وقيمون على تلك الانقاض البالية عدل الاسلام ، وحرية الاسلام ، واخوة الاسلام .

وانه لم تكد تنقضى ثلاثة ارباع القرن على هجرة الرسول الاعظم حتى كان ما اريد ان اسميه « امبراطورية الاخوة الاسلامية » يشمل فضلا عن بلاد العرب العراق وفارس وما وراء النهر وبلاد الشام ومصر وطرابلس وشمالنا الافريقي حتى امواج المحيط الاطلسي .

على ان اصعب الفتوحات الاسلامية مراسنا ؛ كان بلا ريب فتح اقطار هذا الشمال الافريقي ، وذلك لبعدها من جهة عن مركز الخلافة الاسلامية ، بالمدينة كان او بدمشق او ببغداد ، وصعوبة المواصلات بين قلب المملكة ومصدر الامر

والنهي ، وبين هذه البلاد النائية ، ولأنها من جهة أخرى كانت تسكنها امة البربر الأمازيغية الأبية ؛ وهي مجموعة اقوام ما وهنت امام جبروت الظالمين وما ضعفت قواها تجاه اربابهم وبطشهم الشديد ؛ وما استكانت لسلطان الاستعباد اينا كان مصدره ؛ وسواء جاءت من رومة اغلاله او صبت في بيزنطة قيوده .

فالبربر على تفرق شلهم ، كانوا اكثر الناس استماتة في سبيل الحرية واشد الناس تضحية في ميدان الاستقلال ؛ ولقد كانوا طيلة العهد الوندالي يمسون بين ايديهم زمام امورهم ؛ وقد تعاونوا مع اولئك الفاتحين الهمج ، على تخريب ما شاده الرومانيون لانفسهم بهذه الديار ، من معالم وآثار ، ثم كانوا طيلة العهد البيزنطي الحرب يباشرون داخل بلادهم مقاليد الحكم تاركين لرجال بيزنطة الاحتلال العسكري والادارة الاسمية والرسمية .

فلا غرو ان رأينا رجال البربر من جبال طرابلس الى كتلة الاطلس يقومون مرة اثر اخرى ضد غارات العرب الفاتحين منذ غزوة عبد الله بن ابي سرح سنة ٣٠ الى ان تمهد الامر نهائيا للفاتح الاكبر موسى بن نصير حوالى سنة ٩٠ هجرى (١) .

فنحن نرى ان فتح العرب للمغرب قد استغرق من جهودهم زهاء الستين سنة ، واستنزف من قواهم خيرة الجند وجلة القواد ؛ كمعاوية بن خديج ، وعقبة بن نافع العظيم غالب كسيلة ومؤسس القيروان ، وحسان بن النعمان قاهر الكاهنة ، وغيرهم من ابطال العرب واشبال المسلمين ؛ ولقد كان البربر ان خسروا المعركة اظهروا الانقياد والطاعة عن مضى ؛ فلا تكاد تتغير الحالة بتغير عامل من العمال او بتمرد في الجند ، حتى يعودوا الى الثورة والعصيان مرتدين عن الدين في اكثر الاحيان .

(١) في سنة ٩٦ توفي بدير مروان الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، وكانت ايامه من اسعد ايام الدولة الاموية ؛ تم خلالها فتح اسبانيا وجنوب فرنسا ، وبلاد الترك ، وفتح القائد محمد بن القاسم الثقفي اكثر بلاد الهند .

بقيت الحالة كذلك بين صفو وكدر ، وامن وانتفاض ، طيلة ايام الامويين
واوائل عهد العباسيين .

وانه لمن اكبر نكبات هذا الشمال الافريقي ، سواء فى اول العهد الاسلامى ،
او فى غيره من العود : كثرة تداول الولاة عليه ، فلا تكاد تستقر به قدم واحد
منهم فيدرس حالته ويدرك قيمته ، ويختلط بشعوبه واممه ، وياخذ باسباب
ال عمران والانشاء والتكوين ، حتى تلعب فى مركز الدولة البعيد الدسائس
والفتن وتعمل السنة السوء والوشاية اعمالها ، وتلعب الغايات النفسية او
العصبية الاعيبيها الحبيثة ، فيصدر الامر بتولية عامل جديد يكون فى الكثير من
الاحيان عدو العامل القديم فيفد على البلاد يحدهو حب الانتقام ، ويسفر ذلك
عن وقائع تسيل فيها الدماء ، ويستفيد البربر الواقفون بالمرصاد من ذلك ،
فتكون الثورة ويكون الانتقاض (١) .

انما الى جانب هذا الاضطراب فى السياسة كان الدين الاسلامى على يد
رواده الامجاد يستقر استقرارا متينا فى البلاد ، وينتشر انتشارا عظيما .
ولقد فهم البربر اخيرا ؛ بعد طول اختلاطهم بالعرب ، واخذهم الدين
واللغة عنهم ، ان هؤلاء الفاتحين ليسوا كمثلى الذين سبقوهم من الفاتحين ،
فسمو اخلاقهم ونبل عواطفهم وبساطة عيشهم وسهولة دينهم الفطرى ؛ كل
ذلك يجعل بونا شاسعا بين هؤلاء واولئك ؛ ومن ثم امكن اتحاد العرب والبربر
تحت راية الاسلام المسوية ، وتحقق لهذا القطر ما كان يرجوه منذ قديم الازمان ،
ولم يتحصل عليه قبل ذلك ؛ تحقق له الاستقرار الدينى الذى دام منذ ذلك
العهد الى يومنا هذا والى الابد ، رغم ما وقع من شنان سببه خلافات مذهبية قد
استعملت فى اكثر الاحيان وسيلة سياسية يراد بها الوصول الى الحكم .
وما عثم ذلك الاستقرار الدينى ان اسفر عن استقرار سياسى ، بصفة اعلان
القطر المغربى الاسلامى استقالة عن مركز الخلافة الاسلامية ؛ وادارة اموره

(١) انظر كتابنا « قرطاجنة فى اربعة عصور » طبع تونس ١٩٢٧

المحلية بواسطة الانجاب من بنيه .

لقد كان المغرب الاوسط - قطر الجزائر - اسبق جهات المغرب لاعلان الاستقلال ، وذلك بتأسيس الدولة الرستمية : على يد كرام بررة من رجال البربر اسلموا وحسن اسلامهم ، واعتنقوا مذهب الامام ابن اباض رضى الله عنه ، وقد كان اول مذهب اسلامى انتشر فى بلاد الاسلام ، واعتنقه قوم كثيرون بالشمال الافريقى والبلاد الطرابلسية ، ولقد قام بكبر تأسيس الدولة الرستمية البربرية الاسلامية القاضى عبد الرحمان بن رستم الفارسى سنة ١٦٠ (١) فحكمت البلاد حكما اسلاميا يذكر فى كل عصر ويشكر ، وسجلت فى تاريخها صفحات نبل وفخار لا تعتدى على ذكرها الطيبة الايام .

واذا كان العقد قد انتثر من الوسط ، واستقلت عن الخلافة العباسية وعن ولايتها بالقيروان دولة بنى رستم فى تيهرت . فلم تعتم جهات المغرب ان اقتفت اثرها واعلنت استقلالها على يد بطل من ابطال العرب وسيد من سادة الاسلام وشريف من اشراف قريش ، هو ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن ابي طالب ، وذلك بمدينة مليلي سنة ١٧١ هجرى (٢) (٧٨٧ ميلادية) .

فما كادت تنتهى ولاية الامير روح بن حاتم بالقيروان : سنة ١٧٥ حتى كانت الخلافة العباسية لا تحكم الا البلاد التونسية وبلاد الزاب : اى القسم الشرقى من قطر الجزائر الحالى ؛ وما كادت تستقر بالبلاد اقدام الوالى الجديد ابراهيم بن الاغلب الكبير ، اثر حوادث كثيرة واضطراب ، حتى رأى ، ورأى وجوه

(١) وقع هذا بعد انهيار الدولة الاموية بالشرق . بمقتل آخر خلفائها مروان ابن محمد سنة ١٣٣ هـ . (٧٥٠) وقامت الدولة العباسية مقامها معتمدة على الفرس حاكمة ببغداد .

(٢) بعد سنة ، اى عام ١٧٢ ، مات بالاندلس سقر قريش عبد الرحمان الداخل الاموى ، الذى استقل ببلاد الاندلس ، وانشأ فيها دولة اموية جديدة موحدة دامت هناك زهاء ٢٩٠ عاما ودامت ايامه ٣٣ سنة وانشأ بقرطبة التى اتخذها دار ملكه المسجد الاعظم الذى هو الى يومنا هذا اعجوبة الزمان .

القوم وكبراء الامة معه ، وجوب الانفصال الادارى عن بغداد ، والاستقلال بامور البلاد ، فراسلوا امير المؤمنين هارون الرشيد فى ذلك ، وجاءت المصادقة منه بعد استشارة اهل الحل والعقد بمركز الخلافة سنة ١٨٤ (٨٠٠ ميلادية) وتعاهد الفريقات على ان تبقى الامارة الجديدة معترفة بسيادة الخلافة العباسية ؛ وان تدفع خراجا سنويا لبغداد ، مقداره ٤٠ الف دينار ، متنازلة عما كانت تتقاضاه اعانة لها من خزينة مصر ومقداره مائة الف دينار .

تمت الامارة بذلك لأبراهيم ابن الاغلب ، واصبح فى البلاد ملكا مستقلا ، مصلحا معمرا ساهرا على امور مملكته باسطة العدل والامن بين كل طبقات وعيته ؛ والتف حوله فى تضامن اسلامي « ووطنى » بديع رجال العرب والبربر ، فتوطدت اسس الدولة واقبل الناس على صالح الاعمال ؛ والناس على دين ملوكهم . وهكذا نشأت الحضارة الاغلبية الزاهية الزاهرة ؛ واصبحت القيروان العظيمة عاصمة ملك وسلطان ، امتها رسل الامبراطور شارلمان مهنثة (١) وامتلات قصورا وبساتين ، ومساجد ومدارس ودواوين ، وارسلت العمال من قبلها الى اقصى جهات المملكة ، وازدهرت المدنية ، وانتشرت العلوم والآداب وكثر العمران ، فلم تنقض ايام ابراهيم الكبير وابنه الاول عبد الله وابنه الثانى زيادة الله حتى كانت دولة بنى الاغلب من ازهى ممالك المسلمين ، وبلغ خراجها يومئذ الف الف درهم (نحو ٨٠٠٠ كيلو من الذهب) .

ولا نقلن لك فى خاتمة هذا الباب ، ما قاله الاستاذ فكتور بيكى فى كتابه « مدنيات شمال افريقيا » عن الدولة الاغلبية . قال : « لقد سار الامراء الاغلبة سيرة قسط وعدل ، محترمين للحقوق ، مظهرين جميل الاستعداد

(١) جاءت رسل امبراطور الغرب شارلمان مهنثة بالملك والاستقلال راجية من ملك القيروان ان يرجع للمسيحية بقايا شهدائها وآثارهم ومخلفاتهم بالبلاد الافريقية . فاقتبل ابراهيم ابن الاغلب سفارة شارلمان بقصر العباسية ، جوار مدينة القيروان ، واحتفى بهم احتفالا منعدهم النظير واجابهم الى مطلبهم فرجعوا مبتهجين ؛ ثم ارسل ابن الاغلب حسيما تقتضيه التقاليد السياسية ، سفارة من لدنه ترد زيارة شارلمان ، فاقتبل تلك السفارة بمدينة بادو بايطاليا ؛ اقبالا لائقا فاخرا .

للقيام بجلال الاعمال لفائدة الامة .

» من ذلك انهم انشأوا وظيفة تلقى نورا غريبا على المجتمع فى ذلك العصر فلقد نصبوا فى كبل مدينة شخصية سامية مهمتها الرسمية (حماية الشعب ضد عدوان الكبراء) « صاحب المظالم » وهيهات ان يجد مجتمعنا العصرى عبارة اجمل من هذه العبارة ، لوضع صورة تمثل فى آن واحد : احترام العدالة واحترام حقوق الانسان .

» ولقد اشتغل امراء الاغالبية بالانشآت العامة والاعمال النافعة ؛ فاكثروا من العمران والتجميل بمدينتى سوسة وتونس ، وامر واحد منهم (هو الامير احمد ابن محمد بن احمد) بحفر وبناء الصهريج العظيم بمدينة القيروان (فسقية الاغالبية) حيث تجتمع المياه الواردة من جبال جلاص ، ودائرة هذا الصهريج تبلغ ١٢٨ مترا ولا يزال مستعملا الى يومنا هذا ؛ وان المسافرين لتأخذ منه الروعة كل مأخذ عندما تلوح له هذه الصفحة المائية الناصعة فى وسط بيداء جرداء يخيل للناظر ان لا حد لها .

» يقع هذا الصهريج اليوم شمالى سور القيروان ، بعيدا عن البناء والعمران ، انما هو بلا ريب لم يكن خارج اسوار المدينة العتيقة ، وذلك ما يعطيك فكرة عن اهمية مدينة القيروان التى كانت فى ذلك العصر آهلة غنية .

» والى جانب كل ذلك ، كان امراء الاغالبية قواد جنود لا تنكر مهارتهم الفائقة فى الحروب ، فاستطاعوا ان يوطدوا سلطانهم بصفة مستمرة على قبائل من طبعها انشعب والهرج ؛ وتغلغل بواسطتهم النفوذ العربى فى البلاد الى حد بعيد .

» انما كان اولئك الامراء على الاغلب ، اذا استتب لهم الامر وسادت السكينة ارجاء المملكة ، ينهمكون فى المذات والشهوات والشراب ويقومون تحت تأثير ذلك باقسى الاعمال التى يدفع اليها جبروت ليس له من حد (١) .

المحاولات الاولى لفتح صقلية - ان كانت بلاد المغرب العربى مطمح انظار كل من استقرت له قدم فى جزيرة صقلية ؛ فقد كانت هذه الجزيرة كذلك مطمح

انظار كل من توطد له بالبلاد الافريقية الشمالية امر .

ولقد فصلنا فى مقدمة هذا الكتاب اعمال الدولة القرطاجية فى صقلية وما قامت به من جهود عنيفة فى سبيل فتحها وفى سبيل الاستقرار بها .

فما كادت طلائع الفتح الاسلامى تبسط الويتها الظافرة فوق اديم هذه الارض فتجعل منها معقلا منيعا للعروبة والاسلام ، حتى اتجهت الانظار ، انظار الفاتحين الاولين صوب صقلية ، وكانوا من وراء الجزيرة الصقلية ينظرون الى قارة اوروبا ، السابحة فى الهمجية التائهة فى بيداى الوحشية والظلمات .

كانت غزوة الاشراف ؛ اشراف الحسب والنسب واشراف الجهاد والجلاد اول غزوات المسلمين بالبلاد الصقلية . وكان القائم بكبر هذه الغزوة بطل العروبة والاسلام الخالد الذكر موسى بن نصير القرشى ، وقد اقر الله على يده الكريمة امر الاسلام بهذه الديار المغربية ، ووطد بها اركان الفتح العربى ، وتمت تلك الاخوة الاسلامية العظمى التى لم ير العالم لها من مثيل ، اخوة العرب والبربر ، لحمتها الدين الحنيف الذى سوى بين الناس ، وما جعل من فضل لعربى على اعجمى الا بالتقوى ؛ وسداها المصلحة المشتركة .

اراد موسى فى بادى الامر ان يعبر الى القارة الاروبية ، ممتطيا صهوة الجزيرة الصقلية ، فانشأ بتونس دار صناعة جهزت له مائة سفينة وصاح فى الناس أن حى على الجهاد فلبى الناس داعى الجهاد فى سبيل الله افواجا ولم يبق شريف ممن كان معه الا ركب البحر ، ومن ثم دعيت هذه الغزوة غزوة الاشراف ، وعقد موسى لواءها لابنه عبد الله ؛ فنزل ارض صقلية ودحر قوى الروم بها وغنم مغانم طيبة ، انما لم يستطع البقاء بها واتمام فتحها ، فاكتفى بما ناله وقفل باسطوله الى البلاد الافريقية .

ولعل طول المسافة البحرية بين تونس وصقلية ، وصعوبة ارسال المدد الى الغزات من جراء ذلك هو الذى جعل موسى يعدل عن فتح صقلية ، ويعقد

(١) وهذا فى الحقيقة من اهم اسباب انهيار الدول العربية الاسلامية السالفة ، فى كل مكان .

العزم على مهاجمة اوروبا من ناحية اخرى تكاد تتصل فيها بالارض الافريقية ؛ وهكذا نشأت غزوة بلاد الاندلس من مجاز طنجة الذى اصبح يعرف فيما بعد والى يومنا هذا ببوغاز جبل طارق ، وهو طارق بن زياد الليثى الذى اتم الله على يده ذلك الفتح المبين .

ولى الامر بافريقيا من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك ، عبيد الله ابن الحباب ، فرأى ان يقتفى اثر موسى بن نصير وان يدخل اوروبا من صقلية بعد ان توطن فتح الامدلس ، فارسل فى اول الامر غزوة بحرية لقيت اسطولا للروم يعترضها الطريق ، فدار القتال بين الاسطولين وانهزمت مراكب الروم وولت الادبار ، الا ان المسلمين لقوا من جراء ذلك عنتا ، واسر الروم منهم قبل انهزامهم عددا من رجالهم ، من جملتهم العالم الشهير الشيخ عبد انرحمان بن زياد الذى بقى فى الاسر الى سنة ١٢١ (١) ثم رجعت مراكب المسلمين بما غنمته من الروم .

لكن ابن الحباب لم يصبر على هذه الحثية وصمم على انفاذ السهم فى صقلية فجهز من جديد حملة عظيمة وضع على رأسها القائد حبيب بن ابي عبيدة بن عقبة بن نافع ، ومعه ابنه القائد الجسور عبد الله بن حبيب ،

(١) قبل سنة اعوام (٧٣٢ م) وقعت معركة ابواتية ، او بلاط الشهداء ؛ وبهر اوقف شارل مارتيل زحف المسلمين على ضفاف نهر اللوار وقتل اميرهم البطل عبد الرحمان الغافقى ، وقد كان المسلمون دخلوا بلاد فرنسا سنة ٧٢٠ واحتلوا مدن نربون وقرقسنه ونيم ثم استولوا على افينيون سنة ٧٣٠ وبوردو سنة ٧٣٢ ووضعوا جاليات اسلامية بهانيك الديار ؛ فبعد معركة ابواتية انسحب المسلمون الى الجنوب حيث استقروا امدا طويلا فى البلاد المواجهة لجبال البيرانات الفاصلة بين فرنسا واسبانيا .

وقد كان المسلمون يتقدمون فى جنوب فرنسا الشرقى ملبيين دعوة الاهالى لهم وكان من آثار المسلمين هنالك تأسيس جامعة « مونبيل » وبعد انجلاء المسلمين جرد ملك فرنسا (بييان البريف) ابن شارل مارتيل حملة انتقامية ضد اهالى جنوب فرنسا الشرقى فامعن فيهم مدة ٢٥ سنة قتلوا ونهبوا وتعذبوا .

وبهذه المناسبة يقول المؤرخون الغربيون ان الفاتحين العرب كانوا يتقدمون فى البلاد حسب التقارير السرية التى كانوا يتصلون بها من اليهود الذين انشأوا يومئذ جوسسة واسعة النطاق لفائدة الفاتحين المسلمين ؛ سعيهم فى الخروج بواسطتهم عن احكام المسيحية الجائرة القاسية التى كانت تمنع فيهم اضطهادا وفتكا وتعديبا .

وسار الاسطول الاسلامي من دار صناعة تونس سنة ١٢٢ فنزل الارض الصقلية وقاتل من اعترضه وعزم من قاتله حتى وصل تحت جدران سرقوسة الشهيرة ونصب عليها الحصار وضيقه وضرب باب المدينة ضربة رمزية بسيفه فائرت فيه ، واذعن الروم والاغريق للمصلح وبذلوا في سبيله جزية ذريعة ، وعزم حبيب وابنه عبد الله على البقاء بصقلية وانجاز فتحها ، وقد تيسرت لهما اسبابه . الا ان الحالة ساءت بافريقيا اذ وقعت ثورة في ناحية طنجة قام بها البربر (١) فارسل ابن الحباج عليهم القائد خالد ابن ابي حبيب الفهري ومعه وجوه القوم واسراف قريش ، وكانه اراد بذلك ان يقمع الفتنة بوجه سلمى وبطريقة الاقتناع والاذعان للحق على يد قوم لهم مكانة عالية في الدين وفي المجتمع . الا ان الفتنة كانت عمياء هوجاء ؛ والتقى الثوار برسول الامير وكانوا جماعة غفيرة فقتلوه عن آخرهم وكاد امر الفتنة يستفحل ؛ فبادر عبد الله باستدعاء الجند الاسلامي من صقلية مقدما الهم على المهم ؛ واضطر حبيب ومن معه لاختلاء الجزيرة مرة اخرى بعدما كادوا ينجزون فتحها ، ورجعوا على مضض الى البلاد الافريقية .

راى عبيد الله بن الحباج خيبة امله المزدوجة ، وفشل مساعيه الجسيمة فترك الولاية ؛ ورجع الى المشرق في جمادى الاولى ١٢٣ ، وكانت ولايته سنة ١١٠ ومن آثاره العظيمة الخالدة الجامع الاعظم بتونس ، جامع الزيتونة العامر منبع النور والهدى بالشمال الافريقي زاده الله رفعة وسموا . وينسب له بعض المؤرخين بناء دار الصناعة بتونس ولعله حسنها وزادها اتساعا ونشاطا ، لان موسى بن نصير كان قد استعمل بتونس دار الصناعة ، ومنها جهز مراكبه لغزو صقلية كما اسلفنا .

ثم في ايام الوالي عبد الرحمان بن حبيب الفهري اعاد عبد الله بن حبيب غزوة الجزيرة وكان الروم قد حصنوها وانشأوا بها اسطولا لا يقصدون به

والعدوان ، مخالفا بذلك احكام القرآن ، وتعاليم الاسلام .
(١) سبب هذه الثورة عسف العامل على ضنجة من قبل ابن الحباج ، واسرافه في الظلم

الدفاع فحسب ، بل كانت مهمته مهاجمة مراكب المسلمين وقطع البحر عنهم ؛ قال ابن الاثير : فكانوا كلما ظفروا بمركب من مراكب المسلمين اخذوه بما فيه . اشتعلت نيران الحرب بين الاسطولين ؛ وحطم ابن حبيب الكثير من مراكب الاعداء ؛ ودك حصونهم . ولم تكن نيته هذه المرة الاستقرار بالجزيرة ، فتركها بعد ان صالحه الروم بها على مال كثير ورجع الى افريقيا مثقلا بالغنائم .

الفتح الاغلبى واسبابه - نشأت الدولة الاغلبية كما اسلفنا فى عزة وكرامة وتوطد لها الملك والسلطان ، ودانت لها الناس ، فقامت بمأثرتها الخالدة على صفحات الوجود الا وهى فتح صقلية ، وموالاته الجهاد بها ، ونصب انوية الاسلام والعروبة فوقها عالية خفاقة زاهية .

كان أهم أسباب العزم على الفتح بصفة قارة مستمرة ، هو تمهيد السبيل لفتح البلاد الاروبية ومهاجمتها من الوسط ، حيث اخفق هجوم المسلمين عليها من ناحية الشرق عند جدران القسطنطينية ، واخفق هجومهم عليها كذلك من ناحية الغرب فى سهول مدينة ابواتية امام شارل مارتال .

أما السبب الثانى الرئيسى لهذا الفتح فهو محاولة قطع دابر القرصنة البيزنطية الرومية وقد اتخذت صقلية كما اسلفنا مركزا لها ، تشن منها الغارة الفينة بعد الفينة على الارض الافريقية فتخرب القصور وتنتهب الارزاق وتذهب بالسكان الآمنين اسرى حيث يباعون عبيدا ان لم تبادر الدولة الاسلامية بدفع الفدية عنهم .

زد على هذين السببين الرئيسيين سببا ثالثا هو رغبة الملك الاغلبى فى قطع دابر الفتن الداخلية واثورات التى كانت تجتاح البلاد مثل واحدة اخطر من الطاعون وافتك من الوباء ؛ باشتغال الناس من بربر وعرب ، بامر الجهاد فى سبيل الله فوق اديم ارض اجنبية ، ينسيهم فتنهم الداخلية ويلهيهم عن محاربة بعضهم بعضا . ولقد تخلص الملك الاغلبى بواسطة هذا الفتح من العناصر المتهيجة المثيرة فى الجند العربى ، والتى اوصلت المملكة الاغلبية تحت قيادة الزعيم الثائر منصور بن نصر امير المحمدية الى شافة القبر ، وما

امكن التغلب عليها الا بجهد جبار وتدبير حكيم .

وقد نجحت هذه الغايات السامية الى حد بعيد ، ونجح بلاط القيروان الزاهر فى عهد الاستقلال الذهبى ، حيث اخفقت محاولة الولاة فى عهد التبعية والحكم المباشر بواسطة الخلافة .

العزم على الفتح - تكاثر عدد المسلمين الاسرى بجزيرة صقلية ، فعقد الملك زيادة الله اتفاقا مع حاكم الجزيرة من قبل الروم ، تعهد به هذا بارجاع اسرى المسلمين الى البلاد الافريقية ، ولا يبقى منهم احدا بارض الجزيرة .

وكانت الحالة يومئذ فى صقلية على أسوأ ما تكون عليه حالة بلاد يحكمها من قبل الاجانب حكام غلاظ شداد ، ديدنهم الارتشاء ، ودينهم مصلحة الذات ، وسيرتهم الجور والعسف ، وسريرتهم الحقد والحسد ونية السوء ، والشعب المسكين يشن من جراء ذلك انينا منكرا ، وليس عليه الا الخضوع لارادة الظالمين . كان يتولى امر الجزيرة يومئذ من قبل امبراطور الروم فى القسطنطينية عامل يدعى قسطنطين ، جمع الله فيه ما تفرق فى بنى قومه من فساد السيرة وخلال السوء . وكان على الاسطول الرومى بالجزيرة امير البحر اوفيمياس Euphémios (ويسميه مؤرخو العرب فيمى) فلم يكن احسن من زميله سيرة ولا اظهر سريرة ، وكان الخلاف مستحكما بين الرجلين بصفة فظيعة فسعى الوالى لدى الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثانى ، واستصدر منه امرا بالقاء القبض على امير البحر ، وكان لهذا انصار واتباع يسرون تحت لوائه وينتفعون منه ، فثاروا على الوالى ، ونبذوا دعوة الامبراطور ، واعلنوا فى الجزيرة استقلالهم ، وانتصب اوفيمياس حاكما بامرهم هنالك .

لكن الدهر لا يصفو للظالمين ؛ فان اوفيمياس لم يمكث فى الملك طويلا ، حتى ثار عليه احد قواده ، بلاطة ، وهزمه فى معارك عديدة واعلن رجوع البلاد لطاعة الامبراطور .

ضاققت الاسباب بوفيمياس فقدم بجماعة من انصاره الى مدينة القيروان

مستنجدا بلاطها ضد خصمه .

كان مجلس شورى الملك زيادة الله يتفاوض يومئذ في مسألة الاسرى المسلمين بصقلية ، وقد علم رجال القيروان انه لم يزل بين ايدي الروم هنالك جماعة من المسلمين . وان العقد الذى عقده الملك مع والى الجزيرة لم ينفذ ، وكان الجدال يومئذ محتدما حول ذلك ؛ وهل يجوز نقض العهد معهم والعودة الى حربهم ؟ فقال قاضى الجماعة اسد بن الفرات : علينا ان نستخير رسلهم ؛ يعنى (جماعة اوفيمياس) فاننا بواسطة الرسل قد عاقدناهم ، وكذلك بواسطة الرسل نقيم عليهم الحجة ونجعلهم ناكثين .

اوتى بالرسول يومئذ فسنلوا عن الامر ، واكدوا انه لم يزل حقا بالجزيرة الصقلية خلافا للعهد ، جماعة كبيرة من المسلمين فى حالة رق واستعباد .

اذاك قرر المجلس ان العقد قد نكث من طرف الاعداء ، وان الحرب واجبة لرفع هذه المظلمة . ونادى زيادة الله بالجهاد فى سبيل الله ؛ فلبى المسلمون النداء واجتمع الاسطول الاسلامى بمدينة سوسة ، مرسى القيروان ؛ وكان يجمع مائة مركب تحمل كل مركب منها نحو مائة وعشرة من المقاتلين مع الزاد والعتاد والخيول ، فكان الجيش الفاتح مؤلفا من عشرة آلاف راجل وتسعمائة فارس وامر عليهم قاضى الجماعة اسد بن الفرات .

اسد بن الفرات - وانه لمن اكبر الكبراء واعظم العظماء فى تاريخ الشمال الافريقى ، لا تدانى منزلته العالية فى العالم ، الا همته السماء وعلو كعبه فى الجهاد ، بين ميادين السيف والقلم .

وانه لمن واجبنا المقدس ان نسطر صفحة حياته النقية انطافحة بجلائل الاعمال بصفة موجزة (١) حتى نتخلص الى ذكر قيادته الجند واعماله فى صقلية . اعجمى الاصل ، ولد بمدينة من ارض خراسان سنة ١٤٢ ، وقدم مع

(١) راجع عن ترجمته باسهاب ؛ مقالا ممتعا للاستاذ العلامة الشيخ احمد المهدي النيفر نشرته مجلة الثريا التونسية فى العددين السابع والثامن من سنتها الاولى .

والده وسنه لا يجاوز الاربعة اعوام صحبة الجند الاسلامى القادم مع الوالى محمد بن الاشعث لتمهيد الامر بافريقيا .

تلقى فى مدينة القيروان مبادئ علومه مدة خمس سنوات ، وارتحل فى العاشرة من عمره الى مدينة تونس فانقطع فيها للعلم نحواً من اثنتى عشرة اعوام تعلم فيها القرآن وعلومه ، وروى فيها موطأ الامام مالك عن علامة افريقيا يومئذ وبحرها انطامى الشيخ على بن زياد (١) .

وكان اسد رحمه الله يقول مفاخرها ومداعبها اقرانه : انا اسد والاسد خير الوحوش ، وابى الفرات والفرات خير الماء ؛ وجدى سنان والسنان خير السلاح .

ولم يكفه ما روى به غلته من العلم فى مدينة تونس ؛ فامتطى صهوة العزيمة والجلد ، وشد رحاله الى المشرق الذى كان يزهو ويزدهر يومئذ بما فيه من مصابيح العلم وائمة الهدى .

ام بادي ذى بدء مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهنالك سمع عن مالك ابن انس رضى الله عنه الموطأ وتعمق فيه بعدما استوعبه اول مرة عن ابن زياد ؛ ثم غادر المدينة مزوداً بعلم مالك الغزير ودعائه الصالح ووصيته يوم الوداع : اوصيك بتقوى الله تعالى ؛ والقرآن ؛ والنصيحة لهذه الامة ، وام العراق فلقي جماعة من اصحاب ابى حنيفة النعمان ؛ اخص بالذكر منهم الامام ابا يوسف ومحمد بن الحسن فاخذ عنهما الشئ الكثير من علم ابى حنيفة وآرائه وفتاويه واخذ عنه ابو يوسف موطأ مالك وآراءه . ثم انتقل الى مصر وفيها جماعة كبرى من اصحاب مالك والناسجين على منواله ، فصحب منهم الامام عبد الرحمان بن القاسم صحبة طويلة وامعن فى

(١) روى الموطأ عن الامام مالك رضى الله عنه بالمدينة ؛ واخذ عنه الامام سحنون صاحب المدونة ؛ عرضت عليه الدولة مراراً تولى القضاء ، فرفض وابى تورعاً منه ، وحياً للانقطاع للعلم ، حتى توفاه الله سنة ١٨١ ، ودفن بتونس حيث لا يزال ضريحه الضخم تجاه ادارة المحافظة يزوره الناس احياء لذكراه واعترافاً بجلال اعماله .

سؤاله وعرض المسائل المختلفة عليه ، حتى انقطع اسد فى السؤال ، اذ لم يبق له شيء يسأل عنه ، ودون عندئذ كتابه الشهير « الاسدية » .

وبعد عشرة اعوام مضت فى جهاد عنيف واجهاد نفسى عن نظيره فى سبيل العلم والمعرفة ، رجع الى وطنه الافريقى حاملا فى صدره علما غزيرا ، وفى وطابه كتابا عزيزا هو الاسدية ، وتصدى للعلم والنفع ، فاشتهر امره وذاع صته .

وكان الامام سحنون يومئذ بالمشرق ينهل من معين ابن القاسم العذب وقد صحبه واطال صحبته وألف كتابه الاشهر « المدونة » ثم رجع به الى القيروان وانتصب للاقراء والنفع والتدريس ؛ ولم تكن المدونة على وفاق تام مع الاسدية ، فهناك مسائل كانت محل خلاف واستشير الامام ابن القاسم فى الامر فرجح كفة المدونة على كفة الاسدية ، وأمر أسدا بان يصحح كتابه على المدونة فترك اسد رحمه الله اسديته وفقه مآلك ؛ وأقبل على مذهب أبى حنيفة النعمان يشرحه للناس ويعلمه للخاصة والعامة .

ثم ولى قضاء القيروان سنة ٢٠٤ مشتركا فى ذلك مع القاضى أبى محرز الكنانى ؛ وكان بينهما شأن كبير وخلاف عظيم .

وعندما وقع الحوض فى مسألة صقلية ومن بها من أسرى المسلمين ، كان من رأى القاضى أبى محرز الكنانى الثانى الى ان يتأكد الخبر ؛ ولو أنه كان عائشا فى عصرنا الحديث لطلب « تشكيل لجنة بحث » . اما اسد فكان رأيه الأسد ، اذ قال علينا بسؤال الرسل ، فاننا بواسطة الرسل صالحتهم ، وبواسطة الرسل نجعلهم ناكثين ورجح هذا رأى كما رأيت ، ونادى منادى الجهاد ، واجتمع الاسطول فى سوسة .

عندئذ طلب القاضى اسد بن الفرات من اميره زيادة الله ، الاذن له بالخروج صحبة الجند الاسلامى حتى ينال شرف الجهاد او شرف الاستشهاد ، فلبى زيادة الله طلب القاضى الذى كان يومئذ فى العقد السابع من عمره ،

واولاه اماره الجيش الفاتح ؛ فقال اسد : واه يا مولاي ! اتعزئنى عن القضاء
لكى تولينى الامارة ؟ فقال زيادة الله كلا ؛ بل لك اماره الجيش مع القضاء .

وامر زيادة الله ان يخرج الجند الاسلامى فى موكب حافل ومهرجان مشهود
فخرج لوداع المجاهدين كبار الامة وعيون القوم من العرب والبربر والانديليين ،
والسادة الاشراف ؛ قال الشيخ ابوبكر بن محمد المالكي فى كتابه « رياض
النفوس » : فلما رأى (اسد بن القرات) جمع الناس بين يديه وخلقه وعن
يمينه وعن شماله ، وقد سهلت الحيل وضربت الطبول ، ونشرت البنود
قال : لا اله الا الله وحده لا شريك له . والله يا معشر الناس ما ولى لى اب
ولا جد ولاية قط ، وما رأيت ما نرون الا بالاقلام ، فاجهدوا انفسكم
واتبعوا ابدانكم فى طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه واصبروا على شدته
فانكم تنالون به الدنيا والآخرة .

المعارك الاولى - اقلع الاسطول الاغلبى الاسلامى من مدينة سوسة ؛

يوم الاحد ١٤ ربيع الانور سنة ٢١٢ (١١ جوان ٨٢٧) ووصل سواحل
صقلية عند مدينة مازرة ، يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الانور ؛ قاطعا فى ثلاثة
ايام ، ثلاثمائة كيلو مترا تفصل بين سوسة ومازرة .

نزل المسلمون مدينة مازرة ، ولم يجدوا بها من يدافع عنها لاختلال
امور الروم ، وزهد اهل البلاد فى الدفاع عنها لقائدة الغاصبين ، فاتم
المسلمون تفريغ الاسطول وانزلوا الى الارض ما اتوا به من معدات الفتح
والكفاح .

عندئذ قدم القائد بلاطة بجموع كثيفة من الروم ، تبلغ المائة الف
مقاتل ، اى عشرة اضعاف الجند الاسلامى ؛ اما امير البحر اوفيمياس الخائن
فقد تركه المسلمون وشأنه ولم يستعملوا جماعته وانصاره .

خرج المسلمون للقاء بلاطة ، وكان يعتزم الرمي بالمهاجمين الى البحر ،

تاريخ صقلية - ٥

والتقى الجمعان على مقربة من مازرة . قال ابن ابي الفضل وكان حاضرا
المعركة « ورايت اسد بن الفرات ويده اللواء وهو يزمر : فحملوا عليه ،
وكانت فينا روعة ، فاقبل اسد على قراءة يس : فلما فرغ منها قال للناس :
هؤلاء عجم الساحل ٠٠٠ هؤلاء عبيدكم ٠٠٠ لا تهابوهم : وحمل باللواء
وحمل الناس معه : فهزم الله جل وعلا بلاطة واصحابه ، فلما انصرف اسد
رأيت والله الدم قد سال من قناة اللواء مع ذراعه حتى صار مع ابطه » .

ومعنى قول أسد : هؤلاء عجم الساحل ، اى هؤلاء الذين هربوا امامكم
من السواحل الافريقية .

اثر هذا النصر العظيم ، فرت فلول الجيش الرومى نحو الجهة الشرقية
معتصمة بمدينة سرقوسة : ورأى اسد ان يستثمر على الفور انتصاره الكبير ،
فسار بجيشه يقتفى اثر المنهزمين ، ففتح كامل الجنوب الصقلى فى مدة
وجيزة حتى وقف تحت اسوار سرقوسة قاطعا مسافة مائتى كيلومتر
الفاصلة بين مركز النزول مازرة والمدينة المحاصرة فى وقت وجيز .

كان امير البحر اوفيمياس قد ندم فعلته وخيائته ، اذ رأى ان المسلمين
يفتحون الجزيرة لحساب الاسلام لا لحساب رومى مهما كان شأنه ، فراسل
أهل سرقوسة يستحثهم على الصبر والثبات ريثما يقدم لنجدتهم ، فخرج
جماعة من البطارقة والرهبان يسالون الامان لاهل المدينة ويطاولون فى
المذاكرة ، وكان ذلك منهم خديعة حربية تمكنوا بواسطتها من كسب الوقت ،
وزيادة تحصين المركز ، واخفاء ما به من كنوز ونفائس .

أراد المسلمون أن يقتحموا المدينة فاخفقوا ، وأراد أهل المدينة أن يبعدوا
المسلمين عن أسوارها فاخفقوا كذلك . وأصبحت الحرب حرب مراكز
لا حرب حركة .

وقع المسلمون فى مخمصة عند ذلك وأصاب الجند جوع كبير حتى أكلوا
الحيول ، فخطبوا القايد ابن قادم فى الامر وسألوه التوسط لهم عند أسد
ليأمرهم بالرحيل الى افريقيا : قال ابن القادم لاسد : ارجع بنا الى افريقيا

فان حياة مسلم واحد أحب الينا من جميع المشركين ، فقال اسد : ما كنت لأكسر غزوة على المسلمين ، وفي المسلمين خير كثير ؛ هنالك اخذ دعاة الهزيمة يعملون أعمالهم وينشرون دعايتهم المنكرة ، وبدرت من ابن القادم الذى تزعمهم كلمة سيئة ، فقال اسد : على اقل من هذا قتل عثمان بن عفان ؛ ثم تناوله وضربه ثلاثة او اربعة اسواط ، وكأنه قد ضرب فيه دعوة التردد والهزيمة ، ونصر فكرة المقاومة الثبات والصبر ، فتم له ما اراد ، وعادت العزيمة القوية الى الانفس التى لعبت بها حينما ما دعوة النكوص على الاعقاب .

واذ كان المسلمون قد احتلوا كامل الجنوب الصقلى ؛ فقد سهلوا على انفسهم امر تموين الجند ووصول النجدة اليه من الارض الافريقية ، ووصلت النجدة والاقوت والمؤن فعلا للمسلمين ؛ ووصلت للروم فى سرقوسة مثل ذلك من بقية الحاميات الرومية ، واستمرت الحرب سجلا حول سرقوسة ، وقد حفر المسلمون حولها خندقا عظيما يمنع خروج حاميتها للمهاجمة .

كان اسد رحمه الله رضى عنه يباشر امر الحصار بنفسه ، ويضيق على المدينة ، لكن ذلك الجهد الحربى الذى بذله منذ نزل مازرة نال من جسمه البالى فاصابه من جراء ذلك مرض اودى بحياته الجليلة ، ولبى داعى ربه فى ربيع الثانى سنة ٢١٣ هـ بعد جهاد متواصل عتيف دام ١٣ شهرا ودفن رحمه الله بمقر استشهاده تحت اسوار سرقوسة ، ويقول بعض المؤرخين انه دفن بمدينة قصر يانة ، وذلك غلط لان تلك المدينة لم تكن قد فتحت بعد ؛ وكذلك يقول بعضهم غلطا انه دفن فى بالرمة التى لم تفتح الا عدة سنوات بعد ذلك .

محمد بن ابي الجوارى

اجتمع المسلمون بعد انتقال اسد بن الفرات الى الرفيق الاعلى ؛ وولوا عليهم محمد بن ابي الجوارى . وكانت النفوس قد ضعفت والعزائم قد وهنت ، فأستقر رأى الامير محمد بن ابي الجوارى على اخلاء الجزيرة ، والرجوع بالمسلمين الى افريقيا .

غلطة الروم ، توطد الفتح - ركب المسلمون عندئذ مراكبهم منسحبين ؛ واقلعوا ، وما كادوا يتوسطون عرض البحر حتى لقيهم اسطول الروم القادم من القسطنطينية نجدة لاهل سرقوسة ؛ فسد على المسلمين طريق الرجوع الى افريقيا ولم يترك لهم الا احدى الطريقتين : اما قبول المعركة مع الاسطول الرومى ، وهو اوفر عددا واقوى عدة ، او الرجوع لصقلية ، والثبات بها والصبر على شدة الحرب الى ان يأتى الله بامرهم .

عزموا ، وهم على متن البحر على مواصلة الجهاد والرجوع الى البر ، فرجعوا مستبسلين ، عازمين على الفوز او الاستشهاد ، ولكى يقطعوا كل امل لهم بالنكوص على الاعقاب والرجوع نحو افريقيا ، قاموا بعملهم الحازم الحاسم ، الا وهو احراق اسطولهم عن آخره مقتدين فى ذلك بما فعله من قبل طارق بن زياد عند فتح الاندلس ، حينما احرق المراكب وقال : ايها الناس البحر وراءكم والعدو امامكم ، وليس لكم والله الا الصبر او النصر ؛ وبهذا الحادث الرمضى ، توطد امر المسلمين فى الجزيرة وعزموا على انجاز الفتح الى النهاية .

ابن فرغلوش الاندلسى - وكيف الصبر على الجوع وعلى قلة المدد وعلى ضعف العدد ، امام جموع الروم الغفيرة واقواها الوفيرة ؟ رأوا ان لا ملجأ من الله يومئذ الا اليه فصبروا وانتظروا ؛ وكان نصر الله قريبا .

فى تلك الاثناء والازمة مستحكمة الحلقات ، كما جاءت سفن المدد من افريقيا ارسى على السواحل الصقلية الجنوبية اسطول قرصان المجاهدين المسلمين بالاندلس ، يقوده اصبح بن وكيل المشتهر باسم « ابن فرغلوش » وكان الاسطول سائرا فى سبيل الغزو والمغامرة . فتجمع من العمارتين نحو الثلاثمائة سفينة (١) .

تم الاتفاق بين مسلمى الجزيرة وقرصان الاندلس على ان ينزل الاندلسيون الجزيرة لنصرة جندها ، وفتح مدنها والقضاء على حكم المسيحية فيها ، وعلى ان تكون الامارة فيها عند انجاز ذلك لابن فرغلوش (٢) .

نزل الاندلسيو البر واشتد بهم ساعد أهل افريقيا ، وسار المسلمون

أقوياء العزائم فى طريق الفتح والنصر ، فاحتلوا مدينة مينا بعد حصار ثلاثة أيام ؛ ثم ساروا نحو جرجنت ففتحوها قسرا وساروا بعدئذ نحو معقل « قصر يانة » الذى كان أكبر صياصى الروم بالبلاد .

كان امير البحر اوفيمياس الخائن لا يزال يطمع فى تولي الامر بعد أن يمهد له المسلمون السبيل رغم مساعيه السالفة الذكر ؛ فعندما وقف المسلمون تجاه قصر يانة ، وكان أهلها أشداء متقانيين فى الدفاع ، أظهروا الاستسلام والخضوع ، وأبدوا رغبتهم فى تولية اوفيمياس أمرهم ، وما كان ذلك منهم الا مكيدة فتمكنوا من الخائن ودقوا عنقه ، وتحصنوا فى مدينتهم أثر ذلك فلم تستطع جموع المسلمين اخضاعها .

الوباء - فى سنة ٢١٦ (٨٣١) أصاب المسلمين وباء شديد فتك بهم فتكا ذريعا ، وكان القائد المجاهد ابن فرغلوش من جملة من استشهد بذلك ، ومات فى تلك السنة نفسها الوالى محمد بن ابي الجوارى ، واضطرب امر المسلمين ، فتولى أمرهم مؤقتا عثمان بن قهرى الى ان جاء من القيروان ابو فهر محمد بن عبد الله التميمى سنة ٢١٧ (١) فنفر ابن فهر عنها ولم تطل مدة ولايته ، ولم يستقم له امر ، ورجع اسطول الاندلس بمن بقى حيا من رجاله الى الاسبانيا .

زهير بن عوف

ارسل زيادة الله الاغلبى ، زهير بن عوف عاملا على الجزيرة ، على ان يستمر فيها الجهاد ويتم فتح البلاد ؛ وارسل معه جندا عظيما يبلغ عدده ٣٠ الفا ؛ (٢) فاشتد ساعد المسلمين هنالك ، واندفعوا يوالون الفتح ويسيروا من نصر الى نصر .

(١) هذا ما يذكره ابن خلدون . وارى فى العدد مبالغة لا ريب فيها .

(٢) هذا يعنى - لو صحت الرواية - انفصالهم عن الدولة الاغلبية ؛ وهو لا يتفق مع ورود النجيدات الافريقية . ولا مع بقية سائر الحوادث . فالرواية فيها نظر .

فتح بالرمة - ولقد كان ملاك عمل ابن عوف رحمه الله فتح بالرمة عاصمة الجزيرة ودرتها اللامعة ؛ فلقد سار اليها على رأس الجند الاسلامي بعد ان توطد الفتح فى الناحية الجنوبية كلها ؛ وكان الروم ومن لف حولهم من انصار المسيحية قد تحصنوا فى العاصمة واستعدوا لتلقى الصدمة الرهيبة واعدوا لها ما استطاعوا من قوة وميرة ، ومن عزيمة وجلد .

وقف المسلمون تحت الاسوار المنيعة ، وارسل ابن عوف الانذار الشرعى لرجال الحامية فرفضوا الانذار ، وتلاقت هنالك تحت جدران العاصمة الصقلية عزيمتان قدتا من زبر الحديد ، عزيمة المسلمين التى استقرت على وجوب الفتح ودك الاسوار ، وتحطيم كل مقاومة تقف فى سبيل انجاز المهمة الكبرى ؛ وعزيمة الروم التى توطدت على وجوب الدفاع عن العاصمة ، وفى الدفاع عنها دفاع عن كيان الجزيرة باسره ؛ فاما الفوز ودحر المسلمين واما الانهيار مع انقاض المدينة .

نصب ابن عوف الحصار على بالرمة وضيق عليها الحناق من جميع اطرافها . ومهما ازداد شدة فى تضيق الحصار الا وازداد المدافعون تصلبا فى المقاومة واستماتة فى الدفاع ؛ وقد علم كل من الفريقين ان المعركة حاسمة ، وان نتيجتها ستكون اما فوز الاسلام بالجزيرة ، وتقلص ظل المسيحية فيها ، واما اندحار المسلمين ورجوعهم من حيث اتوا خائبين .

لكن الضائقة اشتدت بالمدافعين الى درجة لم يبق لهم معها احتمال الصبر ، وفقدوا كل أمل تهم فى النصر ، ولم يبق امامهم الا حد الطريقين : طريق الموت

(١) فى السنة الموالية : ٢١٨ هجرية ، توفى امير المؤمنين الخليفة العباسى المأمون ابن هارون الرشيد ، وقد كان عصره ازهر عصور المسلمين من حيث العلم والثقافة وقد امر باحضار كتب العلم والحكمة والهندسة وغيرها من بلاد الاغريق وكلف بتعريبها جماعة من مهرة الترجمة ، وقد كان كثير التشيع لآل البيت حتى انه اوصى ولاية العهد لعلى الرضا بن موسى الكاظم ؛ وفى ايامه تجسست فتنة القول بخلق القرآن واشتدت محنتها ؛ وقد كان مفرما بالتجسس والاطلاع على كل الاحوال ، فعين ١٧٠٠ عجزو يجسّن خلال الديار وبطلعنه على مختلف الاسرار .

(٢) فى هذا العدد مبالغة فاضحة ، ولعلها من غلطات الوراقين . ولربما كان الصحيح هو ثلاثة آلاف .

والاستشهاد كابطال قرطاجنة الذين سقطوا فى ميدان الشرف مجندين تحت
انقاض مدينتهم بين السنة المهيبة ، او طريق الاستسلام والانسحاب . ولقد
كان هذا هو الذى استقر عليه الوالى الرومى ومن بقى معه من رجال المسيحية ،
فطلب من ابن عوف الامان على ان يغادر الجزيرة بحرا بماله واهله ، ومن اراد
اتباعه من وجوه قومه ، فامنه الامير المسلم واجابه لطلبه تقديرا منه للبطولة
التى اظهرها اولئك انقوم فى الدفاع ؛ وابتحر الروم تاركين المدينة مفتوحة
امام المسلمين فدخلوها فى رجب سنة ٢٢٠ (٨٣٥) ، ولم يجدوا بها حسب
رواية ابن الاثير الا ثلاثة آلاف من السكان ، وقد كانوا قبل الحصار ٧٠ الفا .

اتخذ المسلمون يومئذ مدينة بالرمة عاصمة للمكهم ، كما كانت عاصمة الذين
سبقوهم ؛ وكما اصبحت من بعد عاصمة الذين خلفوهم ؛ واندفعوا فى ميدان
الاصلاح والعمران والترميم ، يقيمون انقاضها ويشيدون جدرانها ويوسعون
دائرتها ، فما عمت غير قليل حتى اصبحت تختال فى ثوب قشيب من المدينة
والعمران ؛ وامتلات قصورا ومساجد ودواوين وحمامات واسواقا وحدائق
وبساتين ، وصارت جنة يانعة تمثل انوار الشرق الاسلامى ومدنيته اللامعة
الحلابة وعلومه وفنونه ومنشآته ، تجاه ظلمات القرون الوسطى فى العالم
الغربى .

استمرار الفتح - احتلال مسينا - اثناء حصار بالرمة ، نال المسلمون
نصرا عظيما وطد قدمهم فى ناحية الشمال الصقلى ؛ وذلك باحتلال مدينة
مسينا ، سنة ٢١٩ (٨٣٤) فانحصر الروم والمسيحيون فى الناحية الشرقية
من صقلية حوالى مدينة قطانيا ، واصبحوا لا يحتلون من الجزيرة الا مثلثا
يمتد من الشرق نحو الجنوب الغربى من مسينا الى قصر يانة ، ثم يرجع من
قصر يانة نحو الجنوب الشرقى الى مدينة نوتو ؛ وعلى هذا الخط الحربى الذى
كان يتضال شيئا فشيئا ، كانت تتوالى اعمال الهجوم من ناحية المسلمين ،
وكانت تتوالى اساليب الدفاع من ناحية المسيحيين .

هاجم المسلمون الخط من وسطه مرتين ، خلال سنتى ٢١٩ و ٢٢٠

محاولين احتلال معقل قصر يانة المنيع ؛ انما هم لم يستطيعوا ان ينالوا منه منالا ، فاكثفوا بغنائم غنموها ورجعوا الى معسكرهم .

كذلك حاولوا تمزيق الخط من اسفله ، فهاجموا مدينة سرقوسة بشدة ، لكنها تصلبت في الدفاع ، واشتدت مقاومتها بصفة أجبرت المسلمين على الرجوع الى مراكزهم . تكن هذه الحيلة انقلبت نصرا مبينا ، ذلك أن جند الروم رأى أن يقطع عن المسلمين خط الرجعة ويصدهم عن الرجوع الى مراكزهم ، فاعترض لهم في الطريق ، وانقلبت محاولته تلك وبالا عليه ؛ عليه ؛ اذ أن المسلمين ركنوا الى غابة كثيفة هناك حجتهم عن انظار المتتبعين ، وكنوا هنالك الى حين ، ثم انقضوا فجأة على الجند الرومي فمزقوه شر ممزق ، وقتلوا البطريق قائده ، وغنمووا زاده وعتاده ، ثم عادوا نحو سرقوسة فنصبوا عليها الحصار وضيقوه .

كذلك سار القائد محمد بن عبد الله على رأس كتيبة ، فناجز مدينة طبرمين القتال ولم يدخلها مكتفيا بالاستطلاع وبما ناله من غنائم واسلاب ، وأخيرا احتل مدينة كوزو Gozzo سنة ٢٢١ .

ابن أبي محرز القاضي - في هذه السنة سنة ٢٢١ مات بمدينة القيروان عالم من جملة العلماء وعلم من اعلام المسلمين ، هو ابن أبي محرز قاضي صقلية؛ وقد ضربت بنزاهته وعدله وبتقواه وورعه الامثال ، من ذلك انه عندما بلغته الن وفاة ، اوصى اخاه عمر ابن أبي محرز ان يكتب خبر موته خوفا ان يكفنه ويدفنه زيادة الله الاغلبى ، وينفق ذلك عليه من بيت مال المسلمين ، فيلقى الله وعليه من مال المسلمين شيء ، وهكذا كان . فلما بلغ نبأ ذلك الامير ، ارسل بفتاه خلف ، ومعه مسك وطيب واكفان فوصل ساعة كان النعش

(١) في هذه السنة اشتدت بالعراق محنة القول بخلق القرآن على يد الخليفة المعتصم بالله ، وكان قد تشبه بملوك الاعاجم . وادخل الاتراك الدواوين واعتمد عليهم في ادارة الدولة ؛ وبلغ غلمانهم من الترك ١٨ الفا ، البسهم اطواق الذهب والسديباخ ، وبنى مدينة « سر من رأى » وانتقل اليها ، وقد حارب الروم واتخى فيهم ، وكان من ضحايا القول بخلق القرآن . الامام احمد بن حنبل ؛ الذي امتنع من الاعتراف بذلك المنكر ؛ فعقد له مجلس للمناظرة دام ثلاثة

خارجا نحو المقبرة ، فنثر خلف المسك على جدث القاضى ، ورجع بالاكفان ؛ وحضر الدفن الامير زيادة الله وعزى اخاه واهل العلم فيه ، وقال لمن حوله « لو اراد الله بكم يا اهل القيروان خيرا لما اخرج ابن ابى محرز من بين اظهركم » .

وفى نفس هذه السنة ٢٢١ (١) توفى زهير بن عوف امير صقلية وقد سجل اسمه على صفحات المجد بجلال اعماله .

ابو الاغلب ابراهيم بن عبد الله بن الاغلب

ولى امارة صقلية عند موت زهير بن عوف ، وامر المسلمين فى نمو ، وسلطانهم فى تمكين وحول وقوة ؛ وكان الروم لا يزالون متحسين فى الخط الدفاعى الذى اسلفنا ذكره ؛ فكانت حمة الوالى الجديد متوجهة نحو ذلك المثلث يريد نفسه ، حتى يصفوا امر الجزيرة للمسلمين لا ينازعهم فيها منازع .

الحرب البحرية - رأى ابن الاغلب ان الروم يعتمدون على البحر اكبر الاعتماد ، والنجدات ترد اليهم تباعا على متن الامواج فايقن ان القضاء النهائى على المقاومة الرومية لا يقع الا بعد القضاء على مراكز تموينهم ، وقهر الاسطول الرومى والسفن التى تعمل على انجادهم .

لذلك كانت اعمال ابى الاغلب الاولى منحصرة ضمن المنطقة البحرية ، فسير سفائنه تجوب عرض البحار المحيطة بالجزيرة ؛ ولقى هنالك اسرابا من سفن الروم فنازلها وحطم الكثير منها واستولى على عدد كثير ضمه الى عمارته ؛ واصبح للاسطول الاسلامى الصقى اثر هذه الوقائع سمعة ادخلت الرعب فى قلوب الاعداء .

ايام ؛ وضرب ضربا مبرحا الى ان اغمى عليه وهو صائم ، ومات رضى الله عنه شهيدا من جراء ذلك . ثم استعمل المعتصم بالله عيسى بن القا من الاتراك لاجل المحافظة على الثغور ، فقادت الدولة بذلك وحدتها ، ودخل عليها العامل الذى ادى فيما بعد لهلاكها ، اذ استبد بالحكم فيها الاتراك ولم يتركوا للخليفة الا الاسم ؛ وانتشرت دولهم بعد ذلك فى كل بلاد العرب باسيا ، كما سترى فى تعليق آخر .

ولقد اغتنم ابو الاغلب فرصة تغلبه البحرى فانزل كتائب من الجند الاسلامى تحتل اغلب الجزائر الواقعة شمال صقلية وغربها ؛ وقد كانت مكامن اللروم ومراكزهم لتموينهم .

وقائع قصر يانة - فى سنة ٢٢٢ (٨٣٦ م) ، فتح القائد الفضل بن يعقوب حصن مندار Tindars تكن المسلمين بالجزيرة ما كان ليصفو لهم الجو ، وعلى يمينهم معقل كمعقل قصر يانة ، يقض مضاجعهم ويهدد امنهم بصفة مستمرة ؛ فكانت الجهود تبذل من جانب المسلمين باستمرار لمحاولة احتلال قصر يانة ، كلفهم ذلك ما كلفهم من جزيل التضحيات .

ولقد كان الروم وكانت الجموع المسيحية تعرف اهمية قصر يانة ، وتدرك قيمتها الحربية ؛ وهى اشبه ما يكون بخنجر ممتد نحو قلب المراكز الاسلامية ، وتدرك فوق ذلك قيمتها الادبية ؛ فهى تمثل رمز المقاومة المسيحية بهاتيكي الديار .

هاجم المسلمون مرارا قصر يانة ؛ واخفقوا تحت جدرانها مرارا ؛ وما صدمهم الاخفاق عن موالات الهجوم ، ولم تكن عزيمة المسلمين هنالك عزيمة الروم ؛ فمهما اشتد اولئك فى الهجوم العنيف اشتد هؤلاء فى المقاومة الباسلة ، والتقت هنالك وجهها الى وجه بطولة المسلمين وبطولة الروم ؛ وسجل الفريقان على ميدان الفروسية والشهامة صحائف فخر لا تبليها الايام . ولقد احتل المسلمون قصر يانة احتلالا مؤقتا له قصة طريفة سنة ٢٢٣ ذلك أن ثلة من الجند الاسلامى كانت مرابطة تجاه المدينة لاهى تستطيع احتلالها ولا الروم يستطيعون ابعادها . ففى ليلة من الليالى كان أحد المسلمين يغامر منفردا تحت جدران المدينة يطوف حولها واذا به يجد ثغرة وليس عليها حرس من الروم ، فانطلق يعدو الى حيث معسكر المسلمين واخبرهم بالامر فتناولوا سلاحهم وانطلقوا خلفه الى حيث تلك الثغرة فاجتازوا منها الى المدينة

(١) فى منتصف هذه السنة توفى بالقيروان ملكها العظيم زيادة الله بن الاغلب الكبير بعدما

والروم فى غفلة ، وما شعر هؤلاء الا واصوات التكبير والتهليل قد تصاعدت الى غنان السماء ، وقد ملك المسلمون المدينة فانسحب الروم الى بعض البروج وتحصنوا بها ، وامن المسلمون سكان المدينة على انفسهم واموالهم ؛ ثم انسحبوا منها بعد حين ، نظرا لقلّة عددهم ولكثرة الروم المحيطين بها ، ورجعوا الى مراكزهم الاولى وعاد الروم للتحصن بها من جديد .

المسلمون فى ايطاليا الجنوبية - وفى سنة ٢٢٣ (١) حيث كانت تجرى هذه الوقائع فى داخل الارض الصقلية ؛ كانت انظار المسلمين تتجه الى ابعد من ذلك ، كانت تتجه صوب البلاد الطليانية محاولة فتحها ومهاجمة القارة الاروبية من الوسط . فان ابا الاغلب ارسل باسطوله العتيد نحو بلاد قلورية يحمل جندا مدربا ، فهزم الاسطول ما ثقيه فى طريقه من مراكب المسيحيين ونزل الجند الاسلامى فى جنوب ايطاليا حيث سجل صفحة من اغرب صفحات التاريخ لاسلامى بالارض الاروبية .

لقد كان المسلمون ينتهزون الفرص للوثوب على الارض الطليانية بصفة قوية تمكنهم من فتحها والاستقرار بها ؛ ونشر انوار المدنية الاسلامية على انقاض ظلمات القرون الوسطى .

وفى هاتيك الاثناء كانت مملكة نابولى الطليانية تجارب امارّة بينقان Bénévent حارثها ؛ وكانت هذه الامارة قد تغلبت على جند نابولى ، فارسل ملكها رسلا الى بالرمة يستنجدون ابا الاغلب ضد خصمهم ، ورأى هذا ان الفرصة سنحت للتدخل فى سياسة البلاد الطليانية فارسل فرقة من الجند الاسلامى اشتركت مع جند نابولى فى محاربة امارّة بينقان ؛ الى ان غلبت هذه الامارة ؛ ورضخت لشروط الصلح ؛ واصبح المسلمون يومئذ حلفاء لمملكة نابولى ، ورأى رجال هذه الدولة ما تلمسلمين من قيمة فى ميدان العلم

وطد سلطان الدولة على اسس متينة بالفريقيا وصقلية ونظم دولته فاحسن تنظيمها ، وكانت ايامه ازهر ايام الدولة الاغلبية .

والعمران ، علاوة عما كان لهم من قيمة فى ميدان الحرب والطعان ؛ فانفتحت فى وجوه الرواد المسلمين ابواب المملكة ، وكانوا يحملون معهم رايات المدنية والعلوم والفنون ؛ وكان ذلك هو حجرة الاساس فى تكوين عصر النهضة باروبا (Le Renaissance)

ولقد كان المسلمون المغاربة قد نزلوا ارض قلورية بالجنوب الطليانى سنة ٢١٩ (٨٣٤) واستولوا على مدينة طارنطة Tarente واتخذوها مركزا لأعمالهم ، ثم ارسلوا غزواتهم البحرية حتى مصب نهر بو فى شمال ايطاليا ، وانتظم ومثذ امرهم بالبلاد واتخذوا مدينة بارى عاصمة لآمارتهم التابعة راسا لبلاط القيروان ، وجهزوا اسرابا برا وبحرا لفتح مدينة رومة فتمكنوا من ارباضها وبعض قلاعها ، لكنهم تخلوا عنها فى آخر الامر لخلاف شجر بينهم وانسحبوا الى امارتهم .

امارة بارى المستقلة

وفى سنة ٢٣٨ (٨٥٣) ، انر هذا الاحفاق ، اعلن مفرج ابن سليمان عامل الاغالبية ، استقلاله بالجنوب الطليانى فى مدينة « بارى » وحارب الامارات الطليانية المحيطة بآمارته فدحرها ووسع املاكه ، واتخذ من مملكة نابولى حليفا وفيا ، وكانت مراكبه قوية جريئة دحرت اسطول الروم القادم لاسترجاع البلاد واضطرته للرجوع على اعقابيه ، ثم احتل مدينة اوترنت Otrente ومدينة كاليارى Carigliari ووضع بهما جاليات اسلامية ؛ ونصب الحصار على مدينة قابو Capoue انما لم يتمكن من احتلالها وهكذا دانت لآمارة مفرج بن سليمان حول مدينة بارى كامل البلاد الطليانية الجنوبية (١) .

فتح مسينا - كان الروم قد استرجعوا مسينا من يد المسلمين ، وكانت هذه المدينة همزة الوصل بين صقلية وايطاليا ، فتمكن الروم من البقاء بها معناه انقطاع الصلة بين شطرى النواجئة الاسلامية ، لذلك سار

(١) انظر الفصل : استطراد عن اعمال المسلمين بجنوب ايطاليا ، فيما يلى .

القائد الفضل بن جعفر على رأس جند عنيد ، فحاصر مسينا وثبتت امامه ثباتا عجيبا ؛ وكان يقاتلها من جهة البحر ، فارسل فرقة من جنده هاجمتها على غفلة من ورائها من جهة الجبال ، فتمكن من احتلال معقلها ، فاستسلم مقاتلوها وطلبوا الامان فامنوا .

فتح لسي - سار الفضل بن جعفر اثر ذلك قاصدا مدينة لسي ، وكانت حصينة متينة التحصين انما كانت حاميتها قليلة العدد ؛ فعندما رأى اهلها قدوم الجند الاسلامي استصرخوا بطريق قصريانة طائبين منه النجدة فراسلهم يقول انه منجدهم بمدد وانهم متى رأوا نارا اوكدت على الجبل المشرف على المدينة فعليهم ان يفتحوا بابها في وجه النجدة القادمة لنصرتهم .

هل وقع الرسول والرسالة في يد القائد الفضل بن جعفر ، ام كانت له عيون اخبرته بذلك النبا ؟ الامر المحقق هو انه علم جلية الخبر ، فاعد جنده ليلا واوقد على الجبل نارا ، ففتح اهل المعقل ابواب حصنهم وخرجوا للملاقات النجدة فما راعهم الا والجند الاسلامي يهاجمهم من كل جهة ويقتحم عليهم الابواب ويستولى على المدينة وعلى حصونها ؛ وكان ذلك سنة ٢٣٢ (٨٤٦ م) (١) .

واستمر الامير المعظم ابو الاغلب ابراهيم يدير امارته بهمة عالية ويوالى اعماله بين قطبي السيف والقلم الى ان توفاه الله سنة ٢٣٦ ؛ وقد كان شهما كريما جوادا وهو ابن اخي الملك زيادة الله ؛ وقد قص علينا ابن الخطيب في كتابه اعمال الاعلام قصة ترينا مثالا من جهوده وشهامته ، قال :

« يحكى من اخبار كرمه انه اشرف يوما من دار الامارة فرأى امرأة قد هيات فرخين ونظفتها وطبختهما طبخا محكما ؛ فلما انزلت القدر وقد ادركت

(١) انتهت ببغداد فتنة القول بخلق القرآن ، وقد رأى الخليفة الواثق بالله في آخر ايامه ان هذه البدعة لم تلق اى نجاح وانها اوقعت العداوة والبغضاء بين المسلمين ؛ وقد انتهت الفتنة على يد الشيخ ابي عبد الرحمن الاسدي ؛ شيخ ابي داود والكسائي ؛ اثر مجلس مناظرة شهير . وان الواثق قد بيض صفحة تاريخه بترك القول القرآن فقد سودها بوضعه في بغداد الى جانب الخليفة ؛ سلطانا من الترك البسه بيده التاج وجعل له الحكم المطلق ؛ فنسف بذلك سلطة بنى العباس . بل نسف سلطان العرب الى قرون عديدة ، بصفة فعلية ، وكان الواثق اعلم

دعا بعض فتيانه واره الدار وقال اذهب فاجعل القدر فى قفة وجثنى بها ،
ففعل واكل منها • ثم امر بغسل القدر فغسلت ؛ وامر بكيس دنانير ففرغ فى
القدر حتى امتلات • وقال للفلام امض بها فاجعلها فى يد المرأة ولا تقل لها
شيئا ففعل وارتدت المرأة ان تطبخ بها شيئا آخر فكشفتها فاذا هى مملوءة
دنانير •

العباس بن الفضل بن يعقوب بن فزارة

ويعرف بابن بربر

كان فى صقلية عين الاعيان ، وكانت له الصدارة والامارة والمقام الاول
ائناء ولاية الامير السالف الذكر ، اى الاغلب ابراهيم •

فما كاد هذا الراحل الكريم ينتقل الى جوار ربه ، حتى اجمع اهل صقلية
امرهم على توليته الامارة ؛ وبايعوه على السمع والطاعة ، وارسلوا وفدا منهم
الى القيروان يطلب الى اميرها محمد بن الاغلب المصادقة على ذلك الاختيار .
ونال الوفد مرغوبه فرجع الى العباس بن الفضل بعهد الامير الاغلبى على ولاية
صقلية •

فتح قصر يانة - كانت همة العباس متوجهة لانجاز الفتح ، واستخلاص
البقية الباقية من جزيرة صقلية بايدى الروم والمسيحيين ؛ وهيهات ان يتم
ذلك ما دام هؤلاء يعتزون بصياصيتهم فى قصر يانة ، ويتحدون من تلك الاعالى
سلطان المسلمين •

كانت قصر يانة ميدان حرب وجلاد منذ عشرات السنين ، وكان الله كتب
للمسلمين ان يفتحوها نهائيا كما فتحوها اول مرة بواسطة التسلل من تفرقة

الحلفاء بالغناء ؛ وقد وضع نحو المائة صوت وله الف ابو الفرج الاصفهاني كتابه الشهير « الاغانى » .
فهذا الانغماس فى الترف والرفاهية وحياة النعيم فى القصور ، بين الجواري وكؤوس النبيذ
وآلات الطرب ، ووضع الاحسان ، كان من اعظم اسباب انهيار الدولة العربية ؛ وقيام الدولة
التركية على انقاضها ، فى كل ربوع الشرق .

الى داخلها ؛ واليك البيان :

قبضت سرية من سرايا المسلمين عددا من الاسرى ، ورأت ضرب اعناقهم ، فقال احدهم وقد تولاه الجبن واستولى على نفسه الصغار : استبقوني وان لاميركم عندي نصيحة تمكنكم من فتح المدينة ؛ فساروا به الى العباس فاستفسره عن جلية الامر ، وكانت النتيجة ان الحائن اخذ الامان لنفسه وآله وذويه مقابل السير مع الجند الاسلامي ليريه طريقا سريريا يمكن منه ولوج المدينة دون انتباه الحراس .

بادر العباس بارسال كتيبة من المقاومة ، تحت امرة عمه ، والعليج الحائن يدلهم على الطريق ، حتى اوصلهم الى قناة يخرج منها ماء المدينة ، فاجتازوا تلك القناة حتى اصبحوا داخل المدينة ، ثم انشؤوا الى الابواب فاعملوا السيوف فى رقاب الحراس ؛ وكانت جموع الجند الاسلامي مستعدة للحملة من الخارج ، ففتحت الابواب ودخلها المسلمون ، وراى المدافعون عن المدينة ان المقاومة اصبحت لا تجدى نفعا فاستسلموا للاسر ، والقوا بالسلاح بين ايدي الغائبين ، وكان ذلك فى منتصف شوال سنة ٢٤٤ (٨٥٨) ؛ وجاء العباس بنفسه الى قصر يانة فاسكن بها المسلمين وأمر ببناء مسجدها ، وحضر افتتاحه وأدى به فريضة الجمعة .

محاولة فتح رومة - راي العباس من توافر القوة بين يديه ، واجتماع الناس عليه أن الفرصة قد سنحت لضرب المسيحية الضربة الحاسمة وانجاز انعمل الذى فشل فيه المسلمون منذ سنة ، الا وهو فتح رومة .

ففى سنة ٢٣٩ ؛ جهز العباس اسطولا ضخما يحمل جندا عتيذا وسيره لانجاز ذلك العمل فنزل الجند الاسلامي عند مصب نهر التيبر ؛ واحتل

وكان الواثق اعلم الخلفاء بالفناء ؛ وقد وضع نحو المائة صوت وله الف ابو الفرج الاصفهاني كتابه الشهير « الاغانى » . فهذا الانغماس فى الترف والرفاهية وحياة التميم فى القصور ، بين الجوارى وكؤوس النبيذ وآلات الطرب ، ووضع اللسان ، كان من اعظم اسباب انهيار الدولة العربية ؛ وقيام الدول التركية على انقاضها ، فى كل ربوع الشرق .

مدينة اوستى واخذ يستعد للهجوم النهائى .

الا ان المسيحية التى شاهدت الخطر منذ سنة ؛ وايقنت ان المسلمين سيعيدون الكرة لا محالة ؛ كانت مستعدة لتلقى الصدمة وكان الاسطول المسيحى قويا عتيذا ؛ فما كاد المسلمون يباشرون هجومهم حتى بدت فى الافق طلائع اسطول العدو وعلمت قيادة المسلمين انها لا تستطيع ان تقهر الاسطول وترده على اعقابها ؛ وانها لا تنجو من كارثة وبيلة الا بالانسحاب السريع ، فالقت امرها الى الجند الاسلامى بالرجوع الى مراكبه واستطاعت بمهارة غريبة النجاة من العدو المحدث بها اذ تسللت من بين مراكبه فلم يستطع ان ينالها بسوء واخفقت الحملة على رومة مرة اخرى .

محاولة فتح كريت - سار الاسطول الاسلامى تحت امرة اخى العباس يؤم سواحل المتوسط الشرقى ، لبسط سلطانه على انقاض سلطان القسطنطينية وليفتك منها سيادة البحر .

حط الاسطول مراسيه حوالى جزيرة اقريطش وناوشها القتال ، فكانت قوية على الدفاع وكانت مستعدة لتلقى الصدمة ؛ فاكتفى الاسطول الاسلامى الصقى بضربات اصاب بها اسطول العدو ، ورجع لصقلية عائدا بغنائم واسلاب .

انهزام الروم فى البحر - كان لانتصار المسلمين بقصر يانة واندفاعهم الجريئى فى غمار البحر المتوسط اثر عظيم فى نفوس الروم ؛ وقد علمت القسطنطينية انها ان لم تقض على هذه الدولة الناشئة فى صقلية فان نفوذها سيتقلص نهائيا عن حوض البحر المتوسط الغربى ؛ لذلك جهز الروم

(١) نوع من السفن النقال يدعى بالفرنسية Chalond وقد استعمل العرب هذه الكلمة وجاءت بلفظها فى كتب التاريخ كابن خلدون وابن الاثير وغيرهما .

اسطولا يجمع ثلاثمائة شلندي (١) يحمل نجمات قوية ، وارسلت به مددا لمدينة سرقوسة ، ليحميها من غارات المسلمين ؛ وليمكن الروم من اعادة الكرة واسترجاع البلاد .

لكن سيادة البحر كانت قد انتقلت نهائيا من ايدى المسيحيين الى ايدى المسلمين ؛ وكان العباس ورجال البحر بالمرصاد ، فصمد الاسطول الاسلامي لاسطول الروم وابدى كل من الفريقين اقصى ما لديه من مهارة المناورة ، وانتهت المعركة بنصر اسلامي مبين ؛ اذ استولى المسلمون على مائة من مراكب الاعداء ، ولاذ الباقيون بالفرار راجعين الى بلاد الروم . ويقول ابن الاثير ومن نقل عنه من المؤرخين ان ذلك النصر العظيم لم يكلف المسلمين من الخسارة الا ثلاثة رجال فقط اصيبوا بالنشاب ؛ على اننى لاحظ ان فى هذا الخبر مبالغة لا تخفى على بصير ، اذ لا يعقل ان معركة بحرية تسفر عن اسر مائة سفينة وانهزام مائتين اخرين لا يخسر المنتصرون فيها الا ثلاثة من الشهداء .

بعد هذا النصر العظيم عزم العباس فتح سرقوسة وتحطيم آخر امل للروم فى البلاد ، فسار اليها على رأس الجند الاسلامي ؛ لكن المرض اعتراه وهو على مقربة من المدينة ؛ فاسلم روحه لبارئها فى ذى الحجة من سنة ٢٤٧ (٨٦١ م) (١) وانطوت بموته صفحة من اجمل وازهر صفحات الجهاد فى سبيل اتوسع والنور والمدنية ؛ ودفن بموقع استشهاده ، فنبش الجروم قبره واخرجوا جثته واحرقوها تشفيا وانتقاما .

عبد الله بن العباس بن الفضل

اجمع المسلمون امرهم يومئذ على تولية ابنه عبد الله ، كما اجمعوا من

(١) فى هذه السنة قتل فى بغداد المتوكل على الله ؛ قتله قائد الترك (بغا) مع وزيره الفتح ابن خاقان (غير صاحب كتاب فلائذ العقيان) ؛ وقد اصبح الترك يومئذ اصحاب القول المطلق فى بغداد . وتولى بعده المنتصر بالله ؛ فكان كما قيل فيه :

خليفة فى قصص بين يعى و (بغا)
يقول ما قالوا له كما تقول البيغاء

قبل امرهم على تولية العباس مكان ابيه ؛ فاستلم عبد الله زمام الحكم من يد الامة وقد كان فى حياة ابيه العظيم معاوناً له فى حروبه واداراته . واخذ يستعد لاختضاع سرقوسة وينازل قلاع الاعداء .

على ان الوفد الذى سار الى القيروان يطلب من اميرها المصادقة على تولية عبد الله الامارة مكان ابيه لم يلق بها النجاح الذى من قبل وفد الصقليين عندما طلب المصادقة على تسمية العباس بن الفضل

ذلك ان بلاط القيروان ادرك مقصد الصقليين ، وعلم انهم ارادوا هنالك الاستقلال بامرهم تحت اماراة عائلة ابن الفضل ، يتوارثونها خلفاً عن سلف وبذلك تنقلص سلطة القيروان شيئاً فشيئاً ؛ فامتنع عن المصادقة ، واصدر امره لعبد الله بترك السولاية ، بعد ان شغل مركزها السامى خمسة اشهر ، سائراً فيها سيرة ابيه وجده ، موالياً للجهاد ، ساهراً على امور الرعية فصدع بالامر عن غير مضض ، واصبح اكبر انصار الوالى الجديد .

خفاجة بن سفيان

قدم الى صقلية فى جمادى الاولى من سنة ٢٤٨ (٨٦٢ م) ، وكان شهماً على الهمة طويل الباع فى السياسة وفى الحرب ؛ واتخذ لنفسه من ابنه محمد ، والولد نسخة من ابيه ، عضداً متيناً يخضد به شوكة الاعداء ويدير بواسطته سياسة الملك .

ابتدأ اعماله الحربية فى الناحية التى بقيت بيد المسيحيين فى شرق الجزيرة ؛ باحتلال مدينة نوطس (نوتو) مضيقاً بذلك الحصار على مدينة سرقوسة التى كانت رافعة علم المقاومة بتلك الديار ، وكانت آمال الروم وآمال سائر المسيحيين فى استرجاع الجزيرة الصقلية معلقة عليها .

المرأة فى السياسة - لم تقم المرأة المسلمة بدور مباشر كبير فى السياسة العامة ، وكانت قصارى جهودها من تلك الناحية هى بسط السلطان على قصور الامراء والوزراء والقواد ، والاستحواذ بتلك الصفة على النفوذ

المطلق وتوجيه السياسة العامة حسب ما يترأى لها من مصلحة خاصة او نفع عام ؛ على ان التاريخ ضنين بسر هاتيك الحوادث الا ما ذاع واشتهر منها .
تكن من نوادر المسلمين فى جزيرة صقلية ان امرأة مسلمة شاركت بصفة فعلية فى عمل سياسى كبير ، وارسلت فى سفارة ومهمة شاقة .

كان اهل طرميس يوالون القتال ضد المسلمين ، وكانت معاقلمهم من امنع المعازل واشدها مراسا . ولقد حاول المسلمون مرارا أن يدكوا اسس هاتيك الصياصى فما استطاعوا لذلك سبيلا . واخيرا اظهر المسيحيون هنالك جنوحا للمسالمة والتسليم ، وارسلوا الى خفاجة يطلبون اليه ارسال وفد يفوضهم ويضع معهم شروط الاستسلام فارسل اليهم امراته واحد ابناؤه . ولا ريب ان امرأة مثل هذه المرأة تسير بمثل هذه المهمة فتخترق صياصى الاعداء ومعاقلمهم وتفاوضهم فى عقر دارهم تطلب اليهم الازعان والاستسلام لهى من مفاخر الجنس اللطيف وهى من كرائم السيدات المسلمات اللاتى يجب ان يحفظ التاريخ ذكرهن العاطر الحسن . وهى مع ذلك عنوان ازدهار المدنية ، وبلوغها اوج القمة ، ودلائل قاطع على ما احرزته السيدة المسلمة من قيمة عليا فى المجتمع الزاهر تحت الراية الاغلبية بافريقيا او بصقلية .

نجحت السفارة نجاحا كبيرا . وكان القوم قد تأثروا بذلك المعنى البديع اللطيف الذى احتوى عليه ارسال سيدة جبلت على الخير والاحسان والعطف ، فلبوا دعوتها واذعنوا لامرها ، وسلموا مفاتيح المدينة لها فدخلها المسلمون صلحا .

لكن قضى الله ان تهلك المدينة على يد اشرارها . فنقضوا العهد بعد ميثاقه وثاروا بالمسلمين على حين غفلة فاخرجوهم غدرا واوصدوا دونهم الابواب ونكلوا بمن بقى منهم داخل الجدران ثم اعتصموا بالقلاع .

راى خفاجة يومئذ ان السكوت على مثل هذه الحديعة يعد ضعفا وهوانا . وانه ان ترك الامر بدون انتقام فهو يوشك ان يتخذ القوم نموذجا للانتقاض فى كل مكان ، فارسل ابنه المجاهد محمد ، على راس كتيبة من المسلمين

شديدة المراس ، فاحتل المدينة قسرا وسبى اهلها ؛ والفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة .

مقاومة سرقوسة - كانت سرقوسة كما اسلفنا قوية منيعة ؛ وكانت محط آمال المسيحية بتلك الديار ؛ وكانت انقسطنطينية توالى انجادهما بالمدد رغم ما اصابها فى ذلك الطريق من نكبات بحرية ؛ فاتجهت همه الامير خفاجة لقهر سرقوسة واخماد جذوة المقاومة فيها فرماها بفلذة كبده محمد ؛ على رأس جند قوى ، واشتعلت بين الفريقين نار حرب عنيفة استبسل فيها المدافعون استبسالاً سجل لهم صفحة من العزة والمجد .

وكانت الوقائع تترى عنيفة دامية ، منها وقعة الالف فارس الشهيرة سنة ٢٥١ (٨٦٥ م) وتفصيلها ان الامير محمدا هاجم المدينة بعنف ، ثم اظهر الارتداد خدعة حربية ، وشراكا نصبه للمدافعين عنها فوقعوا فيه ، وخرجوا من معاقلمهم يتتبعون الجند الاسلامى الذى اظهر الانهزام ؛ وكان الكمين الاسلامى يكتنف الطرق ، فباشارة من القيادة انقض المسلمون من مكائهم على الاعداء المتتبعين فاطبقوا عليهم واسفرت المعركة عن قتل الف فارس من الروم .

وفى سنة ٢٥٤ (٨٦٨ م) ، سار محمد بقوته بحرا لمنازلة سرقوسة . كما كانت قوته البرية تضيق عليها الحناق ، فالتقى فى مياه المدينة بعمارة كبيرة ارسل بها امبراطور الروم نجدة للمحصورين ، وكان الاسطول الاسلامى الصقلى قد تعود قهر اسطول الروم حيثما ثقفه ، فاختلطت صوارى المسلمين بصوارى النصرارى والتحمت نيران المعركة البحرية ، فاسفرت عن انهزام الروم ، وتركهم لاغلب سلاحهم ومتاعهم بايذى المسلمين ، وفرت المراكب السليمة راجعة على اعقابها خاسرة .

وهكذا فت فى عضد الدفاع السرقوسى بحرا كما فت فى عضده برا ؛ واصبحت المدينة لا تستطيع الثبات فى الميدان طويلا . لكنها صممت بصفة بطولية على الدفاع الى آخر رمق ، ولم يكتب الله فتحها على يد خفاجة وابنه محمد .

حادثة طبرمين - كانت هذه المدينة من جملة قلاع النصارى التى صعب على المسلمين فتحها بالقوة ، فكانت المناوشات تتوالى حولها ، وكان دفاعها دفاع المستعيت .

جاء الامير محمد ، وصمم على فتحها ، فاصطنع رجلا من اهلها اعماه حب المال والجاه عن حب الوطن والتضحية فى سبيله ، فخان امته واصبح دليلا للمسلمين ، يسير بهم فى معابر سرية اوصلتهم الى داخل المدينة والتحمت نيران المعركة هنالك .

راى المسلمون ان الامير محمدا لم يدخل المدينة ولم يكن الى جانبهم فاعتقدوا انه قد حيل بينه وبين الدخول وانهم اصبحوا مهددين بالحصر فانهزموا ورجعوا من حيث اتوا ، وكانت الفرقة التى يعودها الامير محمد بنفسه قادمة حينئذ لتجدة الذين دخلوا ، فلما راتهم خارجين اعتقدت انهم غلبوا على امرهم فتوقفت عن السير . واثناء ذلك الارتباك ، وقبل ان يعلم الفريقان المسلمان ان فى الامر غلطة يسيرة ، كان اهل المدينة قد تخلصوا من المسلمين فاوصلوا ابوابهم واعتصموا بأسوارهم ، وخابت المحاولة بعد نجاح .

فتح مالطة - كانت جزيرة مالطة معقلا من معاقل الروم فى البحر المتوسط استولوا عليه سنة ٥٣٣ ، واصبحت حلقة وصل بين ممتلكاتهم فى الشرق ومطامعهم فى الغرب .

والجزيرة تـمسـح ٢٥٠ كيلومترا مربعا ، جيدة الهواء خصبة الارض طيبة المناخ واهلها من اصل سامى كنعانى لا ريب فيه ؛ لغتهم منذ القدم عربية محرفة وقد طبعهم الاحتلال القرطاجنى الطويل بطابع خاص دام معهم الى يومنا هذا .

(١) فى هذه السنة تولى الامير احمد بن طولون امر مصر ، وطولون كان مملوكا تركستانيا اسر ضمن معركة ، فاعجب به الخليفة المأمون ، وجعله من خاصته ورئيس حرسه ، وعندما ولى احمد امر مصر وكان اعلم الناس بضعف دولة بنى العباس ؛ ورأى حالة مصر من جراء اضطراب الولاة وهوجهم ؛ اعلن استقلاله فى البلاد ومنع الحراج عن بنى العباس ؛ واستمرت دولته ٣٥ سنة الى ان اعاد العباسيون فتح مصر من جديد ؛ ومن مآثره مسجد ابن طولون العظيم .

فالامير خفاجة رأى انه لا يتمكن من ابعاد الروم نهائيا عن صقلية وقطع
آمالهم منها وقهر سرقوسة الا باخضاع مالطة لسلطانها ، ومالك مالطة منذ
قديم الازمان مهيمن على البحر المتوسط باسره .

سار الامير محمد على راس اسطول عتيد وجند عتيد ، فنزل مالطة ٢٥٦
(٨٦٩ م) (١) ، واتم استيلاءه عليها تلك السنة ، بعد ان دحر مقاومة
الاسطول الرومى ومقاومة الحامية اثرومية ، ووجد المسلمون الافارقة والصقليون
انفسهم هنالك بين قوم كادوا يكونون من اهلهم وذويهم ؛ واستمر سلطان
المسلمين هنالك تابعا لامارة صقلية ، مائتين وعشرين عاما (٨٧٠ - ١٠٩٠)
الى ان استخلصها منهم غزات النرمان عندما دحروا آخر مقاومة اسلامية فى
جزيرة صقلية .

وفى السنة الموالية ، اى سنة ٢٥٧ ارسل الامبراطور الرومى اسطولا
ضخما يحاول به استرجاع مالطة ، وقد ادرك مدى الكارثة التى اصاب
الروم بفقدما ، فجاء الاسطول الرومى يتباهى بقوته ومنعته ونصب حول
الجزيرة حصارا ، واخذ يستعد لانزال جند يرفع فوقها اديمها علم
القسطنطينية .

حينئذ جمع الاسطول الاسلامى الصقلى رجاله وسفنه وسار نجدة الى
جزيرة مالطة ؛ ولقد علم الروم من قبل انهم مالمقوا اسطولا لمسلمى صقلية
الا وارتدوا امامه خاسرين ، وقد القى ذلك الاسطول الاسلامى الرعب فى
قلوبهم واصبح منظره يكفى لهزم اعدائه قبل استعمال ناره واسلحته ؛
وهكذا كان . فانه لم يكد اسطول الروم يرى مراكب المسلمين قادمة نحوه ،
حتى نشر شراعاته واعمل مجاذيقه ، ولاذ بالفرار نحو الشرق . وصفا حكم
مالطة لامراء المسلمين .

محمد بن خفاجة

اثناء هذه المعارك وهذا الفوز المبين كان الامير خفاجة يسير مع جنده

واتباعه فى طريق سرقوسة فاغتاله غدرا احد الجند . ولا ندرى ان كان ذلك نتيجة مؤامرة او عمل انتقام ، او دسياسة من الاعداء ، فقضى نجه رحمه لله بعد ولاية دامت سبعة اعوام كلها عمل وجهاد فى سبيل الاسلام والمعرفة والمدنية .

اتفق المسلمون يومئذ واجمعوا امرهم على تولية ابنه الامير محمد مكانه ولقد كان القائم بأعباء الجهاد الى جانب ابيه . وسار وفد الى القيروان يطلب الى الملك الاغلبى محمد بن احمد المصادقة على تلك الولاية فلبى الطلب واصدر امره باسناد امارة صقلية الى محمد بن خفاجة لانجاز ما كان قائما به من جلائل الاعمال .

وقد اولاه المسلمون امرهم فى رجب سنة ٢٥٥ ووردت اليه الخلة والعهد من القيروان يوم السبت لست بقين من رمضان من تلك السنة (٨٦٨) . وقد كان الامير رحمه الله يوالى استعداداه ويجهز المسلمين للقضاء على ما بقى من صقلية بايدى الروم وخاصة مدينة سرقوسة التى كانت مطمح انظاره .

لكن مقتل الامير خفاجة كان قد احدث صدعا عظيما فى صفوف المسلمين، ونشأت عنه ارتباكات عظيمة جعلت جهود الامير متوجهة لاقرار السلم وتمهيد الراحة بدل التوجه بكلية لانجاز الفتح . وما كادت تنقضى سنتان على ولايته حتى اغتاله نهارا ثلاثة من خدمه فى رجب سنة ٢٥٧ . ولقد انفتحت بمقتل الشهيدين خفاجة وابنه محمد ابواب فتنة عمياء اصبحت فى الجزيرة داء عياء كان اكبر اسباب انهيارها .

احمد بن عمر يحيى

وهو من رجال العائيلة الاغلبية . اولاه الامير ابراهيم بن احمد بن الاغلب امر صقلية ، فكان اول همه اقرار الامن وارجاع الطمانينة الى النفوس وازالة ما احدثه مقتل الاميرين وابيه خفاجة من جزع ومن ارتباك ، ومن

تشتتت شمل .

لا ريب ان الامير احمد قد لقي نجاحا كبيرا فى مهمته تلك فلم يسجل التاريخ فى ايامه ارتباكاً او اضطراباً ؛ وعاد الى سياسة الغزو والفتح ، جامعا بذلك كلمة المسلمين حول راية الله .

ذهب فى صائفة تلك السنة غازيا نحو سرقوسة فائخن فى الروم ، انما لم يستطع فتح المدينة ، ولا نصب الحصار بصفة ضيقة حولها فاكفى بما غنمه من اطرافها ورجع الى قصر حكمه فى بالرمة .

ثم خرج بنفسه فى غزوة على رأس المسلمين ، فلقى جندا من فرسان العدو عند مكان يدعوه ابن الخطيب « قلعة نصر » وكان اولئك انفرسان قد انقضوا فى بعض الجهات على المسلمين وغنموا منهم مغانم كثيرة ؛ فالتحم احمد ومن معه فى القتال مع الجند المسيحي ، فنكل به تنكيلا ، وانتزع من بين ايديه جميع ما غنمه من المسلمين ورجع الى بالرمة بالاسلاب والغنائم والاسرى ورؤوس القتلى لتعرض على الملا .

ثم جاءه من القيروان ، امر ابراهيم بن احمد بن الاغلب بعزله عن الامارة فاعتزلها ؛ وكان بذلك ابتداء عهد اضطراب جديد لم يكن مصدره صقلية نفسها بل كان مصدره عاصمة دولة القيروان ؛ اذ كان البلاط الاغلبى يقاسى يومئذ ازمة عنيفة ، وقد تولى عرش الملك ابراهيم الآنف الذكر ، وهو جبار عنيد طاغية شديد كان مصابا بنوع من الهستيريا الدموية ، يعيش تحت رحمة ماليخوليا مستمرة ؛ وسيأتيك فيما يل شىء من اعماله الغريبة ، فلا غرو ان تسربت الى المملكة قاصيها ودانيها عوامل الشقاق والافتراق ، واخذ الصيادون فى المياه العكرة يعملون اعمالهم وينصبون حبالهم ، واصبحت امارة صقلية خلال تلك الايام النحسة كرة تتلقفها الايدى وتتلاعب بها الغايات .

جعفر بن محمد بن بوبر

ارسله ابراهيم بن الاغلب واليا مكان احمد بن عمر ؛ واستقر به المقام

فى بالرمة ، واخذ يعيد النظام نبلاد تسربت اليها القوضى واخذت تعمل بها عوامل الانحلال ، من جراء الانقسامات ، واحياء الخلافات العنصرية والقبلية . فى هاتيك الاثناء ، كان الارتباك كما اسلفنا سائدا فى بلاد القيروان ، وكان ابراهيم الطاغية يقاسى ازمة عنيفة فى داخل نفسه وفى بلاطه وبين آله وذويه ، وكأنه قد آنس من عائلته ميلا للتخلص منه ، فلقى القبض على عمه الاغلب بن محمد واخيه الاغلب ابن احمد وابن اخيه احمد بن ابي عبد الله ؛ ووجههم الى صقلية مبعدين فحبسوا فى دار الامارة عند جعفر بن محمد . ولقد كان احمد بن ابي عبد الله اكثر الاغالبية المحبوسين مكرا ودهاء ، واقدمهم على الاندفاع فى طريق المغامرة ، فصانع هو ومن معه من رجال العائلة غلمانا للامير جعفر ، واطمعوهم بالمال والجاه ان هم قتلوه ، فترصدوا له حتى اذا كان خارجا للصلاة وثبوا عليه واسقطوه تحت ضرباتهم الفتاكة ؛ واستولى احمد بن ابي عبد الله على كرسى الحكم ، مصطنعا للرجال ، متغلبا على الامر .

احمد بن ابي عبد الله الاغلبى

ويلقب فى عائلته باسم « خرج الرعونة » ولقد كان مقداما ، وسجل اسمه على صفحات التاريخ الصقلى ، رغم سفالة الوسيلة التى توصل بها الى الحكم ، وكانت له فى الجهاد وانجاز اعمال باهرة . فتح سرقوسة - اتم تجهيز الجند الاسلامى ؛ وسار على رأسه نحو مدينة سرقوسة ، وقد عقد العزم على افتكاكها كلفه ذلك ما كلفه ، وكانت سرقوسة بعد ان قاومت جيوش المسلمين نصف قرن ونيف ، قد ضعفت تحت الضربات الفتاكة التى كملت لها من لدن الامراء السالفين ، وعلى الاخص الامير خفاجة وابنه محمد ، وكان الروم قد وضعوا شرفهم العسكرى بين جدران تلك المدينة ، فكانوا يوالون ارسال النجيدات والمدد . وما باءوا بانكسار وانهزم لهم اسطول الا واعادوا انكرة وارسلوا اسطولا آخر مما يعيد

الى اذهاننا جهود قرطاجنة الجبارة التى ضاعت سدى فى تلك الجزيرة .

سار أحمد بن الاغلب بقوته العتيدة فخيم حول المدينة وحاصرها وضيق عليها الحناق . وعلم اهلها ان الساعة الاخيرة قد دنت ، فقاموا للدفاع البائس المستميت يتفانون فى الذود عن مدينة كانت فى انظارهم تمثل الوطن ، وتمثل الدين ، وتمثل الذكريات القديمة من عهد ارخميدس وما قبله ؛ وبالله ! ما اروع البطولة وما اجمل ذكرها ايا كان مصدرها وأنى كان القائمون بها !

استمر الحصار تسعة اشهر من اوائل المحرم الحرام الى اواخر رمضان سنة ٢٦٤ (٨٧٧) (١) ، ثم دهمها بخيله ورجله ورفع المسلمون عقيرتهم بندايم الحربى الذى يسمو بهم الى عالم الارواح فى الملاء الأعلى : الله أكبر : والتحمت نيران معركة ربما كانت اكبر معارك صقلية وأكثرها هولاً : فما انتهت الا بعد ان دكت الأسوار ، وسقطت القلاع ، وجندل من الابطال المدافعين ما يزيد عن الأربعة آلاف كमित ، وركب الباقون انبحر مغافرين فسراراً من الاسر والذل ، ودخل المسلمون المدينة مهللين مكبرين ؛ قال ابن الخطيب فى اعمال الاعلام : « وأصاب فيها من الغنائم ما لا يوجد فى مدينة من مدن الشرك » .

بهذا النصر الباهر ، لم يبق للمسيحيين بصقلية الا الناحية الشرقية ، فى شريط من الارض يمتد من شمال طبرمين الى جنوب قطانية يحتمون فيه وراء جبال الاتنا (جبل النار) ويستمدون فيه الاعانة مما يرد عليهم بحراً من بلاد الروم .

(١) فى هذه السنة ، استقر الاتراك فى بلاد الصين ، وتدخلوا فى شؤونها وتوطد سلطانهم فى كثير من الجهات التى هى الى يومنا موطن المسلمين الصينيين وذلك أن مغامراً صينياً (هوان تشاو) أعلن الثورة ، وتمكن من اغلب البلاد ، من بكين الى كanton ، فاستعان امبراطور الصين ، بغان الترك اليسع بنغ فانجده بقوة كبيرة ، مهدت أمر البلاد ، ودحرت الثائر ؛ واستلم الحان التركى ، مكافأة له على اعانته للامبراطور ، مقاطعة شانسى . واخذ ابن عمه ، مقاطعة لوتان ونشأت هنالك امارات تركية ، طبعت البلاد بطابعها الى يومنا هذا ؛ حيث المسلمون يمثلون الغلبة سكان البلاد ، ومنهم بقايا الترك ، ومن اسلم تبعاً لهم من الصينيين .

وكانت هنالك مراكز للمقاومة المسيحية بالشمال الغربي من الجزيرة حول مدينتي طرابنة ومرسلا . وقد اهل المسلمون شأنها ، ولم يعيروها كبير اهمية ، وجهين اكثر عنايتهم للناحية الشرقية . فلما فتحو سرقوسة وجهوا انظارهم نحو الناحية الغربية كما سيمر بك فيما بعد .

اقام احمد بن الاغلب بسر قوسة شهرين ، ثم كتب اليه عمه الاغلب يشير عليه بتهديمها ، كما امر حسان بن انعمان من قبل بتهديم ما بقى من قرطاجنة ، حتى ينقطع آخر امل للروم بتلك الديار ولا يجدوا موقعا ياورهم ان حاولوا النزول للبر ؛ ثم رجع لبارمة لكن مقامه لم يطل هنالك اكثر من شهرين ، وما اغنى عنه انتصاره بسر قوسة شيئا ، فان اهل بالرمة اعنى كبار انقوم واصحاب الحل والعقد بها راوا من اختلال الادارة على يد احمد وعمه الاغلب ومن معهما ما جعلهم يقبضون عليهما ، ويرسلون بهما مصفدين الى القيروان ، وماذا كان ينتظرهما هنالك على يد النمر المتعطش للدماء ابراهيم بن الاغلب ، غير السيف والنطع ؟

اضطراب الامر

اضطراب امر الولاية بصقلية اثر هذه الحوادث اضطرابا غريبا ، فكان ابراهيم بن الاغلب يولى ويعزل حسب اهوائه وشهواته ، او حسبما تمليه عليه مصلحة الدولة ، وكان اهل صقلية منذ مقتل خفاجة ، قد انقوا نوعا من القوضى ، واصبحوا يريدون التحكم فى الولاية ويريدون ان يسير اولئك الولاية حسب اهوائهم واغراضهم ؛ وكان الولاية لا يستطيعون فى الغالب التوفيق بين رغائب اهل صقلية ورغائب بلاط القيروان وتنفيذ آرائهم الخاصة ، فانبعض منهم كان يشور به الصقليون فيرجعونه الى القيروان ؛ والبعض الآخر كان يعزله ابراهيم ويرسل غيره مكانه ؛ والحق ان بنيان الدولة الاغلبية كان قريبا من الانهيار ، وكانت سياسة ابراهيم الثانى قد اصاب الدولة فى مقاتلتها ، فاستمر امرها يسير الى الضعف والانحلال حتى الموت رغم ما كان يبدو عليها بين حين وآخر

من وثبات فى سبيل الحياة هى اشبه شئ برجفة المحتضر .

الحسن بن رباح

من اجدر هؤلاء الولاة بالذكر ، الحسين بن رباح ، فانه تمكن من جمع الجند وتوحيد الكلمة الى حين ، ونازل مدينة طبرمين ، رائما بذلك القضاء على الناحية الشرقية الرومية ، فائخن فى اهل المدينة وقتل البطريق الرومى الذى كان يحكمها ويقود حاميتها .

نكبة بحرية - ولقد سرى داء الانحلال فى الجسم الاسلامى بصقلية ، فضعفت النفوس ، وكادت تخبو جمرة الايمان ، وفقد رجال البحر قوتهم الروحية التى كانت اساس انتصارهم ومبعث الرعب فى قلوب اعدائهم ؛ وكانت نتيجة ذلك ان منى الاسطول الاسلامى بصقلية بنكبة كانت وحيدة فى بابها .

ذلك ان الحسين بن رباح سير اسطوله غازيا سنة ٢٦٦ ، فلقى اسطولا للروم مؤلفا من ١٤٠ سفينة ، والتحم القتال شديدا بين الطائفتين ، فتغلب هذه المرة اسطول الروم ؛ وترك المسلمون سفنهم ومتاعهم غنيمة للعدو ، ورجعوا عن طريق البر منهزمين الى صقلية .

الحسين بن العباس

جاء واليا سنة ٢٦٧ ؛ ورجع للقيروان معزولا سنة ٢٦٨ ؛ اراد التضييق على الروم المحصورين فى قطانية وطبرمين ؛ وتم ينجح فى ذلك كثيرا ، اذ ان الروم اغتنموا فرصة الانحلال الذى ظهرت آثاره جلية فى الادارة الاسلامية فاصيحوا يخرجون من بين جدران قلاعهم سرايا تضييق على المسلمين كثيرا ؛ وتغنم منهم المتاع والاسلاب والاسرى .

لكن همة الحسين بن العباس كانت متوجهة الى تمهيد الامن واصلاح الحالة العامة ، وقد نجح فى ذلك خلال السنة التى بقى فيها على رأس الادارة

الاسلامية نجاحا كبيرا .

ابو الحسن محمد بن الفضل

ولى الامر سنة ٢٦٨ ، وكان الامن قد استتب والراحة قد تمهدت بفضل جهود الحسين ابن العباس ؛ فاخذ الوالى الجديد يستعد لدحر قوى الروم التى كانت تعيش فى الارض فسادا عندما آنست من المسلمين ضعفا وافتراق كلمة . اتجه على رأس القوة الاسلامية ، يريد جموع الروم فى معقلهم الجديد (قلعة الملك) وكان ذلك المعقل هو الذى يقض مضاجع المسلمين ، ويشخن فيهم حيناً بعد حين ، فالتقى الجمعان على مقربة من المعقل ، وكانت طمانينة الايمان قد رجعت الى نفوس المؤمنين ، فثبتوا امام الاعداء واشتد مراسهم الى ان انتهت المعركة بنصر عظيم ، وخسر الروم ما يزيد عن الثلاثة آلاف من القتلى انتشرت اجداثهم فوق ميدان القتال ثم سار المسلمون نحو (قلعة الملك) فاحتلوها وثبتوا بها الاقدام ، وتركوا بها حامية قوية ، ثم رجعوا لبالرمة تخفق على رؤوسهم اعلام النصر .

ثم فى سنة ٢٦٩ سار على رأس الجند الاسلامى يريد تحطيم مراكز الروم فى الناحية الشرقية ، فالتقى بجند العدو وناوشه القتال ، واخترق فى بعض الاوقات صفوفه حتى وصل تحت جدران قطانية ؛ لكن المدينة استعصت عليه ، وكذلك كان امر رمطة فلم ينل منهما منزلاً ، واكتفى بما استحوذ عليه من غنائم واسلاب ، ورجع لبالرمة فى ذى الحجة من تلك السنة . وقضى بقية ايامه ساهراً على امور البلاد مدبراً سياسة الملك ، ممعناً فى اعمال العمران والرقى المادى الى ان عزل عن الولاية سنة ٢٧١ فى ربيع الاول . وكان عزله نكبة على صقلية .

سواده بن محمد بن خفاجة

هو حفيد خفاجة بن سفيان والى صقلية الطيب الذكر ، وقد ارسل به

ابراهيم ابن الاغلب واليا فى منتصف شوال سنة ٢٧١ بعد ما عزل عنها على بن ابي الفوارس الذى لم تطل ايامه اكثر من ستة اشهر ، لم يذكر التاريخ عنها خيرا ولا شرا .

عودة الروم - اهم حدث سجله التاريخ فى هذه الايام ، هو عودة الروم بقوة للميدان ، والتحام المعركة الحامية بينهم وبين المسلمين ، كان الروم قد رأوا من اختلال الادارة فى بعض الاحيان ومن تفرق كلمة المسلمين الناشئين عن اضطراب فى سياسة البلاط الاغلبى نحو صقلية وتوارد الولاة وعزلهم حسب الاهواء والمصانع والاغراض ، راوا فى ذلك ما جعلهم يعتقدون ان الفرصة قد سنحت لاعادة الكرة واستخلاص الجزيرة من يد المسلمين .

ابتدأت هذه الحملة الرومية الجديدة ، بعقد هدنة مع المسلمين كانت فيما اعتقد خدعة حربية ماهرة ؛ وكان المسلمون قد ارتكبوا غلطة فادحة بقبولها ؛ وقد غرهم ان الروم اطلقوا سراح ثلاثمائة اسير من المسلمين فى سبيل ذلك الصلح المؤقت ؛ وما كان ذلك الا استعدادا منهم لامر عظيم ؛ فما كانت تنتهى الثلاثة اشهر ، حتى كانوا قد رتبوا امرهم بعد اختلال ، وحصنوا مراكزهم بعد ضعف ، وجاءهم المدد العظيم من القسطنطينية تحت امره البطريق مجفور (Nicefors) فانزل جنده البر ، دون ان يلقى اعتراضا من اسطول المسلمين ؛ وتقدم فى جموع وفيرة العدد كاملة العدة ، فاستخلص من المسلمين مدينة سبرينة Santa Severina ومدينة منتية Amantea واشتد الخوف يومئذ على صقلية ، اذ كانت بنفسها وبمجرد قواها لا تستطيع ان تصمد لزحف الروم اذا ما توالى نجاتهم وباشروا اعمالهم بتلك الصفة . رأى اهل صقلية ان سودة بن محمد تيس بالرجل الذى يصلح لادارة الملك والحرب فى مثل هاتيك الاوقات العصيبة ، فاعلنوا خلع طاعته وارسلوا به صحبة اخيه واهله الى القيروان سنة ٢٧٣ .

والذى تجب ملاحظته هنا هو ان اهل صقلية كانوا اذا راوا خلع امير انقيادا لمصلحة عامة او اندفاعا مع غرض ، قبضوا عليه وارجعوه صحبة اهله

الى القيروان ليصنع به الملك ما شاء وليحاسبه على اعماله ؛ فكانت هذه الطريقة تدل على مبلغ ما كان لهم من مهارة وحسن تدبير ، رغم القلاقل ورغم الاضطراب ، وما سفك دم احد الولاة الا نادرا وعلى يد اوغاد من اندهما .

ابو مالك احمد بن عمر حبشى

هو من احفاد ابراهيم ابن الاغلب الكبير ، مؤسس العائلة ؛ وكان عمدة فى البلاط الاغلبى ؛ ارسل به الملك ابراهيم الثانى عاملا على صقلية ، كانه قد اعتمد على جاهه وفضله ومكانته ، ليرجع الى النفوس ثقتها ، وليثبت لاهل صقلية مدى اهتمام القيروان بها ، فكانت هذه الولاية اشبه بسفارة منها بامارة .

ونقد نجحت المهمة نجاحا كبيرا ، فهذأت الثائرة واطمأنت الافكار ؛ وعاد الامن الى نصابه وانتظر الناس الفرج القريب ، فى صورة مدد جسيم يفد من القيروان ويعين المسلمين على قهر شوكة الروم الذين كانوا يستعدون لامر عظيم .

وكان اهل صقلية قد طلبوا الى الملك ابراهيم ان يولى عليهم ابنه ابا العباس عبد الله لما يعرفون من مهارته فى السياسة وفى الحرب ، وكما املوا على يديه من انقاذ الجزيرة تجاه الخطر الرومى ، وقد اعتقدوا ان الوائد لا يعزل ولده فى مدة وجيزة ، ولا يبخل عليه بنجدة او مدد ، فستقر بذلك امور الادارة ويستقيم بذلك امر الجهاد ، وهكذا كان .

ابو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

ممثل الدولة ونائب الملك

ولقد كانت امارة ابي العباس عبد الله امارة عامة تشرف على امور البلاد ، وتراقب سير الولاة ؛ لاننا ان تصفحنا كل كتب التاريخ التى اوردت لنا

الاحاديث عن صقلية ، وخاصة ابن الحطيب فى اعمال الاعلام ، وابن الاثير ، وغيرهما رأينا ان اتولاية كانت اثناء تلك المدة مداولة بين ابى العباس محمد بن الفضل وقد كان عزل سنة (٢٧١) (١) والحسن بن احمد بن نافذ ، فكان الامير ابو العباس عبد الله يمثل يومئذ ما يمكن ان نسميه باصطلاح اليوم : نائب الملك او المندوب السامى . فالاعمال التى ستراها مبينة اثناء ولاية هذين انعاملين كانت تقع مباشرة تحت اشراف الامير ابى العباس عبد الله .

الانتصار البحرى - ابتداء هذا العصر الجديد يظهر آثاره ، وقد كانت الحاجة ماسة لاطهار القوة امام الروم والقيام بعمل يوقف تيار هجومهم المخيف ، من جهة ؛ وامام المتزعمين ودعاة الشعب من جهة اخرى . فاول شىء اتجهت اليه همة نائب الملك هو اعادة النظر فى امر الاسطول وتجهيزه من جديد بصفة تجعله قادرا على مقاومة العدو وكسر شوكرته ؛ فبذل فى سبيل ذلك همة عانية ، وظهر مراسا شديدا فبدت النتائج الحسنة بعد حين .

ذلك أن الروم ارادوا أن يستثمروا فوزهم السالف فارسلوا نجدة ذات قوة وباس شديد ؛ وكانوا يريدون بها القضاء نهائيا على ملك المسلمين بصقلية . لكن المسلمين كانوا هذه المرة على غير ما كانوا عليه فى المرة السالفة ؛ كانوا مستعدين يقظين منتبهين ؛ فما كادت بوادر الاسطول الرومى تظهر ، وما كادت عملية انزال الجند الى البر تبتلى حتى التحمت فوق اديم الارض وفوق عباب انبحر معركة هائلة عنيفة ، لم يكن الروم ينتظرونها ؛ وكانت تلك المعركة بالنسبة للمسلمين معركة فاصلة بين طريقى الموت والحياة ،

(١) من اغرب ما وقع لبنى العباس اثناء ضعفهم واتحللهم ان الزنوج العبيد هاجموا مدينة البصرة واحتلوها ، ثم تدفقوا على اعمالها ، فامعنوا فى المرق والنهب والسلب وانتهاك الحرمات وسفك الدماء ؛ وقاتلهم العباسيون والحند التركى مدة الى ان تمكنوا من القضاء عليهم فى هذه السنة (٢٧٠) وقتل رئيسهم يهودا ؛ وقد كان يدعى انه نبي مرسل ، وكان له منبر يصعد عليه ويمعن فى سب عثمان وعلى ومعاوية وطلحة والزبير ؛ فلما قتل وانتهى امر الزنوج ، زينوا بعداد وطاقوا برأس يهودا على رمح . وسبب هذه الفتنة هو بؤس العبيد الزنوج وكثرة عددهم فى المزارع وحرمانهم ، فدعاهم للانتفاض من يخفى المطامع السياسية تحت ستار الدين .

وكانوا يعلمون علم اليقين ان خسروها فسلام على صقلية ، وسلام على ملك وعمران وحضارة زاھية بها .

دامت المعركة أياما ، وثبت المسلمون ثباتا مكنهم آخر الامر من الغلبة والفوز ، وكانت كارثة الروم هائلة فظيعة ، اذ تركوا على اديم الارض ما يزيد عن السبعة آلاف قتيل ؛ وعندما رأوا مدى الكارثة ، ولاذوا بالفرار الى ما بقى باسطا جناحي شراعاته من مراكبهم ، غرق منهم اثناء تلك العملية نحو الخمسة آلاف ؛ فرجعت بقايا الاسطول من حيث اتت ، واضطر الباقون من الروم والمسيحيين لاخلاء مراكزهم المتقدمة وما استولوا عليه من قلاع ومراكز المسلمين اثناء السنوات السالفة . وفرح المسلمون يومئذ بنصر الله . وقد وقع ذلك سنة ٢٧٥ (١) (٨٨٩ م) .

قلورية - كان الروم قد تحصنوا في ارض قلورية التي يفصلها عن صقلية مجاز مسينا . وكانوا يريدون بذلك ان يحولوا دون انتشار المسلمين في الجنوب الطلياني وأن يقطعوا الصلة بين مسلمي صقلية ومسلمي ايطاليا ؛ وعلى الاخص كانوا يريدون ان يجعلوا من قلورية مركزا لمهاجمة صقلية ولامداد حاميات طبرمين ورمطة وغيرها .

فالمسلمون اغتتموا فرصة انتصارهم العظيم على اسطول الروم وعلى جندهم ، واغتتموا فرصة الفزع الذي ساد اوساط المنهزمين ، فجمعوا الاسطول والجند وهاجموا قلورية من وراء المجاز ، فاثبتوا بها اقدامهم ودحروا من تعرض لهم هنالك من الروم وجموع المسيحيين .

قدم صقلية هاتيك الاثناء محمد ابن الفضل واليا للمرة الثانية في الثاني من صفر سنة ٢٧٩ .

(١) في هذه السنة اكمل الامير اسماعيل زعيم بنى سامان الفرس استقلال بلاد ما وراء النهر عن الدولة العباسية ، اذ ابتداء امره بالتمركز في بخارى وسمرقند ثم اعلن انضمام بلاد خراسان لمملكته ؛ واستمرت الدولة السامانية حاكمة تلك الناحية طيلة القرن العاشر الميلادى (٩٠٠ - ١٠٠٠)

وكانت الاعمال مستمرة على التوالي فى شبه جزيرة قلورية الى أن أذعن الروم هنالك لعقد هدنة مداهما اربعون شهرا يحتفظ اثناءها كل من الفريقين بمراكزه على ان يطلق الروم سبيلا الف من اسرى المسلمين ، وان يرسل المسلمون بضع رجال بين عرب وبربر بصفة رهائن يقع استبدالهم كل ثلاثة اشهر .

فتنة عمياء - ولى الامارة بعد ابن الفضل سنة ٢٨٤ : الحسن ابن احمد ابن نافذ ، تحت اشراف نائب الملك المذكور حسبما اسلفنا ؛ وكانت هنالك نار تحت الرماد ، وكانت هنالك فتنة نائمة ، فتنة العصبية الجاهلية ونار النعرة العنصرية . فلأمر ما نسي المسلمون الاخوة الاسلامية ؛ ونسوا عدوا يتربص بهم الدوائر دوائر السوء من ناحية الشرق ومن ناحية الغرب ومن وراء العدو ؛ وقد تولى كبر هذه الفتنة جماعة من العرب وجماعة من البربر ، فكانت فتنة لم تصب الذين ظلموا خاصة ، وظهر سفهاء القوم من العنصرين حمية جاهلية ، فانغمس المسلمون فى حماة حرب اهلية قاسية ، لم يستطع العقلاء اخماد نارها ، فعم الفساد وساد الاضطراب ؛ وهذا هو نفس الداء الذى اصاب بلاد الأندلس ، فقضى عليها مع مرور الزمن ، كما قضى على صقلية . ارسل ابراهيم ابن الاغلب جندا الى ولده ونائبه ابي العباس ، وجمع اليه كما يقول ابن الخطيب ، جياد الرجال واشدهم فنزل الجند ارض صقلية فى جمادى الاخيرة من سنة ٢٨٤ ، وكان قد ارسل اليهم انذارا مؤداه : انه يؤمن الناس على انفسهم واموالهم وذويهم ان هم جنحوا الى السلم وتركوا امر الفتنة ما عدا الذين تولوا كبر الحرب الاهلية ، وهم الحسن بن يزيد وولدها وعبد الله الحضرمى .

حارب رجال السلطة الثائرين والمسدين وتغلبوا عليهم وشتتوا شملهم ووضعوا يد العدل فوق اعناق المجرمين ، فاما الحسن بن يزيد فقد شرب سماء وكانت بيده لا بيد عمرو ؛ واما الباكون فقد نفذ فيهم امر الله وقطعت رقابهم وساروا من العار الى النار ؛ ودخل الجند الحكومى مدينة بالرمة بعد اخماد الفتنة فى

العاشر من رمضان سنة ٢٨٧ ، وامن الناس واستتب الهدوء من جديد ، الى حين .

ولقد اراد الروم اغتنام تلك الفرصة ، فجمعوا اسطولهم وقدموا نحو الجزيرة ، لكن الفتنة الداخلية لم تمنع السهر الخارجى ، اذ صمدت فرق من اسطول المسلمين لمراكب الروم فدحرتهم ؛ وغنمت منهم ثلاثين سفينة .

ابراهيم بن الاغلب

قال ابن الخطيب فى اعلام الاعلام :

وفى سنة ٨٩ عظم المرار والوسواس على الامير ابراهيم بن احمد وتخلي لابنه الوالى بصقلية على الامر ، واستفز الناس ودعاهم الى الجهاد ، وفرق الاموال وكان وصوله الى بالرم من صقلية لليلتين من رجب من السنة فرحل الخ ..

نعم - لقد عظم به المرار والوسواس ، او بالاحرى عظمت به النوبات الجنونية الهستيرية التى تسلطت عليه طيلة ايام ملكه ؛ فرأى ان يخوض فى بحر من دماء الجهاد ، بعد ان خاض فى بحر من دماء امته وعائلته ورجال دولته ؛ فظهر الزهد فى الدنيا والاقبال على الآخرة واستدعى من صقلية نائبه بها ، ابنه ابا العباس عبد الله فتنازل له عن عرش انقيروان الذى خضبت اركانه بدماء الابرياء ، والذى اخذت تزعزعه عواصف الدعوة الفاطمية ؛ ثم سار ابراهيم ليقضى بقية ايامه مجاهدا فى صقلية وايطاليا ، عسى الله يغفر له ما تقدم من ذنبه ؛ فدخل سوسة فى ثوب مرقع علامة الزهاد ؛ وسار منها على رأس جند قوى ، فنزل بالرمة وبأشرف هجومه العنيف .

(٩) اعتقد ان الروم البيزنطيين لم يكونوا وحدهم خلال هذه الحروب الطويلة ، بل كانت معهم ولا ريب جماعات من الصقليين الذين آثروا الدفاع عن المسيحية ، معتمدين على الروم . وفى مقابل ذلك كانت جماعات من الصقليين والمولدين قد انضوت تحت لواء الاسلام وبقي جميع كبير على نصرانيته تحت حماية الاسلام العادلة الرحيمة . كما سترى

احتلال طبرمين - كانت طبرمين يومئذ امنع مراكز الروم (١) واعز قلاعهم بعد سقوط سرقوسة ؛ وكان الروم يوالون ارسال المدد لها دون انقطاع عساها تكون يوماً ما مبعث الموجة المقدسة التى ترجع صقلية تحت حكم الصليب القسطنطينى الرومى .

هاجم ابراهيم المدينة المحصنة بخيله ورجله ، والتحم مع رجال الروم فى معركة هائلة ، دارت رحاها بشدة لا عهد للفريقين بها من قبل ، ورأى المسلمون شدة النصارى فى الدفاع عن مدينتهم ، فاخذت ريح الفشل تهب بين صفوفهم ، لكن ابراهيم تغلب على الموقف بحزم نادر ، فجمع جموع المسلمين وقرأ القارئى بين يديه قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ؛ يصهر به ما فى بطونهم والجلود ؛ ولهم مقامع من حديد ، كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق . ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار ، يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ؛ ولباسهم فيها حرير ، وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد ، فعادت الثقة الى نفوس المؤمنين وهبت عليهم رياح الجنة فانقضوا على اعدائهم كالصواعق النارية ، وانهزم الروم امامهم فاخذوا يتبعونهم بين وهاد الاودية واعالى الجبال ، فقتلوا اكثر المدافعين وتفرق الباقون شذر مذر ، واصبحت مدينة طبرمين مفتحة الابواب دون مدافع ، فدخلها ابراهيم مع جماعة المسلمين ، وغنم جميع ما كان الروم قد اعدوه بها من كنوز وسلاح وعدد للقتال .

ولقد كان لفتح المسلمين لهذا المعقل المنيع اسوأ وقع فى العالم المسيحى ، اهتزت له البلاد الرومية باسرها ، واعلن الامبراطور فى القسطنطينية الحداد سبعة ايام لم يضع فيها على رأسه تاج الملك .

فتح رمطة - لم يترك ابراهيم للروم وقتا يرجعون فيه من ذهولهم اثر نكبة طبرمين ، فسارتوا يقصد مدينة رمطة ، وهى معقل آخر للروم

شرقى الجزيرة ، يقع جنوبى طبرمين ؛ ويتكون منه ومن قطانية آخر ما بقى
للمروم فى تلك الانحاء .

هاجم المسلمون رمطة ، والروم لا يزالون يألمون من ضربة طبرمين ، فلم
يستطيعوا بهذه المدينة ثباتا وانهارت سريعا ، فدخلها ابراهيم ومن معه
وغنموا كل ما فيها من مال ومتاع .

فى إيطاليا - لم يبق يومئذ بصقلية ما يشبع نهم الامير ابراهيم ، فجمع
جموعه القوية ، وركب البحر مجتازا الى ارض قلورية ، وكان يقصد يومئذ
الصعود منها الى الارض الطليانية ، ومنازلة نابولى ؛ فاخترق بجموعه شبه
الجزيرة القلورية ؛ ووصل فى شمالها الى الحد الذى يفصل بينها وبين ممتلكات
نابولى ؛ وكانت هنالك قلعة كسنتة Cosenza المنيعة فخيم حولها ونصب عليها
الحصار ؛ وامعن فى التضيق عليها .

اشتد به المرض يومئذ ، فاسلم روحه لحالقتها ؛ يوم السبت ١٨ من ذى
القعدة سنة ٢٨٩ (اكتوبر ٩٠٢) .

لم يعلم اهل كسنتة بموت الامير ؛ فارسلوا وقد ضاق عليهم الحناق
يطلبون الامان والتسليم ، فامنوا ؛ وقبل استسلامهم ، ونقلت جثة الامير
ابراهيم الى بانرمة فدفن هنالك وبنى على قبره قصر .

سيرة ابراهيم بن الاغلب - ولى ابراهيم ملك القيروان ، وهو لا يبلغ من
العمر الا ١٤ عاما ؛ ومات مجاهدا فى إيطاليا وسنه ٤٢ سنة ، فكانت مدة
ولايته ٢٨ سنة ، ارتكب اثنائها من الفظائع والآثام ما قضى به على الملك
الاغلبى ، وكان اعظم مههد للسبيل فى وجه الدعوة الفاطمية الناشئة .

ارى ، وقد ازفت الساعة التى ستنهار فيها الدولة الاغلبية ، ويتغير وجه
الخريطة انسياسية فى الشمال الافريقى وفى صقلية ؛ ان انقل لك صفحة عن
سيرة هذا الملك الطاغية الجبار حتى يتبين لك كيف يمحو الظلم آثار الدول ،
وكيف تعمى القلوب التى فى الصدور ، فتسير مع اغراضها وشهواتها غير
حاسبة حسابا لما يحرق بها من اخطار .

قال ابن الاثير عن هذا الامير ، ولعله يصفه بذلك عندما ابتدا ممارسة الحكم غلاما او عندما تاب توبة الافلاس قبيل موته : وكان عاقلا حسن السيرة محبا للخير والاحسان ، تصدق بجميع ما يملك ووقف املاكه جميعها وكانت له فطنة عظيمة باظهار العملات .

هذه الصورة غالبة لا تمثل لك شيئا من ابراهيم الجبار الذي كان السبب الاصل في انهيار الملك الاغلبى ؛ اما ما اتفق عليه المؤرخون في شأنه فقد حصه تلخيصا بليغا المؤرخ التونسي الكبير احمد بن ابى الضياف ، مستمدا معلوماته من اعمال الاعلام لابن الخطيب ومن غيره ؛ واليك ما يقوله ابن ابى الضياف :

« وكان ابراهيم هذا قد ابتدا امره بحسن السيرة وسلوك ما يحمد اثره ، ثم انقلب الى ضد ما كان عليه وانسلخ من الحلال الحميدة شأن الدول قبيل الانقراض ، فساعت ظنونه وتغيرت اخلاقه وقسد فكره واسرف في القتل ؛ وفي سنة ٢٦٨ فتك باهل الزاب فقتلهم وقتل اطفالهم والحاقهم في الحفر ؛ وفي سنة ٢٧٧ قتل حاجبه نصر بن الصمامة بعد ان ضربه خمسمائة سوط فما تحرك ولا نطق بكلمة ثم امر بضرب عنقه ، فقال الحاجب لمن حوله : لا تظنوا انى افزع من الموت ووعدهم انه سيفتح كفه ويضمها ثلاث مرات بعد ضرب عنقه ؛ ففعل . الخ

« وفيها قتل من اهل افريقيا عددا مستكثرا منهم القاضى عبد الله بن احمد بن طالب بن سفيان عزله وحبسه ثم سمه ؛ ومنهم اسحاق بن عمران المحتسب قتله وصلبه ؛ ومنهم حاجبه فتح ضرب بالسياط حتى مات ؛ ومنهم فتيان من انصقالبة ، وسبب ذلك انه كان له اذن صاغية لاقوال المنجمين والمتخرسين على الغيب ، وكانوا يقولون له انه يقتله رجل ناقص وانه يمكن ان يكون فتى ، فكان اذا رأى احدا من فتيان فيه نشاط وحدة يتقلد سيفا قال هذا صاحبى فيقتله ، ولما قتل منهم جماعة خافهم وافضى به ذلك لقتل جميعهم ، واستخدم عوضهم فتيان السودان . ثم عرض له منهم ما عرض

للفتيان الصقالبة فقتلهم اجمعين ؛ وقتل ابنه المكنى بابي الاغلب وضربت عنقه بين يديه وسبب ذلك انه نعى اليه ان محمد المنجم قال لابنه انه يلى الملك ، ثم امر باحضار المنجم فقتله وقتل اخوته وكانوا ثمانية ، ومن هناته انه افتقد منديلا كان يمسح به فمه ، وقد سقط من يد بعض جواريه فالفاه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم ؛ ومنها انه كان يقتل بناته ، فكانت امه اذا ولدت له بنت من احدى جواريه اخفتها وربتها حتى اجتمع عندها منهن ستة عشر جويرية فقالت له يوما وقد رأت منه رقة : يا سيدى قد رببت لك وصائف قال نعم ؛ قالت اتراهن فقال نعم ؛ فزينتهن وادخلتهن اليه فاستحسنهن ؛ فقالت له هذه بنتك من فلانة وهذه بنتك من فلانة حتى اتت على آخرهن ، فلما خرج قال لخدم له اسود كان سيقا يقول له ميمون : امض وجئنى الآن برؤوسهن فتوقف استعظاما لذلك ؛ فقال له امض ويلك والا قدمتك قبلهن ، ولما دخل على امه كبر ذلك عليها فقالت له راجعه ؛ فقال لها لا سبيل لذلك ، ووقف على ما يراد بهن فصحن بالبكاء وقلن للسياق يا سيدى وما الذى اذنبنا اما ترجمنا فلم يغن ذلك شيئا ، فقطع رؤوسهن ، ينظر بعضهن الى بعض وجاء اليه بها معلقة بشعورهن ، فوضعها بين يديه (١) .

قال لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه اعمال الاعلام عندما ذكر هذه القصة الفظيعة ما نصه : قلت اللهم لا ترجمه ، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذى لا يتعقبه رضاك ولا تمنحه رحمتك ، اهـ . وكان من كتابه الاديب البارع انعام احمد القديدى ، فقربه وجعل اليه اموره كلها ، ثم سخط عليه فسجنه فخطبه من محبسه برسالة بديعة تلين القلوب القاسية (هنا ذكر ابن ابى الضياف

(١) من المحتمل ان تكون الدعاية العبيدية الفاطمية قد بالغت فى وصف فظائع ابن الاغلب ، واعتمدت على الاصل فاضافت لها اساطير لتسود نهائيا صفحته ، ولتتمكن من القضاء المبرم على دولته . والا ، فالعقل لا يكاد يصدق ان ملكا مهما كان هستريا ، يستطيع ان يصل الى هذه الدرجة من الموبقات والآثام . كما لا يتصور الانسان خضوع الشعب المسلم واستكانته ، وسكوت علمائه ورجاله ، امام هذا الطغيان الاجرامى المنافى لكل احكام وتعاليم الاسلام .

نصها ، وهى طويلة ، لا موجب لذكرها ، وان كانت من آيات الفن ، ختمها بقوله :

هبنى اسات فاين العفو والكرم قد قادنى نحوك الاذعان والندم
ياخير من مدت الايدى اليه اما ترثى لمن قد بكاه عندك القلم
بالغت فى السخط فاصفح مقتدر ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا
فوقع بجهله وطغيانه تحتها • ان الملوك اذا ما استرحموا قتلوا • ووضعه
فى تابوت حتى مات جوعا وعطشا •

« وبقي ابراهيم فى تونس يبدد شيعته وانصاره بالقتل ، ونار الداعى الى الدولة العلوية العبيدية تاكل اطراف مملكته • وكان قد اتخذ جند بلزمة (١) ، واصطفى من ابطانهم سبعمائة رجل ، واعتضد بهم فى حراسته ، ثم بعث اليهم ابنه فى جند وقتلهم بتمامهم • وكان ذلك اقوى الاسباب فى انقراض دولة بنى الاغلب ، وذلك ان اهل بلزمة من العرب من ابناء المغرب ، والجند الداخلين الى افريقيا عند افتتاحها ، واكثرهم من قيس ؛ وكانوا شجى فى خلق كتامة من البربر القائمين بالدعوة العبيدية ، فلما قتلوا استطالت كتامة ووجدت السبيل الى حل عرى دولة بنى الاغلب ؛ ومن اتبع هواه ، اعطى عدوه مناه ، وسوء الراى اشد المحاربين •

« وثار على ابراهيم اهل تونس والجزائر والاربع وباجة وقمودة ، وقدموا على انفسهم رجلا من الجند ؛ فانتقل ابراهيم الى رقادة وحصنها ؛ والجرأة على سفك الدم ، انذار بزوال الملك » انتهى ما نقلناه عن ابن ابى الضياف رحمه الله •

الدعوة الشيعية - فى هاتيك الاثناء ، والدولة الاغلبية تسبح فى بحر من الدماء البريئة ، قدم من المشرق ، داعى الشيعة الاسماعلية ابو عبد الله الحسين بن احمد ونزل بفرجيوة من ارض كتامة ؛ واخذ ينشر الدعوة للمهدى

(١) قرية على ٢٧ كيلو مترا فى الشمال الغربى من مدينة باتنة بالاوراس .

المنتظر من ابناء فاطمة البتول ، ويبشر الناس بقرب ظهور المهدي الذي يملأ الارض عدلا بعد ما ملئت جورا ؛ فالتفت حوله كتامة المتعطشة للحكم الناقمة على الدول النهرمة التي كانت تقسم يومئذ ارض الشمال الافريقي : دولة الاغالبية في الشرق ودولة الرستميين في الوسط ودولة بني ادريس في الغرب ، واخذ يدعو جهارا لعبيد الله المهدي ؛ ويجمع الناس حول مذهب الشيعة الاسماعيلية العلوية ؛ فلقيت هذه الدعوة نجاحا يفوق حد التصور ، كان البلاد كانت تنتظر الحاكم الحقيقي ، المنقذ ، الذي يوحد صفوفها ، ويجمع كلمتها ، ويرفع فوقها لواء العدل والحكم النزيه ؛ وخاصة ان الدعوة لآل علي وابناء فاطمة كانت تصادف هوى في النفوس ، وكان الناس يأملون على يد احفاد محمد صلى الله عليه وسلم اصلاح الحال ورفع المظالم واعلاء كلمة الله .

قال المؤرخ الكبير احمد بن ابي الضياف في شأن الشيعة الفاطمية : ولا يظن في القوم انهم من الغلاة المدحوض غلوهم عند ائمة الشيعة ، كما لا يظن بهم انهم ممن يكفر الصحابة رضى الله عنهم ؛ وقصارى امرهم تفضيل على على الشيخين مع اعتقادهم صحة امامتهما عند جدهم سيدنا علي ؛ حيث قبل جارية من سبى عمر وهى الحنفية واولدها ابنه محمد ، ويستندون في هذا التفضيل الى احاديث لم يوافقهم على المراد بها اكثر اهل العلم ، ولهم نزعات يستندون فيها الى ما يؤثر على بعض اهل البيت وانكار العلماء عليهم من حيث البدعة ؛ واهل افريقيا يدينون بحب على وآله يستوى في ذلك عالمهم وجاهلهم ، جبلة في طباعهم حتى ان نسوانهم عند طلق الولادة ينادون : يا محمد يا علي . الى ان يقول : وقوة المحبة لآل البيت مع الاعتراف بالفضل والمحبة لغيرهم ليس من الرفض في شيء ، والله يقول : « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » ولا يخلو مسلم من هذا الحب ، ورحم الله انشافعى اذ يقول :

ان كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان اني رافضى »

كان عبید الله المهدي قد وقع بين يدي الاغالبية فسجن ، وكان عبد الله بن الحسن الصنعاني يجمع الجموع ويحيش الجيوش ويستولى على اطراف البلاد

معتمدا على سواعد كتامة وحراهم الشديدة ، فدانت له البلاد دون مقاومة تذكر ، حتى وقف وراءه مئات من الالوف ، يستعد للموتبة النهائية ، وتحطيم دولة الاغالبية التى حطمها ابراهيم الآنف الذكر قبل ان يحطمها اعداؤه .

انهيار الدولة الاغلبية - خلف ابراهيم السفاح ابنه الذى كان كما اسلفنا يمثلته فى صقلية ، فكان شهما عالى الهمة سديد النظر اراد اصلاح الحالة ورتق ما امعن ابوه فى فتقه . ولقد كان ينجح وكادت الحالة تستقيم ، لولا ان القضاء قد حم ، وآذنت ساعة الزوال على يد شقى ، كتب الله عليه ان يكون هو النقطة السوداء التى تختم صفحة ناصعة ؛ ذلك هو زيادة الله الحقيير .

تولى ابو العباس عبد الله ملك القيروان ، فارسل بابنه هذا زيادة الله ليمثله فى صقلية ، وليقوم على امر الجهاد والادارة فيها ؛ فما كانت ايامه هنالك سوى الاضطراب والحرب ، وقد وصلت دعوة الشيعة هاتيك الاصقاع ، واشترأت لها الكثير من النفوس ، واخذ الناس يتفرقون شيعا كل حزب بما لديهم فرحون . أما زيادة الله الحبيث ، فقد كان قابل كل ذلك بمجالس لهو وخلاعة وشراب ، كان يعقدها بقصره فى الرمة ، الى ان بلغ الارتباك درجة اضطرت ملك القيروان لاستقدام ابنه المفسد من صقلية ، فالقى به مسجوناً مقيدا داخل داره .

اخذ هذا الشقى يستميل خدام ابيه اليه ، فتواطأ مع غلامين منهما ، ترصدا لابيه حتى نام ، وهما على حراسته ، فاحتزا رأسه ، وذهبا به داميا فرميا به بين يدي الابن النذل ، وفكا قيوده ، فنادى بنفسه ملكا واخذ البيعة العامة فى شعبان سنة ٢٩٠ وبادر بالغلامين قاتلي ابيه فمثل بهما وقتلها شر قتلة دفعا لتهمة التواطىء معهما على ذلك .

وقد رأى ان الحرق الفاطمى قد اتسع على الراقع ، وعلم ان لا قبل له بدفع تلك الكارثة الا باعتماد الخليفة انعباسى المكتفى بالله عله يرسل له جندا يعينه على دحر قوى الصنعانى المخيمة على اطراف المملكة . فارسل للخليفة هدية فيها نفائس كثيرة منها عشرة آلاف دينار زنة الواحد منها

عشرة مثاقيل وقد كتب على وجهيها :

يا سائرا نحو الخليفة قل له ان قد كفاك الله امرك كله
بزيادة الله بن عبد الله سيد ف الله من دون الخليفة سله
ما ينبرى لك بالشقاق منافق الا استباح حريمه واذله
من لا يرى لك طاعة فالله قد اعماه عن سبل الهوى واضله

ولو انه جهز بذلك الذهب انغزير جندا ، واصطنع به رجالا ، لكان ذلك اجدى للملكه وانفع لان انتصابه مدافعا عن خلافة العباسيين دون دعوة الفاطميين لم تجده نفعا ، فان عبد الله الصنعاني قد وثبت وثبته النهائية فكانت معركة الاربص الهائلة التي تفرق فيها جيش الاغالبية بعد ان مات اكثرهم وذلك سنة ٢٩٠ فجمع زيادة الله ، او نقصان الله ما استطاع جمعه من مال ومتاع ؛ وشد رحاله الى المشرق تاركا ملك الاغلب ييكي من بناءه ، فاقام بمصر ينتظر مدد الخليفة وينتظر تنفيذ عامل مصر اوامر الخليفة ولم تكن حالة مصر يومئذ ازهى ولا ازهر من حالة افريقيا . فبعد ايام قضاهما زيادة الله في القدس الشريف يلهو ويلعب ويعبت ويضطرب قبض الله روحه الشيعة بالرمة سنة ٣٠٣ (١) .

وهكذا انهارت دولة بنى الاغلب العظيمة التي كانت من اغرب ممالك العرب والمسلمين ، واكثرها مدنية ونظاما ، واحسنها جهادا ، وامعها عمرانا (١) .

قال فيكتور بيكي في كتابه الآنف الذكر : مدنيات الشمال الافريقي « لولا ان الاغالبية جمعوا الى جانب خلاصهم العسكرية الانهماك في الملذات

(١) كانت الحرب حامية الوطيس في بلاد الاندلس بين الملك اردونيو ؛ الذي جمع شتات البلاد المسيحية هنالك وتصدى لحرب المسلمين ، وبين الخليفة عبد الرحمان الثالث ؛ فاندحر عبد الرحمان اول الامر ثم اعاد الكرة فانتصر واحتل طليطلة ثم انكسر ثانيا سنة ٣٠٦ وعقد هدنة لثلاثة اعوام ؛ فلما انقضى اجلها وكان قد جمع جندا عتيذا هاجم المملكة الاسبانية فشتت شملها ودحر جندها واستولى على بلادها واندفع وراء جبال البيرنات في فرنسا .

والشهوات لاستطاعوا ان يمدوا فى اجل تفوق العنصر العربى بهذه الديار ؛
لكنهم سقطوا تحت عنف الضربات البربرية الواردة من ناحية المغرب ،
وكان بسقوط الاغالبية سقوط النفوذ العربى ، وانهار السنة تحت موجة
الشيعة الظافرة .»

العبيديون بالقيروان - دخل ابو عبد الله الصنعانى مدينة القيروان
ظافرا منصورا ، وكان عبيد الله سجيناً مع ابنه ابي القاسم فى مدينة
سجلماسة عند اميرها . فخرج علماء القيروان واهل العقد والحل فيها للقاء
الصنعانى وهنؤوه بالنصر والغوز وسالوه لمن يخطبون فى صلاة الجمعة فلم
يعين لهم احداً لانه لم يكن يعلم مال عبيد الله انما امرهم بالدعاء لمن نصر
الدين . واعلن ابو عبد الله الامان العام للناس فى اموالهم واعراضهم
وحرياتهم ، انما صادر اموال زيادة الله الاغلبى الهارب ، وحفظ سلاحه
وجواريه ، ثم نقش على النقود من وجهها الايمن : بلغت حجة الله . ومن
وجهها الآخر : تفرق اعداء الله ونقش على الاسلحة : عدة فى سبيل الله .
ووسم الخليل : الملك لله .

ثم استخلف اخاه على القيروان ونهض فى وثبة جريئة الى سجلماسة
بالمغرب الاقصى ، فاخرج من السجن الشريف عبيد الله ، وجاء به مبعلاً
مكرماً وهو يمشى بين يديه حتى ادخله القيروان ، ثم سار به الى قرية رقادة
التي كانت يومئذ (فرساي) تونس وفيها قصر الملك الاغلبى الذى كان آية
من ايات الفن والجمال . وهنالك فى ربيع سنة ٢٩٧ بايعه العلماء والفقهاء
وخاصة الناس وعامتهم ، وكان عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق
يبلغ من العمر ٣٧ سنة ، مهيب الطلعة عالماً شجاعاً كأنه خلق ليكون رأس
دولة وزعيم ملك ، وكل ميسر لما خلق له .

(١) والحقيقة ان جرائم ابراهيم ، وحفيده زيادة الله ، كانت قد حكمت على هذه الدولة بالتلف
والانهيار ، نتيجة تفرق العصبة وسخط الراى العام . فلو لم تقض عليها الحركة الشيعية ،
لنقضت عليها لا محالة حركة اخرى ، من الداخل او من الخارج .

تأسيس المهديّة - لم يطب المقام لعبيد الله المهدي بقصر رقادة • ووجد ان القيروان البعيدة عن البحر لا تصلح عاصمة لدولة وضعت بالمغرب اقدامها الثابتة ، ورمت الى المشرق بانظارها الطامعة ، وقد رأت من اختلال امر الدولة العباسية ومن وهن امرائها بمصر الذين يطيعونها اسما ويستبدون بالامر فعلا ، ما جعلها تستعد وتمعن في الاستعداد للوثوب على تلك الاصقاع محاولة جمع كلمة العالم الاسلامي من جديد تحت لواء الدعوة لآل البيت من بنى فاطمة ؛ كما حاول من قبل تلك المحاولة الذين تولوا كبر تحطيم الدولة الاموية ، لجمع الامة تحت لواء الدعوة لآل البيت من بنى العباس •

طاف المهدي بنفسه على رأس حاشية مختارة ، كل السواحل الشرقية التونسية من قرطاجنة الى الجنوب ، فاختر الموقع البديع في الساحل الذي امر بان تبني فيه المدينة الجديدة التي تحمل الى الابد اسمه « المهديّة » فابتدأ البناءون في العمل سنة ٣٠٠ (١) وانتهوا منه سنة ٣٠٨ ، فانتقل اليها برجاله وامواله وجنوده وسكنها معه اصحاب الدولة واعيان القوم ، فاصبحت مدينة من ازهى وازهر مدن المسلمين •

محمد السرقوسي

بعد هذه البسطة الوجيزة عن انهيار الدولة الاغلبية وقيام الدولة الفاطمية ، وسنرى آثار هذا الانقلاب العظيم في جزيرة صقلية ؛ نعود الآن لحوادث الجزيرة اثناء هذا العهد المضطرب •

(١) في هذه السنة تولى الخلافة ببلاد الاندلس عبد الرحمان الناصر ، وهو اول من لقب بالخليفة هنالك ، واندفع في ميدان الانشاء والتكوين ؛ فاختر مدينة « الزهراء » البديعة واتخذها دار ملكه ؛ وانشأ في قرطبة وغيرها عددا جسيما من الابنية والقصور والبساتين ودور الصناعة ؛ واصبحت في ايامه قرطبة كعبة العالم يقصدها طلاب العلم من كل صقع •

بعد موت ابراهيم بن الاغلب المجنون ، محاصرا مدينة كسنته ، استولى ابنه وممثله بصقلية ، ابو العباس ملك القيروان ، فارسل ابنه زيادة الله ممثلا له بالجزيرة فخلا الى اللهو والطرب والشراب حتى استقدمه ابوه وجبسه وكان من امره ما رأيت فى الصفحات السالفة اذ قتل اباه وانتصب فى القيروان ملكا ، كتب الله عليه ان يسجل التاريخ له انهيار دولة بنى الاغلب على يديه . كان محمد السرقوسى ابرز ولاة هذا العهد المضطرب ، وقد حاول ، ونجح فى بعض الاحيان ، تسكين الثائرة وتهذبة الخواطر وجمع الكلمة ريثما تسفر حالة افريقيا عن امر ! وتوفاه الله اليه سنة ٢٩٠ .

على بن محمد بن ابي الفوارس

واحمد بن ابي الحسين بن رباح

اول الناس فى صقلية امرهم على بن محمد ودانوا بطاعته ، ورجوا ان يتمكن من انجاز عمل محمد السرقوسى فى تمهيد الامن وجمع الكلمة ، وراسلوا امير القيروان زيادة الله فى ذلك ، فامتنع عن المصادقة ، وارسل من قبله واليا على صقلية الامير احمد بن ابي الحسين ، فما قبله اهل الجزيرة الا على مضض ، وان كان قد عمل اثناء ولايته على حفظ الجزيرة وصيانتها ضد كل اعتداء من الخارج وضد محاولات الفوضى من الداخل .

عندما بلغ اهل صقلية نبأ انهيار دولة بنى الاغلب وفرار زيادة الله آخر ملوكها ؛ ثاروا بالامير احمد بن ابي الحسين فحبسوه واعادوا للولاية على بن محمد وذلك يوم ١٠ رجب ٢٩٦ (٩٠٨) وراسلوا ابا عبد الله الصنعانى داعية المهدي يطلبون اليه المصادقة على الوالى الجديد ويعلمون الانضمام للدعوة الفاطمية والقيام بامرهما ، فصادق ابو عبد الله على ذلك وراسل الامير الجديد يقره على عمله ويوصيه بالتقوى والجهاد والثبات فى سبيل الله . لكن ايام هذا الوالى لم تدم طويلا ، اذ ان اتعبيدين ما صادقوا على توليته الا بصفة مؤقتة ريثما يستتب لهم الامر وتدين لهم سائر البلاد بالطاعة والانقياد ، فعندما تم

لهم ذلك استقدموا احمد بن ابي الحسين وامروه بان يستقر في رفاة ولا يبرحها ، وارسلوا من قبلهم اول ولاتهم نحو الجزيرة وهو الحسن بن احمد . فتكون ايام الحكم الاغلبى بجزيرة اعتناقها دعوة القواطم سنة ٢٩٦ : ٨٤ سنة ، مضت كلها في جهاد شريف ، ونضال عنيف ، وتمهدت فيها سبيل الامن ، واستقرت الراحة في المدن والقرى ، ولم يكن الاضطراب الذى ساد آخر الايام مانعا للناس عامتهم وخاصتهم من انجاز اعمالهم العمرانية التمدينية ، فكان الخلاف حول الحكم والولاية يكاد يكون خاصا ببعض الطبقات ؛ اما بقية الناس فكانت دائية على اشغالها ، قصاراها من امور الدولة انها تجد دائما القاضى النزيه الذى يفض ما يقع بين الناس من مشاكل ، وتدفع زكواتها بنظام لمثل السلطة مهما كان اسم متولى الامر . اما الخلافات العنصرية والقبلية ، التى اشتعلت نيرانها موقدة سنة ٢٨٤ ، فقد نامت الى حين ، وبقي دعائها وزعماء فتنتها يترقبون الفرص ، الى ان تمكن الفاطميون من نصب سلطانهم ، فالتهب النيران ، وسفكت الدماء ، ووقعت فتنة صقلية الكبرى ، مما جعل استاذنا الكبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي رحمه الله يقول في تذييله لكتاب « غزوات العرب في البحر المتوسط » للامير شكيب اربلان :
ما نصه :

« واستمر نجم الاسلام صاعدا في اوروبا بعد هذه الوقعة العظيمة (الانتصار البحرى سنة ٢٧٥) وامراء الاغالبية لا ينفكون عن تعزيز المسلمين في ولاياتهم الاروبية ومراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحبط كل مسعى في الانتكاث ، حتى دان من في حوزتهم من النصارى للاسلام ، وتذوقوا حلاوة تحريره اياهم من ظلم الامراء الاقطاعيين وطفيان الكنيسة الكاثوليكية ، واستمر ذلك الى ان ظهرت النبعة الآثمة نبعة الدعوة العبيدية في قبيلة كتامة البربرية من المغرب الاوسط ، وقدر لها ان تجتاح الدولة الاغلبية فتعطل الفتح في اوروبا ، وانقلبت جيوش افريقيا مغيرة على العالم الاسلامى لتقويض دولة بعد اخرى ، وهدم الخلافة العباسية القائمة في المشرق ، وبسبب ذلك

تحولت السياسة الإسلامية تجاه أوروبا من الهجوم والتوثب ، الى الدفاع والتسليم .

ولم يكن احد على الاسلام ما جناه عليه هؤلاء العبيديون او الفاطميون ،
الخ . مما سيايتك تفصيله بعد حين .

القسم الخامس

الحكم الاسلامى ايام الدولة الفاطمية

عصر الولاة والارهاب

الحسن بن احمد بن ابي خنزير

لا بد ان احدث انهيار الدولة الاغلبية ، وقيام الدولة الفاطمية ، اثرا عظيما في البلاد الصقلية . على ان اواخر ايام الاغلبة لم تكن في صقلية ايام راحة وهدوء واطمئنان ، فكانت حوادث افريقيا ضغثا على ابالة ، وكانت السنوات الاولى من انتصاب الحكم الفاطمى بالجزيرة ، ايام اضطراب سوداء ومذابح شنيعة ، ان اسفرت عن شيء فمن خلاف جسيم وشقاق ذريع بين الجموع العربية التى كانت قوام دولة الاغلبة ، وبين الجموع البربرية التى ترى انها صاحبة الدولة ايام الفاطميين ، فقضت الجزيرة من جراء ذلك عصرا من اسوأ عصورها .

الا ان ذلك لم يدم طويلا ، وعاد الاستقرار بعد حين ، على يد بعض كرام الولاة فى اول الامر ، وعلى يد عائلة بنى الحسن اخيرا .

عندما توطدت اقدام عبيد الله المهدي سنة ٢٩٧ فى ملك افريقيا ، ارسل من قبله واليا على صقلية ، الحسن بن احمد بن ابي خنزير ، من زعماء كتامة البربر الذين ايدوا الشيعة الفاطمية ونصروها فدخل بالرمة دخول الفاتح المنتصر ، ولم يسر هنالك سيرة امير مسلم ، بل سار هنالك سيرة امير عنصرى بربرى ، فكانت اعماله كلها متجهة نحو بربرة البلاد ، وتوطيد دعائم النعرة العنصرية البربرية ، فسكت العرب اول الامر عن مضض ، وقد شعروا انهم قد خسروا بانهيار الدولة الاغلبية تفوقهم ونفوذهم

وشعر المسلمون الصادقون ، وكثير عددهم ، بان هذه النعرة الجديدة سوف تكون نواة الحراب والدمار ، اذ تحل الدسائس العنصرية والتحلافات المذهبية محل الاخوة الاسلامية السالفة .

تاريخ صقلية - ٩

ولم يكتف الحسن بن احمد بمحاولة تغليب العنصر البربري على العنصر العربي بل زاد الطين بلة بمحاولة الناس عامة على اعتناق المذهب الشيعي بدل الاكتفاء منهم بالطاعة السياسية تاركا لهم حرية الدين .
وما كانت هذه الاعمال لتنتهي الا بالانتقاص واراقة الدماء .
ثار العرب وثار معهم اهل السنة عامة فخلعوا طاعة الحسن بن ابي خنزير ، لكنهم لم يستطيعوا اعلان ما تكنه نفوسهم اذ ذاك ، ولم يجدوا القوة الكافية والزعامة الحقيقية للتخلص من السلطة الفاطمية ، فراسلوا المهدي معتذرين عن ثورتهم بسوء سيرة الوالي وفساد اعماله ، وأفن رايه ، وما تسبب فيه من فتن هو جاء بين المسلمين .

على بن عمر البلوي

تقبل المهدي على كره منه اعتذار مسلمي صقلية ، فاعلن عزل الحسن ، واولى مكانه على بن عمر ، سنة ٢٩٩ ، وكان شيخا هرما ، لين العريكة ، كريم الاخلاق اراد ان ياخذ الناس بالحسنى ، وان يقابل الفتن باسداء النصائح وكانت القبائل البربرية التي قدمت البلاد والتي استقرت فيها من قبل ، قد التففت حول الحسن وعلى ابني الوالي المعزول الحسن بن ابي خنزير ، فاصبح لهذين الولدين النفوذ المطلق والسلطة الحقيقية ، وسارا تحت سلطة الوالي الواهية ، على تنفيذ خطط ابيهما ، من حيث التفرقة العنصرية الآثمة ، ومن حيث فرض المذهب الشيعي على البلاد .

هنالك لم يجد العرب واهل السنة عامة من بربر ومولدين مخرجا لهم من تلك المحنة ، الا اعلان الثورة ، والانتقاص على سلطة الفاطميين .

احمد ابن زيادة الله بن قرهب

جمعوا امرهم يومئذ وقاموا بحركة منظمة ، وعلموا انهم ما داموا على ولاء المهدي فالحالة لن يتطرق اليها ادنى تغير . ففي السنة الموالية لولاية على بن عمر سنة ٣٠٠ رفعوا لواء العصيان وقبضوا على الوالي على بن عمر وعلى

ولدى بن ابي خنزير واركبوها البحر الى افريقيا ، وبايعوا بالولاية احمد ابن زيادة الله بن قهرهب وهو من قرابة الاغالبة .

الخلافة العباسية - كار احمد بن قهرهب كارها للولاية ، حتى انه عندما رأى الناس اجمعوا على تقديمه لها فر من وجههم ، وأوى الى غار يحجبه عنهم ، فامعنوا فى طلبه واخرجوه من مخباه واقسموا له ليكونن فى طاعته وليموتن دونه ، فقبل الامر اذ لم ير محيصا عن ذلك ، انما اشترط عليهم ان لا يتولى الامر الا معتمدا على الخلافة العباسية ، نابذا لدعوة الشيعة وما فيها من تعصب مذهبي وعنصري ، وهكذا كان . فتولى الامارة معتزا باهل السنة من عرب وبربر ومولودين ، وارسل الخليفة المقتدر بالله فى بغداد يعلن القيام بدعوته ويضع امارته تحت سلطته ، وجاءته رسل الخليفة تحمل الا لوية السوداء والخلع السود شعار الخلافة العباسية . ثم وقف ابن قهرهب وقفة الامير الحازم والزعيم القوى الشكيمة الجسور فى الحق ، فضبط الامور واستقامت له الاعمال ، وسكنت الفتن الظاهرة الا ما كان كامنا منها تحت الرماد .

رجوع الفاطميين واندحارهم - ما كان عبيد الله المهدي وما كانت قبائل كتامة ومن لف لفها لترضى بخروج صقلية عن الامر ، واصباحها مركزا للدعاية العباسية العربية السنية ، وادركوا ما فى ذلك من خطر جسيم على الدولة الناشئة فوقفوا للامر موقفا حازما ، وراوا وجوب المبادرة باطفاء هذه الجذوة قبل ان يستفحل امرها .

جهز المهدي اسطوله وعمره برجاله الاشداء ، ووضع على رأسهم ابن ابي خنزير بعد ان اعلن من جديد ولايته على صقلية، فسار الاسطول والقى مراسيه فى مدينة رمطة ، انما رجال ابن قهرهب لم يكونوا غافلين . فتلقوا ذلك الاسطول بما جمعه لمثل ذلك اليوم من قوة ، والتقى الجمعان سنة ٣٠١ ، وفاز اهل صقلية فوزا مبينا فاحرقوا اسطول المهدي واسروا ستمائة من رجاله وقبضوا على الحسن بن ابي خنزير نفسه ، وكان قد آلم من قبل نفوسهم وترك فى قلوبهم ضغينة لا تنسى ، فقتله ابن قهرهب تشفيا وانتقاما .

نذالة وسقوط - جهز المهدي حملة جديدة سنة ٣٠٣ ، سيرها على صقلية ،

محاولة استرجاعها ، فباءت بفشل ذريع .

لكن المهدي ان لم ينصره اسطوله على صقلية ، فقد نصره فيها دعاة الهزيمة

او رجال الكتيبة الخامسة حسب التعبير الحديث .

فقد قاموا يومئذ بدعاية واسعة النطاق ، تمكنوا من اقناع خاصة الناس

وعامتهم بها اذ قالوا : ان المهدي لن يصبر عن اندحاره المتوالى في صقلية ،

وانه لا ريب راجع علينا باسطوله وخيله ورجله مما لا قبل لنا به ، فالرأى

الاسد هو اعلان التوبة والندم والرجوع لحكمه ، وخلق طاعة بنى العباس

الذين لم نر منهم الا شعارهم الاسود ، ولا يستطيعون امدادنا بشيء .

(وهذا في الحقيقة امر لا مراة فيه)

وصل الامر لعلم ابن قره ب فجمعهم وذكرهم بما قطعوه له من عهود

ومواثيق ، فما اغنى ذلك عنه شيئا وتصلبوا في مرادهم ، فاستسلم امام

ارادتهم واخذ يجمع امواله ومتاعه وجهز مركبا يحمله مع ذويه الى بلاد الاندلس

فراا بنفسه .

قال رجال الكتيبة الخامسة : الاليق بكم هو ارسال ابن قره ب قربي للمهدي

وتزلفا ، عله يراها لكم يدا ويعقو عما اسلفتموه من خلع طاعته ، فوجدوا من

الدهماء اذنا صاغية ، وخالف بعض رجال الشهامة هذا الرأى الآفن ، فقامت

من اجل ذلك فتنة بين الفريقين تغلبت فيها النذالة على الرحلة ، فالقى القبض

على ابن قره ب وارسل به هو وولده وقاضيه الى المهدي ، وطلبوا مقابل ذلك

ان يرسل لهم المهدي واليا من قبله ، وقاضيا يحكم باسمه ، وهم يقومون في

بلادهم باعمال الضبط والجهاد ، اى انهم طلبوا نظام « الدومينيون » او

الحكم الذاتى حسب الطريقة المعروفة الآن .

في المحرم سنة ٣٠٤ (٩١٦) وصل ابن قره ب الى مدينة سوسة ووقف

امام المهدي هو وولده وقاضيه ، وكان يعلم ما ينتظره في مثل ذلك الموقف ،

فاستجوبه المهدي ووبخه على مخالفة الدولة ونقض عهدها ، واقدامه على قتل

الحسن ابن ابي خنزير فدافع ابن قره ب عن نفسه دفاع الضعيف وقال مما

قاله : لقد اولانى الناس امرهم وانا كاره . ثم عزلونى وانا كاره .
 رأى المهدي يومئذ ان الحلم ربما اعتبر ضعفا ، وان زجر صقلية قد اصبح
 محتما بعدما ظهر منها ، فامر با بن قرهب وولده وقاضيه ان يضربوا ضربا
 مبرحا ، ثم قطعت ايديهم وارجلهم على قبر الحسن بن ابي خنزير ثم صلبوا ،
 وكانت هذه المعاملة الفظيعة التى فشا ذكرها فى طول البلاد وعرضها ، انذارا
 رهيبا لكل من تحدته نفسه بالخروج عن الطاعة ، والانتقاض .

ابو سعيد الضيف موسى بن احمد

اما اهل صقلية فقد ارسل اليهم المهدي اجابة غريبة لمطلبهم : رجلا من
 زبانية البشر هو ابو سعيد الضيف موسى ، على راس اسطول قوى وجيش
 عتيد ، فنزل ارض صقلية فاتحاً غازيا كانه فى بلاد غير اسلامية ، وراى
 اصحاب فتنه ابن قرهب ان النذالة لم تغن عنهم شيئا فجمعوا امرهم فى
 بلرمة وتحصنوا بها ، وامتنعوا عن ابي سعيد ، فجاءها ووقف على جدرانها
 وقفه الجبار العنيد ، وحاصرها اشهرا الى ان نفذ منها الزاد والصبر ،
 فافتتحتها واطلق يد جنده من قبائل كتامة فانتهكت الحرمات ، واستباحث
 المحرمات ، وهدمت الديار ، وخربت المعالم ، واخذ ابو سعيد خيل القوم
 وسلاحهم والرفيع من متاعهم ، ثم ضرب عليهم مغرما ثقيلا فادحا ، ولم يكفه
 كل ذلك من اعمال الزجر والتنكيل ، فاخذ وجوه القوم واعيان البلاد ، وبعث
 بهم اسرى الى افريقيا ، واراد الله لهم الهلاك ففرقت مراكزهم فى البحر قبل
 وصولها .

ساد على الجزيرة يومئذ سكون هو سكون الموت ، وخضع الجميع للسلطة
 الفاطمية خضوع من لم يبق فى فمه لسان ، ولا فى يمينه سنان ، وسكن رجال
 كتامة قرى وقصور المغلوبين واصبحوا اصحاب الحول والطول فى البلاد ،
 واستمر ذلك الى اذا انتهت اعمال الزجر والتنكيل ، وعمرت المدائن والثغور
 برجال الدولة الجديدة ،

فقفل الضيف (وى ضيف هو !) راجعا الى القيروان بعد انجاز مهمته ،

وقد دامت نكبة صقلية الدهماء ، كما رأيت ، نحواً من عشرة اعوام ، فى
الفترة الاولى .

سالم بن راشد

• ارسل به المهدي واليا سنة ٣٠٥ فكانت نيته متوجهة لاستئناف الجهاد
وانجاز ما شرع به اسلافه من ولاية بنى الاغلب من فتح جنوب ايطاليا .

الفتح فى جنوب ايطاليا - كان اسطول المسلمين قد اشتد باسه وقويت
شوكته يومئذ ، وكان يقوده امير البحر ابو جعفر احمد بن عبيد ، فافتح فى
قلورية مدينة وارى Orià بعد معركة هائلة اسفرت عن مصرع ستة آلاف من
البحار وخرج من المدينة عشرة آلاف سبية ، واسر فيها بطريقا ، صالحه
عن نفسه وعن مدينة بخمسة آلاف مثقال من الذهب ، ثم جاء قائد الاسطول
يسلم للمهدي تلك الغنائم الباهرة ، فقال بعض رجال الحاشية : تا الله ان الذى
يؤدى هذا لهو الامين ! فجاب المهدي : والله ما اعطانى من الجمل الا اذنيه !

ومن هنا تدرك ان عبيد الله المهدي كان كثير الشكوك وكان لا يستثيق احدا
ثم فى سنة ٣١٣ ، وثب سالم بن راشد على مدينة طارنته الكبيرة الشهيرة
فتلقاه اهلها بدفاع حار واستماتوا دون مدينتهم ، وكانت ملحمة هائلة اسفرت
عن انكسارهم واحتل المسلمون المدينة وثبتوا فيها .

فى سنة ٣١٥ ، استولى الاسطول على قلعة الخشب واستحوذ على ما كان
فيها من خيرات وارزاق ، وسار يؤم مدينة سالرنة الشهيرة Salerne
التي اصبحت من بعد ، بفضل علماء المسلمين اكبر كليات العالم القديم ، وكان
الفريد امير سالرنة يعلم ضعفه امام المسلمين ، ويدرك انه لا قبل له بمقابلة
اسطولهم الذى ملأ البحر رعبا فاستنجد للدفاع عن مدينته برجال النرمان
الذين اخذ نجمهم يتألق فى البحر يومئذ .

صفحة بيضاء - القاضى ميمون - خلال هذه الايام السوداء الكدرة ،
وفى وسط هذه الفتن الدهماء ، برى لزاما ان نسجل صفحة طاهرة من اجل
واروع صفحات القضاء الاسلامى هى صفحة القاضى ابى عمر وميمون ،

لترى منها ان الاضطراب ان كان شاملا كل نواحي السياسة والادارة ، وان
البلاء ان كان مخيما على الناس من كل جهاتهم ، فهناك ناحية بقيت في معزل
عن الفتن ، وهناك سلطة لم تمتد لها يد الطغيان بسوء ، الا وهي ناحية
القضاء الاسلامي الذي بقى نزيها طاهرا نقيا ، يلتجئ اليه الناس فيجدون
فيه الملجأ الامين ، ويحتكمون اليه فلا يجدون في انفسهم حرجا مما قضى
ويسلمون تسليما .

نروى عن رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقيا ، انه في سنة
٣١٦ (١) ، ايام ولاية سالم بن راشد الشديدة القاسية ، توفي بمدينة سوسة
القاضي ابو عمر وميمون بن عمر ، وكان رجلا صالحا ذا دين وفضل سمع عن
سحنون ، وكان معدودا في اصحابه ، ولى مظالم القيروان ثم ولى قضاء صقلية ،
فلما ولى قضاءها اجتاز بسوسة ، فقال : يا اهل سوسة ، هذا كسائي وهذه
فروتى وهذا خرج فيه كتبى ، وهذه السوداء تخدمنى ومعها جبة وكساء فبهذا
دخلت عليكم فانتظروا باى شىء راجع .

قال ابو الربيع : فاخبرنى سعيد بن عثمان من اهل صقلية ، انه لما وصل
اليها قلنا له : هذه دار القضاء تنزل فيها ؟ ونزل في دويرة لطيفة ، وكانت
السوداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فضل ذلك ، فاذا ضرب احد
الباب خرجت اليه ، وقالت الساعة يخرج عليكم القاضي الى ان اعتل ،
فاقام ثلاثة ايام لم يخرج ، فقرع النس الباب فخرجت لهم السوداء وقالت
ادخلوا فعودوا القاضي فانه مريض ، فدخلنا عليه فاصبنا وسادتين محشوتين
تبنا عند راسه وحصيرة بردى تحته ، فلما رأنا بكى ، وقال والله اننى
اجتهدت ما استطعت ، ثم خرج من صقلية وهو مريض وقال لاهلها : خلف
الله لكم بعدى بخير ، فقالوا صحبك الله بالعافية ، فوصل الى سوسة فقال
يا اهل سوسة : كما دخلنا عليكم رجعنا اليكم ، هذه كسائي وجبتي وخرجي
فيه كتبى وهذه السوداء تخدمنى .

(١) فى كتاب العبر للذهبي انه مات سنة ٣٢٠ ، بعد ان عمر مائة عام .

قال محمد بن الحارث بن اسد الحشنى فى طبقات علماء افريقيا : ادركته مقعدا شيخا كبيرا ، وكان له دين ومكان على سنه ، عهدى به سنة ٣٠٣ ، وانا اقرا عليه موطأ مالك فقرأت عليه فيه كلاما لعمر بن الخطاب فجعل يبكى خشية وتواضعا ، فانى لفى ذلك المجلس بين يديه حتى دخل عليه داخل ، فقال : فتحت صقلية . فجعل يتأسف .

والمقصود هنا بفتح صقلية ، هو دخولها تحت طاعة الدولة الفاطمية .
مبدأ ظهور النرمان - رأينا فى مقدمة هذا الكتاب التاريخية من هم النرمان وكيف انتشروا فى شرق اوروبا وفى غربها ، ونفتح هنا باب البحث عن تدخلهم فى امر صقلية ، ذلك التدخل الذى ابتداء امره عند انهيار الدولة الاغلبية وانتهى بزوال السلطة الاسلامية عن الجزيرة .

فى سنة ٣٠٠ ، وفى الايام الاولى من ولاية ابن قهرم ، كان جماعة من النرمان يرجعون لوطنهم نرمنديا من زيارة القدس الشريف ، واذ كانوا على مقربة من صقلية استنجد بهم البعض من النصارى هنالك ضد المسلمين ، وكانوا فى حرب معهم ، فانجدوهم ونصروهم على عدوهم .

واذ رأى نصارى صقلية ان امبراطور الروم قد تغافل عنهم ، وان نجداته المتوالية لم تكن بذات اثر فعال ، طلبوا الى رجال النرمان البقاء عندهم ، والاتيان بقومهم اليهم ، حتى ينتصر المسيحيون هنالك نصرا نهائيا على المسلمين .

(١) بمناسبة ذكرنا للقضاء والقضاء الاسلامى نذكر طريقة القضاء فى ذلك العصر ببلاد المسيحية : كانت العدالة تعتمد فى الغالب يومئذ على احدى طريقتين : الاولى هى المعروفة باسم « حكم الله » وذلك بان يحمل المتهم بين يديه قطعة من الحديد المحمر بالنار ويسير بها بعض خطوات ثم يلقى بها الى الارض ؛ فان خلقت النار آثارها بيديه بعد ثلاثة ايام كان مجرما واستوجب القصاص وصارم العقاب ؛ وان خلت يده من آثار النار بعد ثلاثة ايام اعتبر بريئا واطلق سبيله .

اما الطريقة الثانية فهى المبارزة العادلة ؛ وذلك بان يلتقى المدعى والمدعى عليه ، وفى يد كل منهما سيف ويتبارزان ، فالغالب فى المعركة هو صاحب الحق والمغلوب هو الظالم المتدى ؛ وان كان المدعى او المدعى عليه او كلاهما غير قادر على استعمال السلاح فله ان يكلف وكيله للدفاع عنه بواسطة السيف .

اعتذر يومئذ رجال النرمان عن البقاء ، انما وعدوا بارسال جماعة اخرى من قومهم ، اشد مراسا منهم واقدر على النضال والقتال ، ثم رجعوا الى بلادهم يحملون اليها ما انتجته المدينة الاسلامية فى صقلية ، من نفائس المنسوجات الحريرية ، ومن سكر وبرتقال وثمار شهية كانت مجهولة كلها يومئذ فى اوروبا ، ورغبوا شبانهم فى ارتياد تلك الناحية طلبا للثروة ، تحست ستار الدفاع عن المسيحية ، والجهاد ضد المسلمين ، فكان برتقال صقلية مذكيا لنهم النرمان ، كما كان تين قرطاجنة من قبل مذكيا لنهم الرومان عندما اخرج قاطون من كمه حبات من التين وخاطب المجلس قائلا : ان ارضا تنبت مثل هذه الثمرات يجب ان تكون لنا .

من ذلك الحين اخذ قرصان النرمان يجوبون تلك البحار ويترصدون الفرص التى تمكنهم من تفويض سلطان المسلمين .

استمرار الفتح فى جنوب ايطاليا - وفى سنة ٣١٧ كانت عمارة اسلامية مؤلفة من اربع سفن ترتاد البحر فلقيت اسطولا طليانيا مؤلفا من سبع سفن ، فدهم الاسطول الاسلامى اسطول الطليان ودحره وكانت نتيجة هذا الانتصار البحرى ان استولى المسلمون على مدينة طرمولى Termoli ومن اغرب غزوات هذا العهد غزوة القائد يعقوب ابن اسحاق ، فقد سار على راس اسطول ضخيم من اساطيل المسلمين ، قاصدا شمال ايطاليا ، فاصطف امام مدينة جنوة Gene درة ايطاليا اللامعة ومرساها الذى سارت بذكره الركبان ، ونازلها فانس منها ضعفا ، فانزل جنده وبحارته وصادمها صدمة عنيفة مكنته من اكتافها ، فاحتلها ونصب فوق جدرانها راية المسلمين الظافرة الى حين .

الثورة - لم تكن هذه الحروب الخارجية ، وما كلل الظفر به هامتها من فخار ، لتشفل سالم بن راشد عن الحذر والانتباه ، خشية انتقاض اهل صقلية الذين الفوا الثورة ، وسكنت قلوبهم الاحقاد والضemann ، اثر اعمال الزجر والتنكيل التى قام بها سلفه والتى تجعلهم يندفعون فى ذلك السبيل لادنى مناسبة .

ونو ان سالما والذين ارسلوا به واليا من قبلهم ، راوا ان يسلكوا يومئذ

سياسة اللين والمجاملة ، وجبر القلوب المنكسرة ، واسدال ستار النسيان عن الماضي القريب لكان ذلك اوفق لهم واهدى سبيلا .

لكنهم رأوا عن قصر نظر ، وسيرا من اهواء النفس واندفاعا مع نعرة عنصرية ممقوتة زادها الانتصار بطرا ، ان يمعنوا فى سياسة العنف والشدة وان يرهقوا الناس الى اقصى درجة الارهاق ، قتلا لروح التمرد فيهم وقضاء على ما فى نفوسهم من طموح .

وما رأينا فى التاريخ ان سياسة مثل هذه السياسة انتجت غير الثورة والدماء والخراب والدمار ، وما انتج الضغط كما يقولون الا الانفجار .

فان كانت بالرمة وضاحتها قد نالها من اعمال الزجر والتنكيل ما اخمد انفاسها الى حين ، فان جهات اخرى من البلاد كانت لا تزال محافظة على قوتها الروحية تابى الضيم ، وتستنكف عن الخضوع للطفاة الجبارين ، فانتضت ناحية جرجنتى انتقاضا جعل سالم بن راشد يعجز عن اخماده ، فارسل الى المهدي يستنجد الامير ابا القاسم بن عبيد الله المهدي ويهول له امر الثورة ، ويزين له طريقة اخمادها بين الحديد والنار ، واسقاط كل راس تحاول الارتفاع فاقنتع الخليفة الفاطمى وارسل على صقلية جندا جديدا ، سنة ٣٢٥ (١)

خليل ابن اسحاق

ولم يكن الجند الذى ارسله الخليفة على صقلية هو وسيلة الزجر والتنكيل بل كانت الوسيلة الحقيقية للبطش والارهاب ، متمصة شخص الوالى الجديد الجبار العنيد خليل بن اسحاق الطاغية ، او حجاج المغرب وصقلية ، انما

(١) فى سنة ٣٢٣ ، تولى حكم مصر من قبل بنى العباس محمد بن طنج الفرغانى التركى الملقب بالاخشيد ؛ فاعلن استقلاله كما فعل من قبل ابن طولون وتولاها آله من بعده ، ثم تولاها عبيد الله الاسود كافور الاخشيدى ؛ الذى خلد اسمه ابو الطيب المتنبي ؛ بما قاله فيه من مدائح رفعته الى السماك الاعزل ، ومن مهاجى نزلت به اسفل الحضيض ؛ وانتهى امر هذه الدولة التى ملها الناس على يد جوهر الصقل قائد الفاطميين الذى احتل مصر ، واختط مدينة القاهرة التى اصبحت عاصمة الدولة الفاطمية ، وانشأ الجامع الازهر (٣٦٠ هـ ٩٧٠ م) .

ليس له من الحجاج بن يوسف الاجراته على سفك الدماء والبطش على
السواء بالمجرمين والابرياء وليس له عمله وذكاؤه وفصاحته .

ان كان سالم بن راشد شديدا في سياسته ، فانه لم يكن يصل بتلك
الشدة الى درجة القضاة ، ولم يكن يريد سفك الدماء الادماء الذين يعتقد فيهم
النزوع للفتنة او يرى في القضاء عليهم قضاء على الثورة والعصيان ، فما كادت
تستقر اقدام النعمة التي تسمى خليل بن اسحاق في ارض صقلية ، حتى
ادرك سالم بن راشد فداحة الخطب وامتداد الكارثة التي كان بنفسه سببا
لها ، فاعلن مع جماعة كبيرة من القوم انه لا يشارك الوالي الجديد في اعماله
وانتحي جانبا معلنا بنفسه الثورة التي كان استمد الخليفة لاطفاء نيرانها ،
وكان يريد ان يرسل له الخليفة حندا ، لا ان يرسل مع الجند واليا جديدا .
ابتدا خليل ابن اسحاق امره باختطاط قرية في ضواحي بالرمة ، حصنها
وشاد فيها القصور وديار الجند واسماها « الخالصة » واتخذها مسكنا له
ولخاصته ووجوه جنده تحميهم عند الحاجة من ثورة السكان ، واخذ لعنه الله
وسود اسمه في التاريخ الى الابد يمعن في الظلم ، ويبلغ في الجور والافحاش
درجة لم يسمع مثلها من قبل ولا من بعد ، ولم تكن نتيجة لهذه القضاة ازهاق
النفوس ولا موت الناس جوعا فحسب ، بل انها جعلت بعض الناس ، وقد
راوا مدى الكارثة التي اصابوا بها في اموالهم واعراضهم ونفوسهم يفرون من
صقلية ومن جنوب ايطاليا ، ويدخلون ارض النصرانية ، ويعتنقون هنالك
الديانة المسيحية ولو بصفة صورية .

ولقد قضى هذا الفاجر اربعة اعوام في صقلية يقتل وينهب ، وينتهك
الحرمات ويجوع ويظلم ، وكان اثناء ذلك يوالى حصار جرجنتي التي استعصت
عليه ، اذ علم اهلها مالهم ان هم استسلموا ، ودام الحصار اربعة اعوام كاملة
الى ان ضاق عليها الخناق فاحتلها ونكل بها تنكيلا لا يوصف ، ثم اراد العودة
الى افريقيا وقد اعتقد انه انجز مهمته للعينة فحمل معه جماعة كثيرة من وجوه
الجزيرة وكبرائها وعلمائها ، زعم انه يريد ان يقدمهم للخليفة بالمهدية ، وامر
في عرض البحر فنقبت المراكب التي كانت تحملهم ، وهنالك بين امواج البحر

المتوسط الذى جاهدوا وجاهد اجدادهم فى سبيل سيادته ، قضوا نجبه
شهداء الجور والفضاعة والنقمة العنصرية

ولقد حضر هذا اللعين خليل بن اسحاق مجلس الخليفة فى المهديّة ، فكان
يفخر الناس بشروبه وآثامه وفضائله ، ومما قاله تقربا الى الخليفة كانه
فعل ذلك فى سبيل دعوته وتوطيد سلطانه : « اننى قتلت فى امارتى الف
نسمة » - فاجابه احد علماء الدولة الشيعية ، ابو عبد الله المؤدّب « لك
يا ابا العباس فى قتل نفس واحدة ما يكفيك ! »

الروم والنرمان - فى هاتيك الاثناء ، والمسلمون يقاسون محنة لم يسبق لها
مثيل ، وسيوف بعضهم تحز فى رقاب البعض الآخر ، كان المسيحيون عامة
ينظرون هذه الحوادث الرهيبة بعين الجذل والسرور والامل ، فكان الروم
يعدون العدة لمهاجمة الجزيرة بقوة ، وارجاعها لسلطان القسطنطينية ، وكان
المدد من ناحيتهم يترى للنصارى الذين بقيت لهم فى صقلية بقية ، وكان
رجال النرمان من جهة اخرى ، يغدون زرافات فى مراكبهم الخفيفة فينقضون
على المسلمين فى جهة بعد جهة ، يغنمون منهم السبايا والاسلاب ، ويعودون
لبلادهم .

واخيرا ما كادت تنتهى ايام خليل بن اسحاق الرهيبة ، حتى تركت فى
صقلية جرثومة الداء الذى سيقضى عليها بعد حين : ذلك أن جماعة قوية من
النرمان نزلوا سنة (٣٢٧) ناحية من صقلية ، وتحصنوا فيها ، وجعلوها
مركزا منيعا لما يقومون به من قرصنة فى البحر ، ومن غزوات وانتهاب فى
البر ، وهكذا بينما كان المسلمون يقاتل بعضهم بعضا ، كان النصارى
يقاتلونهم جميعا ومن كل جهة .

ولقد كان النرمان فى اول عهدهم بالغزو فى صقلية كما قال عنهم العلامة
غوستاف لوبون : يشتغلون بنهب الطليان واليونان والعرب على السواء بهمة
ونشاط دونهما همتهن ونشاطهن فى الدفاع عن الدين (المسيحي) .

عطاف الازدي

ارسل به التصور واليا على صفلية ، لكي يستمر على سياسة اسلافه الذين سبقوه بشرى تلك الولاية منذ تمهد الامر لدولة الفاطميين واستولى رجال كناسة بعظمتهم العنصرية على زمام الملك .

كانت صفلية يومئذ تسبح في بحر من الدماء ، فان كان رجال الفاطميين راوا ان لاسياسة لهم هناك الا سعت الدماء والامعان في الظلم والزجر والارهاب اقتلاعاً لجذور الثورة وخلفاً لكل فتنة مقبلة في مهدها ، فلان البقية الباقية من رجال صفلية الاولين راوا ان الشمة لا تقابل الا بالشدة وان الشمر لا يسمع الا بالشمر ، وان الدم لا يقبل الا بالدم . فكانت يورايم شوالى بعد سكون قليل اثر عمليات الارهاب السالفة ، وكان الروم كما رأينا قد استضعفوا المسلمين في هذه الايام السوداء وتكالموا عليهم وامنعوا عن دفع مال الجزية الذي يجمع بدمعتهم واخذوا يستمعون للملحمة الكبرى ، والفرمان من جبهتهم كانوا يحضون مركزهم القوي استولوا عليه بسبب الثورة ، القلاص بين المسلمين ، ويستعدون كذلك للملحمة الكبرى واستخلاص صفلية بحسابهم الخاص . بينما كان الروم يريدون اسرجاعها تحت سيطرتهم .

لم تكن ايام عطاف الازدي طويلة بصفلية . ولم يستطع ان يصرها على نصرها بعمل يذكر . وكان اهل بالرمة قد ارادوا التخلص نهائيا من عبثه المطالم والشور والآنهم ، فمالفوا وحالفوا حول عصبة بني الطبري وقاروا عطاف يوم عيد الفطر سنة ٢٢٥ ، فالتجأ الى قدمة الخافضة وامنع فيها . ثم سار وفد منهم الى المهديدة يفترض التصور في شأن صفلية واقرار الحكم فيها على اساس مبنية من العدل الاسلامي والتساوي بين الجميع ، وحرية البعد والمعاملات . واوصى الوفد رجال بالرمة ان لا يقبلوا اى عامل يفقد عليهم من المهديدة الا بعد انتهاء المذاكرات وورود رسائل منه تسعهم بذلك .

لكن ازمة صقلية كانت قد انتهت الى حين ، وادرك المنصور بالله اسماعيل ابن القاسم بن عبيد الله خليفة المهدي او تلك السياسة التي سلكها اسلافه لم تات الا بعكس النتيجة المطلوبة ، وان قطرا اسلاميا هو طليعة المسلمين نحو الارض الاروبية بوشك ان يسقط برمته تحت قبضة النصارى ، بسبب تلك الشدة وذلك الارهاب ، فاقبل وفد صقلية ، واستجاب لما عرضه عليه ، وعندما نبأ ثورة بالرم على عطايف الازدى ، بادر بتعيين فاضل من فضلاء الامة ووجيها من وجوه الدولة ، هو الحسن بن على بن ابي الحسين الكلى واليا على صقلية وممثلا الدولة فيها ، على ان يسلك هناك سياسة جمع الشمل ، واتفاق الكلمة ، والاستعداد لمقارعة النصارى الذين كانت دعوة الحرب الصليبية ضد الاسلام والمسلمين تلهب قلوبهم وتتقد فى افئدتهم نارا .

وصل الحسن صقلية مفتتحا بها عصرا جديدا كان عصر ازدهار وجهاد ونمو ، سنة ٣٣٦ (٩٤٧) وانتهى بذلك عصر الشرور والآثام والمصائب والفتن والتنكيل والارهاب ، الذى دامت مدته نحو من ٥٠ سنة ، تتخللها لا محالة فترات راحة نسبية ، وكانت هذه الفترة التعسة فى تاريخ صقلية من اكبر اسباب انهيار ملك المسلمين فيها ، وتغلب النصارى فيما بعد عليها ، وذلك لان المسلمين قد استنزفوا كل قواهم فى تلك الثورات المتوالية ، ولان اعمال الزجر والتنكيل قد ذهبت باحسن القوم وازدادت اكثرهم قوة واشدهم نفوذا ، ولان الخلاف اللعين بين المسلمين : بين سنة وشيعة ، وبين عرب وبربر ، قد توطن فى النفوس وتوطد بكيفية لم تستطع صقلية التخلص منها فيما بعد الا بصفة سطحية ، ولان المسلمين خلال تلك السنين النحسة قد تركوا امر النصارى وامر الجهاد ، فتمكن هؤلاء . تمكنا جعلهم يعيدون الكرة على المسلمين ، فان با الروم بالانحدار فقد نال النرمان آخر الامر كل الفوز والانتصار .

القسم السادس

الحكم الاسلامى ايام الدولة الفاطمية

عصر الاستقلال الذاتى السعيد

الحسين بن على بن ابي الحسين

جاء الحسن واليا من قبل المنصور ، يخال بين بردتى فضل وشمم ، وكان معه اسطول يحمل جندا ومتاعا ، فنزل مدينة مازرة ، سنة ٣٣٥ فلم يلقه احد هنالك ، ولما جن الليل ، جاءته جماعة من كتامة ومن وجوه الجند الافريقى المتقدمة ضد عطاف وضد الحكم الفاطمى ، وضد سياسة الشدة والارهاب ، وأوصوه بالحذر الشديد ، ايفاروا لصدوره ، وحثا له على الاستمرار فى سياسة البطش والارهاب

لكن الحسن كان غير الرجال السابقين . وقد جاء صقلية يحمل فكرة صالحة ويعتزم سلوك سياسة رشيدة ، ضاربا صفحا عن كل ما تقدم من أمر الفتن والاضطراب .

سار فى جنده وموكبه ودخل بالرمة العاصمة ولم يكن آل الطبرى قد اتصلوا برسائل من وفدهم بالمهدية لكنهم لم يجسروا على مقابلة الحسن وراوا التريث والتمهل الى أن يظهر امره وتتجلى سياسته .

العدل أساس الملك - رأى آل الطبرى يومئذ الالتجاء الى مكيدة تمكنهم من سبر غور الوالى وتجعل لهم الحجة فى اعلان الانتقال عليه واثارة العامة والدهماء ضده فاتفق السيد اسماعيل آل الطبرى مع أحد غلمانه واستدرج الى داره احد عبيد الحسن ومهد له سبيل الاختلاء بجويرية من جواريه ثم اخذت اصوات الصراخ والاستغاثة ترتفع من كل اطراف قصر آل الطبرى ،

واسماعيل يزجربان عبدا للوالى انتهك حرمة منزله ، واعتدى على حرمة ، فاجتمع الناس وقبضوا على العبد وساروا به الى قصر الولاية امام الحسن بن علي ، وكان اسماعيل يعتقد ان الامير لا يتنازل لسماع شكائهم ، او الاقتصاص من عبده ، وبذلك يتمكن من اثارة العامة ضده ، لكن الامير الحسن اوقف عبده موقف الاتهام على مرأى ومسمع من الناس ، واعترف العبد بما اتهموه به فاصدر الامير امره باعدامه ردعا لامثاله ممن تسول لهم انفسهم الاعتداء على الحرمات ، فاكبر الناس منه ذلك الانصاف ، ومالت قلوبهم اليه ، وانقلبت مكيدة ابن الطبرى ضد مدبرها .

ثم ان الخليفة المنصور قبض على من عنده من آل الطبرى بافريقيا واصدر امره للحسن بان يقبض على بقاياهم فى صقلية ، ويرسل بهم اليه ، ففعل بعد ان استدعاهم لوليمة يستانه نازعا سلاحهم ، مفرقا عنهم انصارهم ، وارسل بهم الى افريقيا حيث اسكنهم المنصور بعض الجهات وابعدهم نهائيا من مركز الفتنة .

العودة للجهاد وفتح طبرمين - اطمأنت النفوس للحسن ، والتفتت اذ راوا فيه مثال العدل والنزاهة والخلق الكريم وراوا فيه طي صفحة الماضي المؤلم ، ماضى ولادة الجور والتنكيل والانتقام ، وفتح صفحة جديدة تربط حاضر صقلية ومستقبلها بماضيها الجليل .

راى الروم ذلك ، وايقنوا ان المسلمين اذا ما جمعوا امرهم ، ووجدوا كلمتهم فلا نتيجة لذلك الا عودتهم الظافرة لميدان الجهاد ، فبادر المسيحيون بدفع اموال الجزية المتخلفة لديهم عن ثلاثة اعوام ، وقد تقاعسوا عن دفعها عندما راوا ما حل بالمسلمين من خلاف وشقاق وفتنة دهما .

فى سنة ٣٥١ هاجم المسلمون قلعة طبرمين التى كانت تحمل امال الروم القسطنطينيين فى شرق الجزيرة ، وكانت ممتنعة على المسلمين بما امدها به الروم ، وكان المسلمون يومئذ تحت قيادة الامير احمد بن الامير الحسن وقد اشركه ابوه معه فى الحكم واعده ليخلفه من بعده ، ودام حصار طبرمين سبعة

تاريخ صقلية - ١٠

اشهر ثم اقتحمها المسلمون بين اصوات التهليل والتكبير ، بعد ان قطعوا عنها الماء وافتتحوها ، واطلق عليها القائد احمد اسم « المعزية » نسبة للخليفة المعز الفاطمي .

ثم توجه المسلمون تحت قيادة القائد الكبير الحسن بن عمار ، ينصبون الحصار على مدينة رمطة Rametta جنوب طبرمين محطمين بذلك آمال النصرانية في شرق الجزيرة ، وكان الروم قد حصنوا المدينة تحصينا منيعا فاشتد المسلمون في حصارها ونصب الحسن بن عمار حولها المجانيق والفرادات فالحق بالمدافعين عنها اضرارا جسيمة الى ان اقتحمها عنوة وافتتحها يوم الخميس آخر رجب سنة ٣٥٢ (٩٦٣)

مسجد ريو - كانت جزيرة ريو ، من جزر النصرانية يختلف اليها المسلمون ويستقرون فيها لامور تجارتهم الواسعة او يقيمون فيها اثناء اسفارهم فارسل الامير الحسن بن علي بنائيه ورجال الفن واخط في تلك الجزيرة مسجدا فخما في احد اركانه مأذنة عالية ، وتعاقد مع النصارى على احترام الحرية الدينية ، وتهدوا له انهم لن يمنعوا المسلمين من غشيان المسجد وتوعدهم الامير بانهم ان حالوا دون المسلمين ومسجدهم فانه يقابل العمل بمثله ، ويحول بين المسيحيين وكنائسهم في صقلية وافريقيا ، واشترط عليهم ان المسجد حرم يحمى من التجأ اليه مثل سائر معاهد الدين في ذلك العصر ، واحترم النصارى العهد .

محاولات الروم في جنوب ايطاليا - في هاتيك الاثناء والمسلمون يستعدون للقضاء نهائيا على آخر آمال الروم بتلك الديار ، ويستعدون للقضاء على الخطر النرمانى الناشئ ، كان بلاط الروم في القسطنطينية يشعر بمقدار الكارثة التى اصابته ، ويستعد لا سترجاع مكانته الحربية وسمعته السياسية وقيمتها الدينية المسيحية ، فجهز الامبراطور اسطولا عتيدا حمله جندا غفيرا وسلاحا وفيرا وارسل به نحو الجنوب الطليانى يحاول استخلاصه من ايدي المسلمين علم الحسن بن علي بالامر ، فارسل الى المهديدة يستنجدها ، فجاء الاسطول الفاطمي يحمل سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل ، واستعد

الفريقان للنزال والكفاح وكان ذلك سنة ٣٣٦ (٩٤٨) فالتقى الجمعان برا وبحرا ، واندحر الروم فرجعوا على اعقابهم خاسئين . وشيد الحسن بن علي مسجدا بمدينة ريجيو (Réggio) فى قلورية توطيدا لحكم المسلمين وتثبيتا له ، واجبر الروم المقيمين بمدينة اوترنتة على دفع الجزية .

بعد سبعة اعوام من ذلك ٣٤٣ ، اعاد الروم الكرة على المسلمين فى الجنوب الطليانى ، وجاء بطريقهم ارجوريوس على رأس عمارة بحرية قوية فنصب الحصار على مدينة نابولى ، وكانت عاصمة امارة مسيحية مستقلة ، وحليفة وفية لمسلمى صقلية ، وكان الروم حاولوا يومئذ الانتقام منها من أجل ذلك .

سار المسلمون تحت قيادة الامير عمار بن علي اخى الامير الحسن وقد كان يتولى امر المسلمين فى اروبا ، فجمعوا جهودهم الى جهوداهل نابولى ، وتمكنوا من دحر اسطول الروم ، وردوا المهاجمين على اعقابهم مرة اخرى . لكن الروم نزلو الارض فى بلاد قلورية ، محاولين قطع الصلة بين صقلية والبلاد الاروبية ، فتمكنوا من بعض الجهات ، واحتلوا مدينة ريجيو وهدموا مسجد الحسن بها ايدانا بزوال سلطة المسلمين ، وغلوا فى التعصب المسيحي جمع الامير الحسن قوته ، سار الى قلورية يضم جهوده لجهود اخيه عمار ، فالتقى المسلمون بالروم فى وقائع عديدة ، واعادوا احتلال ريجيو ، ثم التقوا باسطول الروم امام مرسى او ترنتة فحطموه ودحروا بقاياها ، واضطر الروم للانسحاب وطلب المهادنة وذلك سنة ٣٤٨ (٩٦٠)

الانتصار الاكبر فى معركة المجاز - كان الفريقان يعلمان ان القتال بينهما لم ينته بعد وكانا يستعدان للملحمة الكبرى الحاسمة ويعدان لها العدة ، ويعلمان ان نتيجتها ستكون اما خسارة صقلية وجنوب ايطاليا نهائيا وانقطاع امل الروم بصفة باتة هنالك ، او تقلص ظل المسلمين وانهيار سلطانهم نهائيا فى البلاد الاروبية وجزيرة صقلية .

ولم يضيع الروم وقتهم سدى . فقد جهز الامبراطور اسطولا لم يجهز مثله من قبل قوة ومنعة وعددا ، وشحنه باربعين الفا من اشداء المقاتلين ، تحت

امرة ابن اخيه ما نويل وامير البحر نيسيتاس ، ونزل الروم ارض صقلية فى ناحية المضيق الذى يفصل بينها وبين ايطاليا ويسميه العرب المجاز ، وكان الجند الرومى مؤلفا من جماعات الاغريق والمجوس والارمن والروس ، فى قوة لم تطأ ارض الجزيرة مثلها من قبل .

وضع المسلمون قوتهم وكانت قليلة العدد بالنسبة لقوة الروم تحسنت امرة القائد الحسن بن عمار ، فسار على راس المجاهدين المسلمين يقف فى طريق الجند الرومى ويحول بينه وبين الوصول الى رمطة .

استعد الحسن للمعركة فوضع جندا فى مضيق بنقش ، وجندا آخر فى مضيق دمنش ، وهما طريقان جبليان وعران ، وعلم قائد الروم ما نويل بذلك فارسل فرقتين من الجند قويتين لتقتحم كل واحدة منهما مضيقا وتنتزع من ايدى المسلمين طريق ورود النجدة والمدد .

التقى الجمعان ، وزحف المسيحيون فى ستة مواكب فاحاطوا بالمسلمين من كل ناحية نظرا لكثرة عدد الروم وقلة عدد المسلمين ، فجاهد المسلمون جهاد المستميت وتغلب عليهم الروم فتقهقروا حتى وصلوا خيامهم ، وايقن الروم انهم فازوا وغلبوا واستولوا على معسكر المسلمين .

لكن هنالك قوة يصعب التغلب عليها ويستحيل قهرها الا وهى قوة الروح ، قوة الايمان ، قوة العزيمة ، تلك قوة تستطيع ان تغلب وان تتغلب ، وتستطيع ان تفرض ارادتها وتنتصر اذا ما خارت قوى المادة وضعفت .

راى المسلمون انفسهم نقطة ضعيفة وسط لجة من قوى الروم ، وعلموا انهم خسروا المعركة فصقلية كلها قد ضاعت ، ومسلموها اصبحوا عبيدا ، ومساجدها صارت محطمة ، وعمرانها امسى خرابا ، ثم علموا ان النصر لمن صبر الساعة الاخيرة ، فتشجعوا بعد وهن ، وتغلبوا على ما اصابهم من ضعف وروعة ، وجمع الحسن ابن عمار رحمه الله جماعة صادقة من المسلمين وقال : اللهم ان بنى آدم قد اسلمونى ، فلا تسلمنى ! وحمل معهم الابطال على جماعة الروم ، وتبعه رجال المسلمين من كل صوب ، وراى ما نويل ان رجال الروم قد اصابتهم الدهشة من هذه الصدمة التى لم تكن منتظرة ، فصاح بهم :

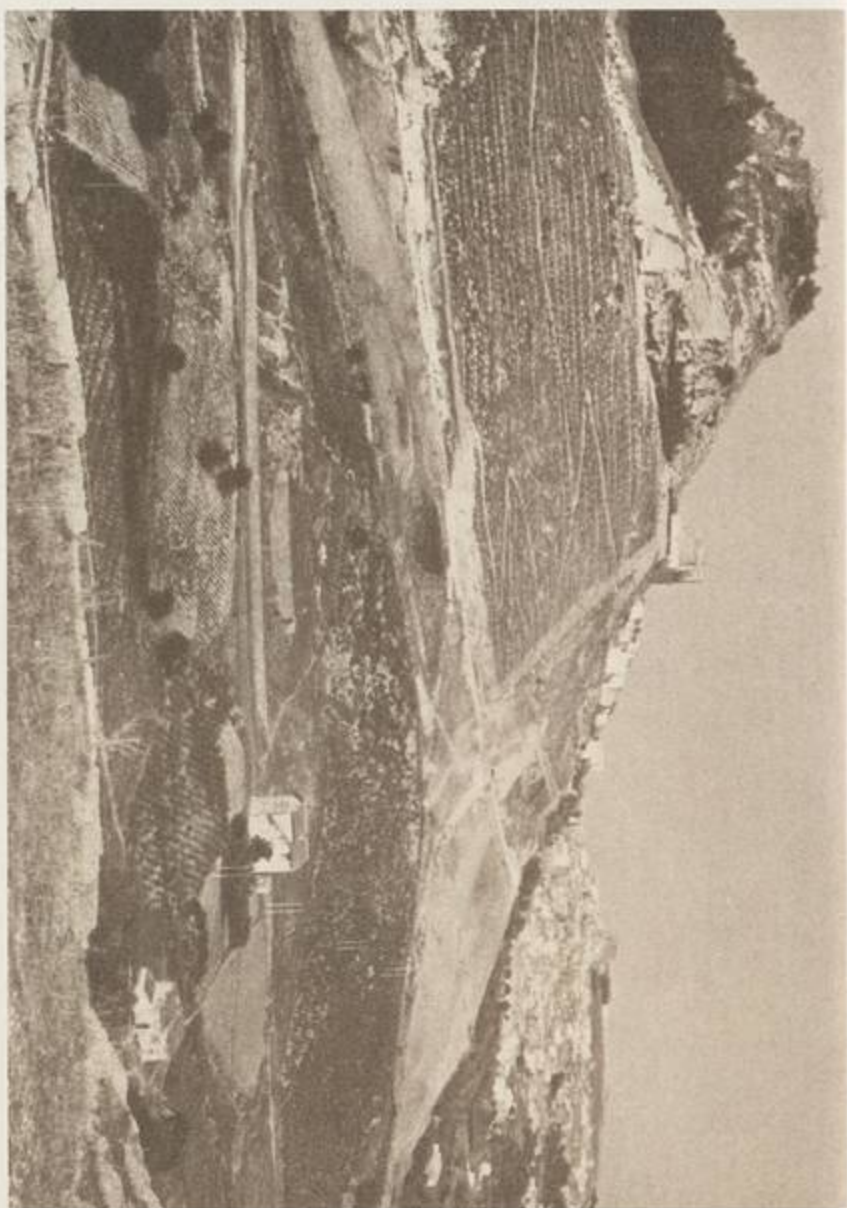
اين افتخاركم بين يدي الامبراطور ! واين ما ضمنتم له في هذه الشريعة القليلة ؟ واشتدت المعركة وسالت الدماء ، وتناثرت الاشلاء وتساقطت الجثث وتغلب المسلمون القليلون على الروم الكثيرين ، اخيرا ، واقتحم احد مجاهدي المسلمين صفوف الروم فوصل الى القائد مانويل وارداه قتيلا

واذ كان النصر يقاتسون كربا ثقيلا والمسلمون يمعنون فيهم قتلا واسرا ، ثارت زوبعة شديدة ورعد وبرق ، فاشتد الرعب والفزع بالروم واصبحوا لا يفكرون الا في النجاة بالنفس ، وصدق الله تعالى قوله : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

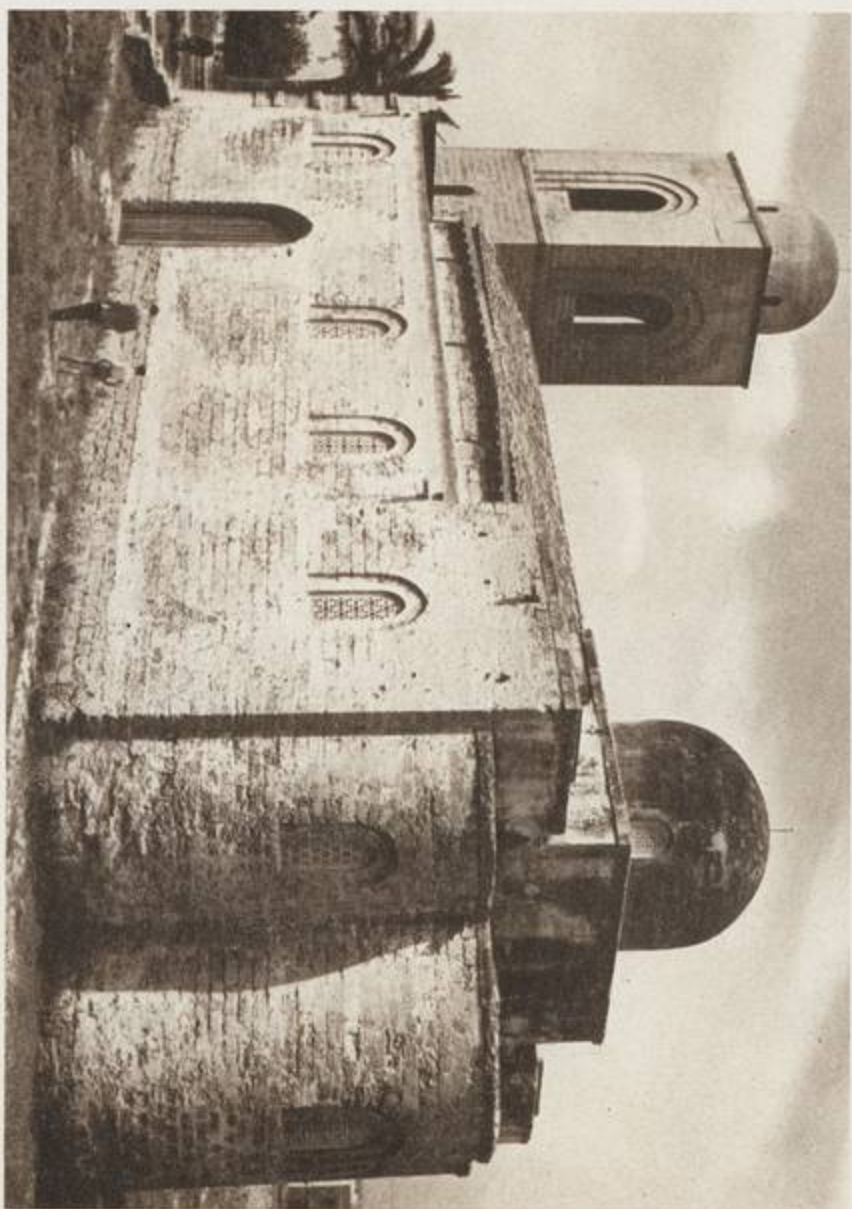
انهزم الروم لا يلوون على شيء ، فمالوا في انهزامهم الى جهة طنوها سهلة وطينة توصلهم الى ساحل البحر فاذا هي جهة وعرة صعبة المسالك ، ادت بهم الى جرف عظيم ، فسقط الكثير منهم فيه ، وامسوا هنالك يقتل بعضهم بعضا والمسلمون ينهالون عليهم ضربا بالسهم والسيوف ، فما انقضى اليوم حتى ترك الروم نحو العشرة آلاف قتيل على اديم الارض ، وانهزمت بقاياهم شريدة حتى وصلت الاسطول فنجت بنفسها فيه ، وباء المسلمون بنصر عظيم في معركة من اروع واشد واغرب معارك القرون الوسطى ، وكان ذلك يوم عرفة من سنة ٣٥٤ (٢٤ اكتوبر ٩٦٥) وجاء المسلمون بالبشرى الى بالرمة ، والامير احمد ابن الحسن يسوق الغنائم والاسلاب والاسرى ، وخرج الامير الحسن بن علي للقاء ابنه مهنثا المسلمين بانتصارهم وفوزهم ، واصابته حمى من شدة تأثره وسروره في ذلك اليوم العظيم ، فمات رحمه الله من اثر ذلك بعد ولاية دامت نحو العشرين عاما ، كانت غرة في جبين الدهر ، وآية من آيات المسلمين ، اظهروا فيها ما يستطيعون القيام به من جلائل الاعمال في الحروب والسياسة والعمران ، ان هم وحدوا جهودهم ، وجمعوا كلمتهم ، ووجهوا همهم للقيام بالرسالة الكبرى التي اختارهم الله لا دائها في تلك العصور الوحشية ، لاجراج الناس من الظلمات الى النور .

احمد بن الحسن بن علي

اجمع الناس امرهم على توليته بعد ابيه ، وقد كان كما علمنا مشاركا له



« قلعة فيسي » تخرج من القرية الصقلية الجبلية



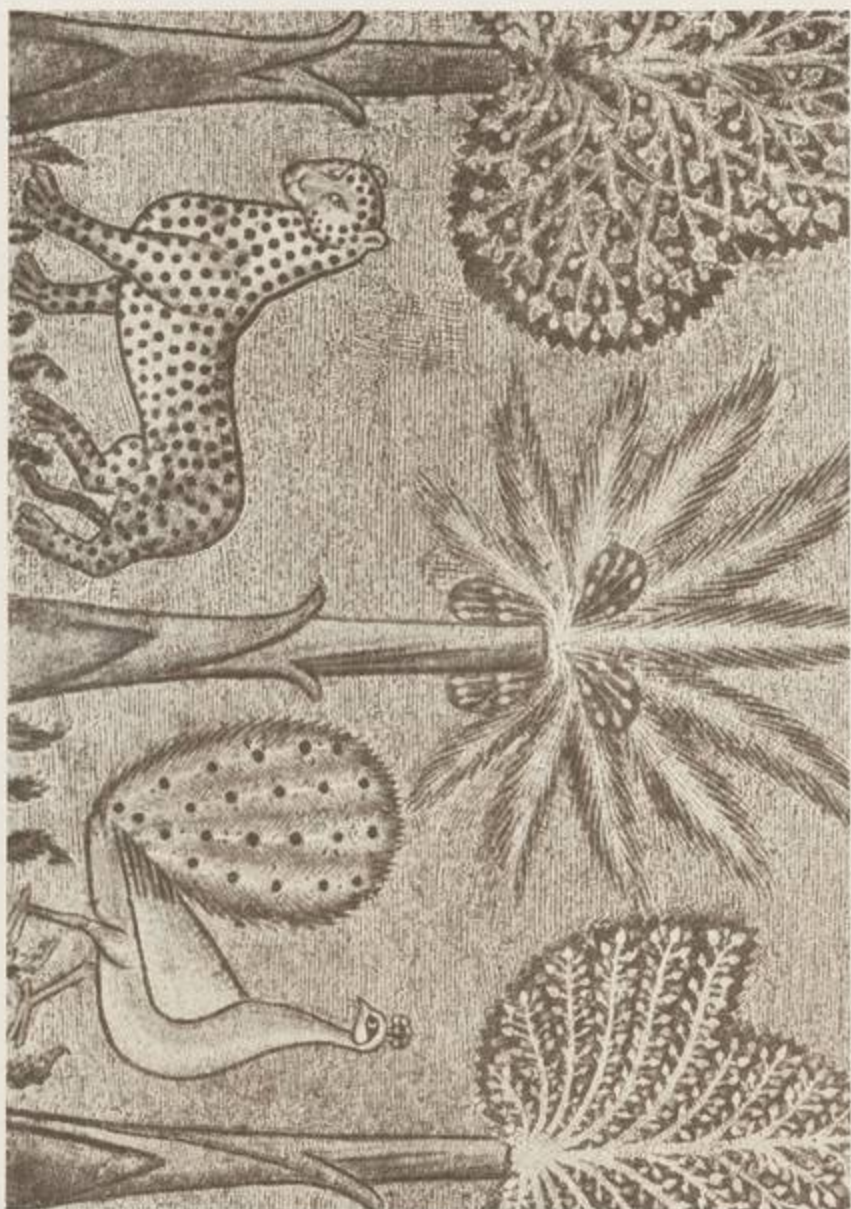
كنيسة سان جوفاني من اثار المسلمين بخواحي بالرمه



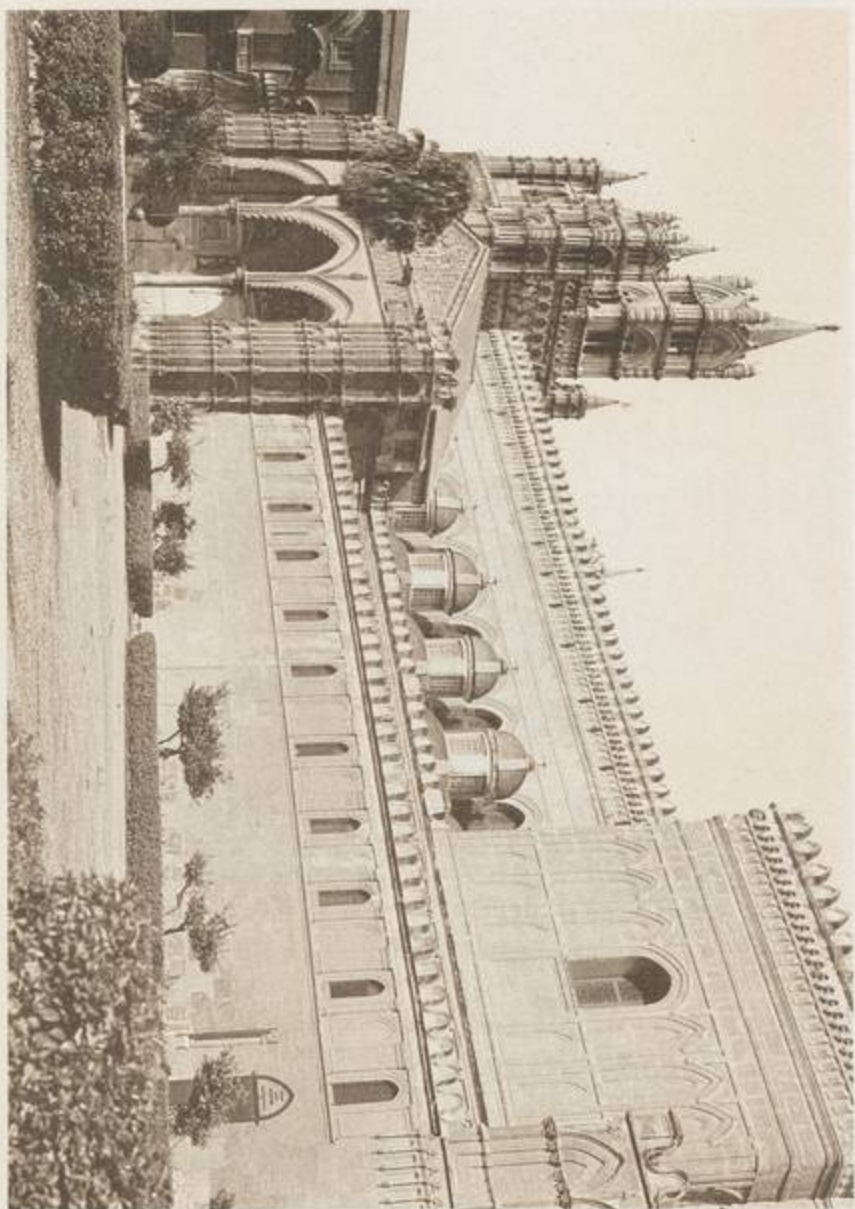
القصر الملكي ببارمة من الخارج



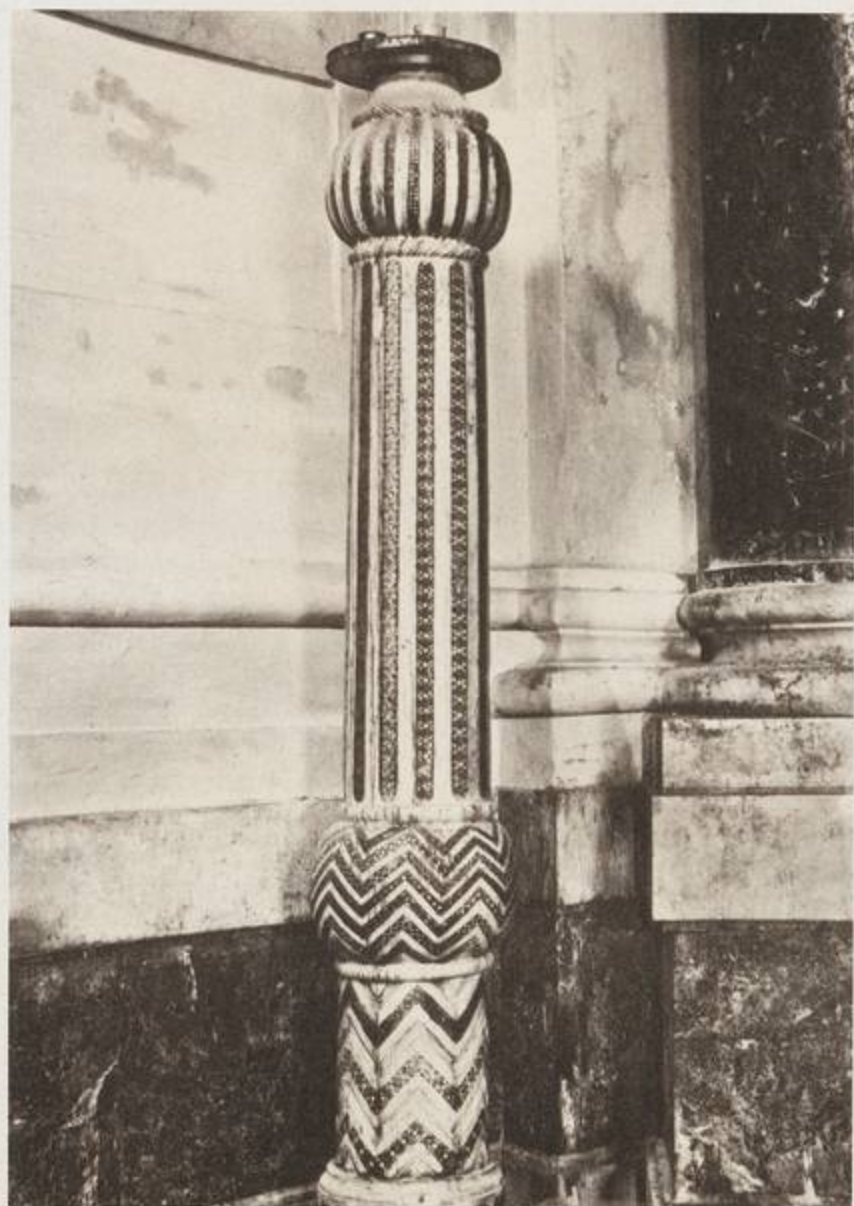
القصر الملكي ببارمة من الداخل



القصر الملكي بباروة من الداخل فسيحاً في غرفة رجار الثاني



كاتدرائية بالرمة . بني المسلمون قسمها الشرقي والوسطى



شمعدان من صنع عربي بكنيسة بالرومة



دير القديس يوحنا



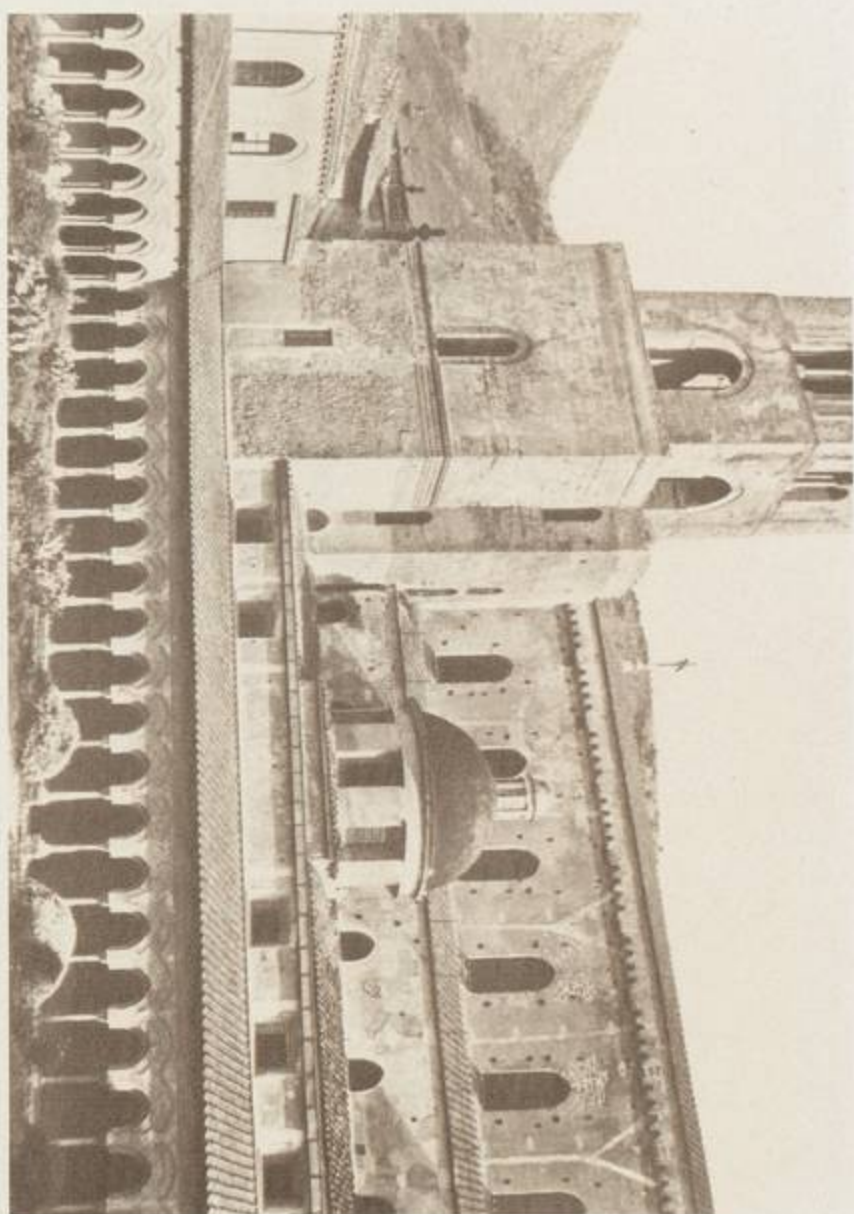
كنيسة القديس يوحنا



كائدرائية سيفالو



قصر القبة من آثار المسلمين بضواحي بالرمة



دير المورزيال

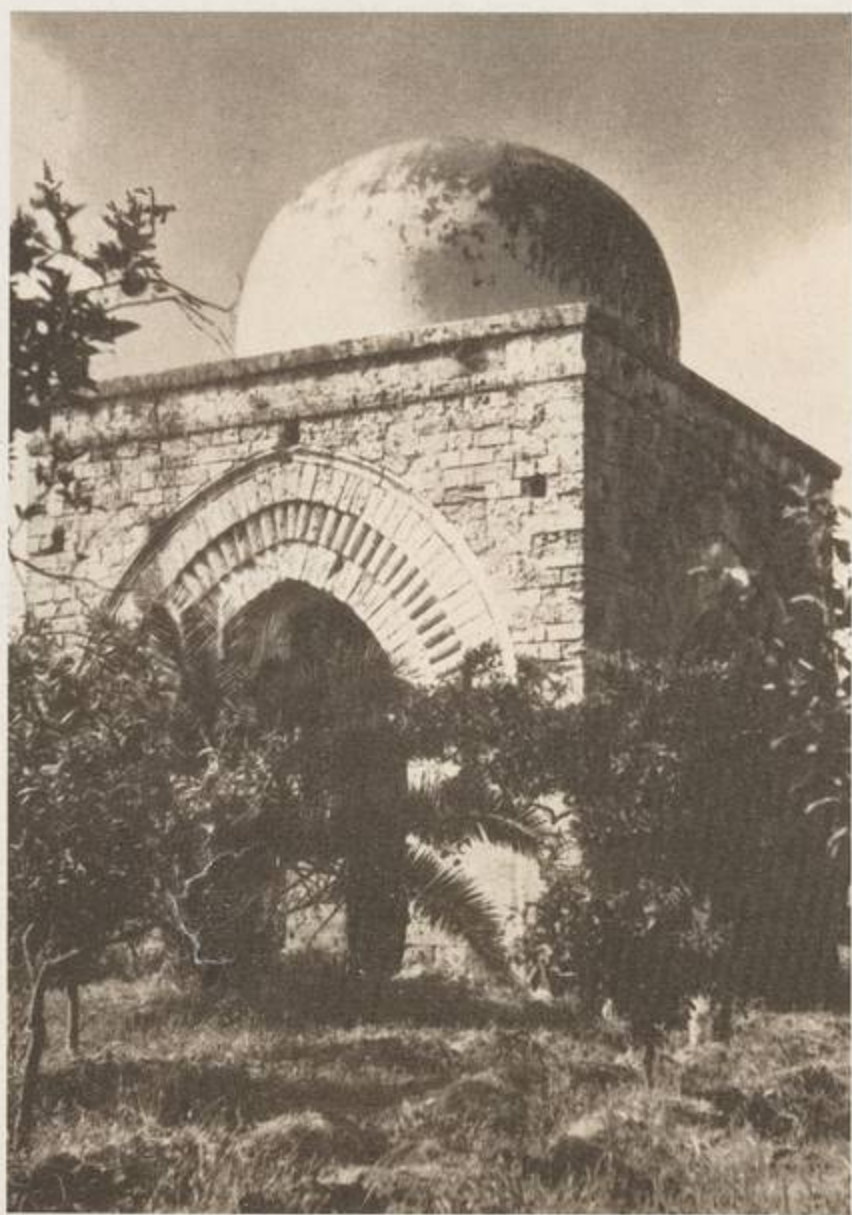


كاتدرائية الموزيال

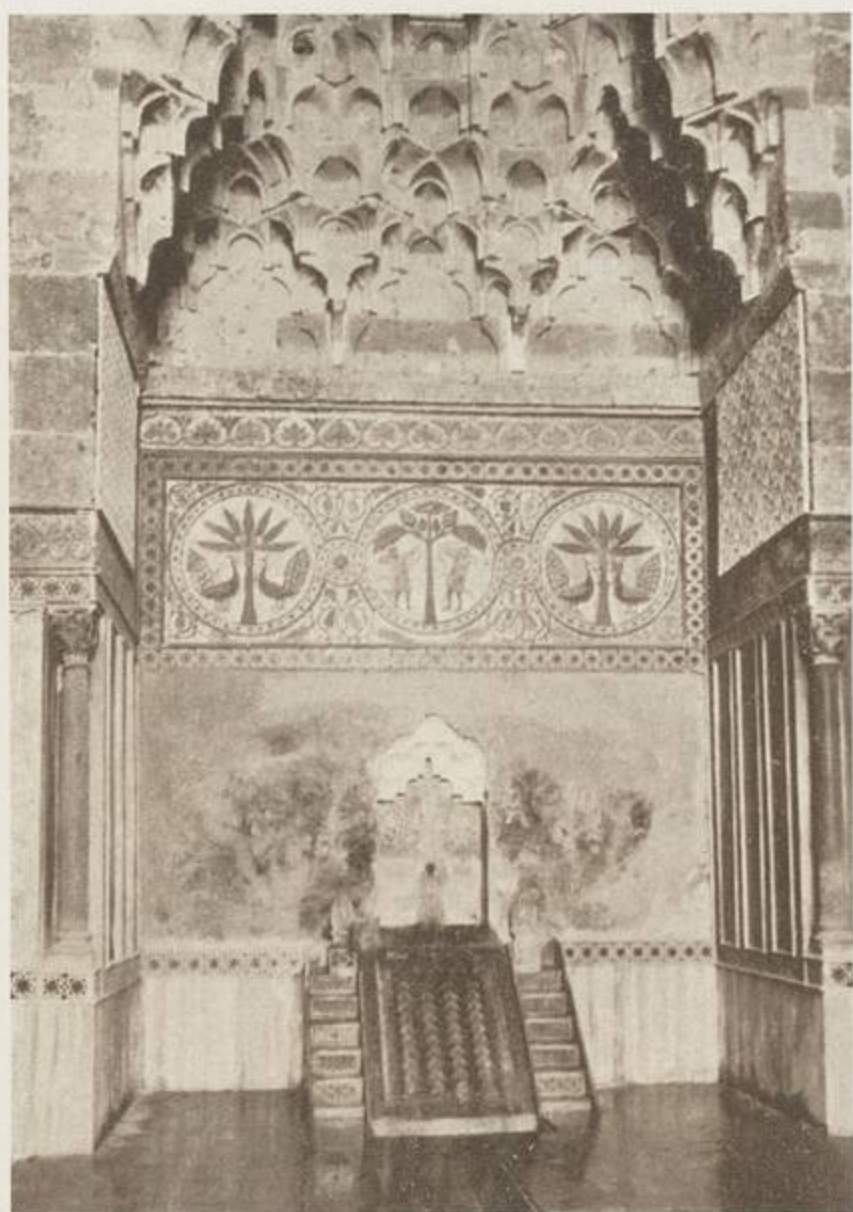


منظران لكاتدرائية موزيال

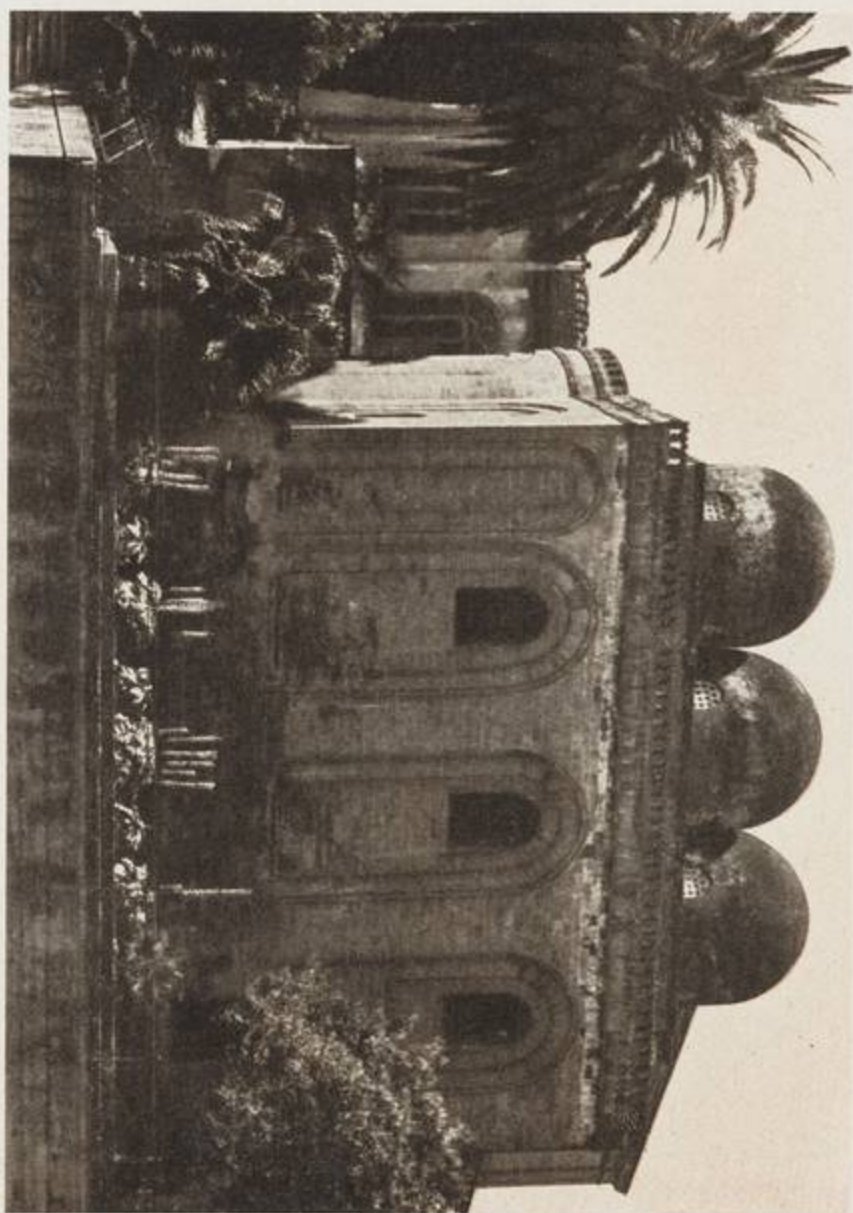




القبّة الحمراء



العين الجارية بالقاعة الكبرى بقصر العزيز



كنيسة القديس كالدو



« رداء حيريزي » رسم فيه غر يفترس جلًا ، وحوله كتابة كوفية ، تشير الى انه صنع سنة ٥٢٨ هجرية الملك رجار الثاني ، وكان ملوك الترمذ وابطاوة الا لان بعدهم يزلوه في حفلة التوزيع وهو محفوظ بتحف مدينة نورنبيرغ وصنعه على غلط صنع
 « العجار التوسني »



فى الحكم والتدبير والحروب طيلة حياته •

الاجهاز على الروم - لم يضع الوقت سدى ، ولم يرد ترك الروم يجمعون من جديد فلولهم لاعادة الكرة بعد نكبتهم الكبرى ، فبادر بمهاجمتهم بخيله ورجله ، وفاجاهم فى المعادل التى التجأوا اليها ، فاسترجع رمطة واسر من كان بها من بقاياهم ، ثم اجتاز البحر مسرعا الى قلورية ، فاحرق فى رجبو اسطول الامبراطور واسر امير البحر ينساتاس ، وارسل به مع عدد جسيم من عظماء الروم الماسورين الى بلاط الخليفة فى المهديّة ، ويقول بعض المؤرخين ان من جملة الغنائم التى وجه بها الى المهديّة سيف هندى بديع الصنع ان من جملة الغنائم التى وجه بها الى المهوية سيف هندى بديع الصنع منقوش عليه : « سيف هندى ، وزنه مائة وسبعون مثقالا طالما ضرب به بين يدى رسول الله »

الصلح : اذعن الروم للامر المقضى ، وعلموا انهم لن ينالوا من مسلمى صقلية منالا ، وان آمالهم خابت هنالك بصفة نهائية ، فعزموا منذ تلك الساعة على عدم التدخل مطلقا فى امور الجزيرة ، وارسلوا وفدا من القسطنطينية حل بمدينة المهديّة وتقدم امام الخليفة المعز ، يطلب الصلح ويعلن جهارا عزمهم على عدم العودة ، ويقدم للخليفة ولرجال بلاطه واعيان دولته هدايا نفيسة ، وتعاقد الجانبان على ان لا يعود الروم مطلقا لساحة صقلية ، ومقابل ذلك يخلى المسلمون طبرمين ورمطة لكى يسكنها المسيحيون من نصارى الجزيرة •

كانت هذه غلطة سياسية كبرى ارتكبها المعز ورجال شوراه ، لانها مكنت النصارى من شرق الجزيرة بعدما اخرجتهم منه شدة شكيمة المسلمين ، ولان تلك البقاع اصبحت فيما بعد ، كما سيمربك ، مركزا جهاد المسيحية ضد الاسلام بهاتيک الديار ، على يد الترمان • والحال ان نصارى الجزيرة كانوا على احسن حال مع المسلمين •

اصدر الخليفة امره المطاع للامير احمد بن الحسن ، باخلاء مدينتى رمطة وطبرمين تنفيذا للمعاهدة ، فاعتم المسلمون من ذلك وتألموا ألما عظيما واذعن الامير احمد للامر ، الا انه عمد قبل ذلك لتخفيف وقع تلك الغلطة فارسل اخاه

ابا القاسم صحبة عمه جعفر على رأس جماعة من المسلمين ، فاخرجوا من المدينتين كل السكان واعلموا فيها المعاول والفؤوس فلم يتركوا فيها حجرا على حجر واحرقوا بالنار هاتيك الانقاض فلم يتركوا للمسيحيين ، تنفيذ المعاهدة الا ركاما من خراب ورماد ،

ختان اطفال الجزيرة : ساد الجزيرة عهد فرح وسروروا من اثر ذلك النصر
ختان اطفال الجزيرة : ساد الجزيرة عهد فرح وسروروا من اثر ذلك النصر العظيم واقبل الناس على اعمالهم العمرانية وانشأتهم يصلحون ما افسدته ايدي الفتن السالفة ، وما اوقفهم سير الحروب والملاحم عن انجازه .

ومن اغرب ما حدث هاتيك الايام قبيل وقعة المجاز ، مما يدل على مبلغ ما تمتعت به الجزيرة من سكون وامن وعافية اثر ولاية الحسن بن على المباركة الطويلة وابنه وشريكه فى الحكم احمد بن الحسن ، ورد الامر من الخليفة المعز فى المهديـة بالاحتفال فى جميع جهات الجزيرة بختان جميع اولاد المسلمين الذين هم فى سن الختان ، وذلك فى نفس اليوم الذى يحتفل فيه المعز فى المهديـة بتطهير اولاده .

احصى الامير احمد الاطفال الذين يجب ختانهم تنفيذا لرغبة الخليفة فكانوا خمسة عشر الفا ، وابتدأ الامير بتطهير اولاده واخوته فى مستهل شهر المولد النبوى من سنة ٣٥١ ، ثم ختن اولاد الخاصة والعامة ، ووزعت الصلاة على جموع المختنين هدية من الخليفة الذى ارسل لصقلية بتلك المناسبة ، لتوزع على الاطفال ، مائة الف درهم وخمسين حملا من الهدايا .

ابو القاسم على

فى سنة ٣٥٨ (٩٦٨ م) استقدم الخليفة المعز للمهديـة امير صقلية احمد بن الحسن واولاه قيادة اساطيل الدولة لما اظهره من معرفة بفنون قتالها ومهارة فى قيادتها ، فارتحل الامير احمد من صقلية آخذ معه عائلته وامواله ومتاعه ، وترك الامر فيها لاختيه ابي القاسم على بن الحسن .
وكان هذا الامير رحمه الله من خيرة امراء الجزيرة من بنى الحسن ، عادلا

رحيما ، شديدا فى الحق ، مواسيا للفقراء والبائيسين ، قال ابن خلدون :
وكان عادلا حسن السيرة وقال عنه ابن الاثير وكان عظيم الصدقة ولم يخلف
دينارا ولا درهما ولا عقارا فانه كان قد وقف جميع املاكه على الفقراء وارباب
البر واستمرت ولايته السعيدة ١٣ سنة .

تدخل النرمان : فى هاتيك الاثناء ، والمسلمون فى صقلية يجمعون
شتاتهم ويرأبون صدعهم ، وقد امنوا رجوع الروم محاربين بعد ان دحروهم
مرات عديدة خلال عشرات السنين ، كان رجال النرمان قد وطدوا عزمهم على
الاستقرار بهاتيك النواحي ، ووجدوا فيها المرتع الخصيب ، وعلموا انهم
لا محالة متمكنون منها ، بعد جهود ومضى وقت . ابتدا النرمان اعمالهم
بنواحي ايطاليا فاحتلوا مدن ابر ندبزي وطارنطة التى كانت مركزا لا مارة
اسلامية مستقلة . ثم استولوا على جزيرة كرسكا واتخذوا منها مركزا
لاعمالهم ضد المسلمين ، وما كان النرمان يحاربون المسلمين وحدهم
بل كانوا يحاربون الجميع على السواء ويريدون ان يبتنوا لانفسهم هناك
ملكا على حساب المسلمين والباباوية والامارات الطليانية ، وعلى حساب
المسيحيين الذين جاءوا يزعمون انقاذهم من براثن المسلمين ، ثم هاجموا
مدينة رومة نفسها ، فى حديث ذى شجون .

رسالة البابا لامبراطور : ارسل البابا ليون التاسع رسالة صور فيها
حقيقة الامة النرمانية الى امبراطور القسطنطينية ، يستنجد به هؤلاء
الاقوام الوحوش ، ومما يقوله فى رسالته تلك :

« لقد انفطر قلبي اسى مما قصه على مندوبو ولدى ارجيروس ، فيما
يتعلق بفوضى الامة النرمانية ، وخبثها ، وسقوطها ، وازدراؤها بالدين زراية
بزت زراية الذين لا يؤمنون ، لذلك قد عقدت العزم على تخليص ايطاليا من
جيروت هؤلاء الاجانب الذين اندفعوا على البلاد متكالبين لا يحترمون شيئا ،
ويذبحون المسيحيين بعد اذا قتهم انواعا من العذاب الاليم ، ثم انهم ليستلهم
اي عاطفة انسانية ، فهم لا يميزون بين كبير ولا صغير ، ولا بين رجل وامرأة
وانهم لينتهبون الكنائس المقدسة ثم يحطمونها ويوقدون فيها النيران .

ولطالما لمت عليهم وشنعت باعمالهم وانذرتهم وحذرتهم عقاب الله ونقمته لكن صدق الحكيم الذى قال : ان من تخلى عنه الله بقى سرمدًا فى الشقاء ، ولن يرجع الكلام العقل الى المجانين » الخ .

لم يتلق البابا جوابا من الامبراطور الذى ترك نهائيا امر صقلية وايطاليا ، فاستنجد بالالمانيين ، الا ان اسقفهم اشار عليه بعدم محاربة رجال ينتسبون الى المسيح ، فما وسع البابا الا جمع جند باسمه وتحت رايته وحارب الترمانيين فانخذلت جموعه ، وانكسر ووقع بنفسه اسيرا بين ايديهم ، فتذلل لهم واستغفر ، ورفع عنهم حكمه الذى اصدره بكفرهم ، وباركهم فى جهادهم ، لكنهم رغم كل ذلك ابقوه اسيرا عندهم عاما كاملا الى ان افتدى نفسه منهم بدفع جعل ذريع .

قال قوسطاف لوبوز فى تاريخه الشهير « مدنيات العرب » عن هذه الفترة من فظائع الترمان ومقابلة رجال الكنيسة لهم بالمثل ما نصه :

« واستمر الترمان على اعمالهم : اذا ما تمكنوا من كنيسة انتهبوها ثم ذبحوا كل رهبانها ليامنوا عاقبة شكواهم . وكان الرهبان يقابلون اعمال الترمان بمثلها اذا ما تمكنوا منهم ، واليك وثيقة عثر عليها مسيو ايريمودرى ، فى خزائن ديرجيل كاسان وهى تعطيك صورة صادقة لعادات ذلك الزمن :

« ذات يوم جاء الكونت رودولف ومعه خمسة عشر من رجال الترمان لكنيسة جبل كاسين ، فتركوا عند بابها اسلحتهم وخيولهم حسب العادة المألوفة ودخلوا لاداء الصلاة . لكنهم لم يحسنوا اختيار الوقت اذ بينما كانوا جاثين على الركب امام مذبح القديس بونوا اوصد رهبان الكنيسة ابوابها ، واستحوذوا على اسلحة المصلين وخيولهم ، ثم دقوا اجراس الفزع والاستغاثة فاجتمع عليهم الناس من اجوار الكنيسة ، وهاجموا الترمانيين الذين لم تكن لهم بين ايديهم الا المسابح ، ثم انهم حاولوا عبثا تذكير المهاجمين بحرمة الكنائس ، وحاولوا كذلك عبثا اقناعهم بالمحرجات من الايمان انهم ما جاءوا الا قصد التبتل والعبادة ومصالحة رجال الكنيسة فان رجال الدين كانوا قد وجدوا الفرصة المناسبة فاغتنموها وقتلوا الخمسة عشر رجلا عن اخرهم ،

ولم ينج الا الكونت ردولف وحده ، اذ قد حماه راهب الدير ، وما اطلق سراحه الا بعد ان ارجع للرهبان كامل اموال وذخائر الدير التي كان قد انتهبها هو ورجاله من قبل »

نتيجة التدخل النرمانى : من نكد الدنيا على مسلمى صقلية ، انهم ما يجمعون امرهم حول استقلال داخلى واسع النطاق ، ويتولى امر الدولة فيهم رجال كرام من آل الحسن بن على ، يتوارثون الامارة ويصنون مركزها ولو الى حين من مطامع الطامعين وعبت العابثين ، وما كاد ينتهى تهديد الروم وتخفق نهائيا حملاتهم القوية العنيفة المتوالية ، منذ قرن ونصف القرن، ما كاد يتم كل ذلك بعد طول الجهاد وشديد البلاء حتى كان المسلمون يواجهون خطرا اكبر من هاتيك الاخطار السالفة ، ويقابلون عدوا اشد عنفا واقوى ساعدا وافظع اعمالا من اعداء الخارج والداخل مجتمعين ، ذلك هو الخطر النرمانى الذى ما زال بتلك الجزيرة حتى انهك قواها واسقطها مجندلة تحت مخالبه المفترسة .

فكانت كل ايام الدولة الحسنية بصقلية ، قد انقضت الى جانب اعمال باهرة فى ميدان العمران بالداخل فى حرب مستمرة عنيفة متوالية مع رجال النرمان المغيرين . وقبل ان ندرس تفاصيل هذه الحروب والمعامع فى الصفحات التالية نرى ان نسجل حكما اصدره على هذه الفترة المؤلمة وعلى اعمال النرمان فيها المؤرخ الاكبر الدكتور قوستاف لوبون حيث قال :

« أخذ هؤلاء المدافعون عن الدين المسيحى ، يتفانون فى اعمال السلب والنهب سعيا وراء الثروة ، اكثر من تفانيهم فى الدفاع عن الدين . وكانوا ينتهبون ارزاق اليونانيين والطلبيين والمسلمين بقسوة وشراسة متساوية فبقيت صقلية وبلاد ايطاليا المجاورة لها مدة خمسين عاما اى مدة الفتح ، تعتبر فى نظر هؤلاء المدافعين عن الدين المسيحى ، بلادا وهبها الله لهم كى يكتسبوا فيها الثروة والغنى بكامل السهولة والبساطة .

« وما كان لاعمال هؤلاء المدافعين عن المسيحية من نتيجة ، الاخراب الجزيرة بصفة سريعة ، حتى ادرك اهلها (المسيحيون) ان صداقة فرسان النرمان

لهم كانت اثقل وطأة عليهم من عداوة المسلمين »

الفاطيون بمصر : لم تكن الدولة الفاطمية التي درجت بين احضان كتامة بارض المغرب لتكتفى بما نالته من عزة وسلطان فى بلاد الشمال الافريقى ، حتى حدود برقة ، بل كانت ترمى بانظارها الطامعة صوب بلاد الشرق ، تريد ان تقيم على انقاض الخلافة العباسية الواهية ، وعلى انقاض الدويلات الاسلامية التى صيرت الشرق الاسلامى رقعة شطرنج بائسة ، دولة شيعية علوية تضم تحت لوائها ما فرق امره بنو العباس بضعفهم وتخاذلهم وتغلب الموالى والدخلاء على دولتهم .

كيف كانت حالة العالم الاسلامى والعربى يومئذ ، والحرب الصليبية الاولى تتقد فى صقلية وايطاليا نيرانها ، والحرب الصليبية الثانية التى يدعوها المؤرخون غلطا الاولى تختمر فى افكار رجال التعصب المسيحى ؟

كانت بغداد واكثر بلاد العراق وفارس تحت حكم دولة بنى بويه التركمانيين الذين لم يتركوا للخلافة الضعيفة الواهية الا الاسم وجلال اللقب ، وكانت مصر واكثر بلاد الشام فى يد بنى الاخشيذ ، والموصل وديار بكر ، فى يد بنى حمدان ، وخراسان وبلاد التركمان وراء النهر فى يد بنى سامان ، وطبرستان وجرجان فى يد ملوك الترك الديلم ، والبحرين واليمامة والكثير من جزيرة العرب فى يد القرامطة . اما انغرب الاروبى الاسلامى ، فقد كان زاهرا يانعا فى الاندلس تحت سلطان الامويين ، يواجه الحملات المسيحية فى ذلك العهد بجهوده الخاصة (I) رأى المعز لدين الله الفاطمى ان ساعة الضربة الحازمة قد آنت ، فارسل رأى المعز لدين الله الفاطمى ان ساعة الضربة الحازمة قد آنت ، فارسل قائده جوهر الصقلى او الصقلى على رأس جند عتيد من المغاربة ، وقد كان اهل مصر راسلوا المعز ورغبوه فى فتحها ونصب سلطانه عليها ، تخلصا من مظالم بنى الاخشيذ ، والاضطرابات المتوالية ، فحط جوهر اثقاله تجاه مدينة

(١) كان يتولى الخلافة يومئذ بالاندلس الحاكم بن عبد الرحمن الناصر . وبلغت الحضارة فى عصره شأوا بعيدا ، وقد كان مفرما بجمع الكتب فارسل النساخين لكل بلاد كى ينقلوا له كل المؤلفات الحديثة فتوفر له عدد فى مكتبته مثله لم يتوفر لملك من قبل وجعلها مكتبة عامة فى قصر مروان ، ولها خدمة وقيوم . وام قرطبة جمع غفير من الادباء والعلماء ورجال الفن من سائر الاصقاع ، وبلغت عندئذ مدينة الاندلس الاسلامية اوج عزها ومنتهى ازدهارها .

الفسطاط ففتح له اهلها الابواب ودخل مصر دون قتال ولا عناء ، وذلك فى رمضان سنة ٣٥٨ (٩٦٩م) ، فخطب فى مسجد عمر بن العاص للخليفة المعز ، ودانت له كل الناس ، ثم ارسل القائد البربرى جعفر ابن فلاح الكتامى ، فاجتاز الى ارض الشام ، ومعه جند كبير فافتتحها ، وخطب فيها للمعز ، واصبحت الدولة الفاطمية تمتد من ساحل المحيط الاطلسى الى ضفاف الفرات ، دون مشقة او عناء . لقد هنالك نوع من الفراغ يجب ان يعمر ، فعممه الفاطميون .

ثم اختط جوهر الصقلى مدينة القاهرة المعزية ، (وانما دعاها القاهرة لانه وضع اسسها عند توسط كوكب المريخ المعروف عند العرب بالكوكب القاهر) فابتنى فيها الدور والقصور ، واسس الجامع الازهر الشريف سنة ٣٥٩ ، واتمه ٣٦١ ثم سار المعز ومعه حاشيته ورجال دولته ، والقناطير المنطرة من امواله ، فدخل مدينة القاهرة فى رمضان سنة ٣٦١ ، واتخذها مقرا لخلافه الفاطميين العبيديين ، حيث مكث هنالك الى ان انقضت ايامها سنة ٥٦٧ (١١٧١) ، بموت العاضد لدين الله وقيام الدولة الايوبية على يد بطل الاسلام الخالد الذكر صلاح الدين الايوبى الكردي .

كان انتقال مركز الدولة من المهديّة الى القاهرة ، حدثا من اكبر الاحداث فى تاريخ صقلية الاسلامية حيث ان الخليفة قد عين لولاية المغرب احد رجاله المعدودين هو الامير يوسف بولقيين بن زيرى بن مناد ، رأس قبائل صنهاجة البربرية العظيمة ، ولم يجعل له سلطة فعلية على صقلية ، فبقيت الجزيرة تابعة رسميا لمركز الخلافة بالقاهرة البعيدة الناطرة لآفاق اخرى ، انما كانت مستقلة بصفة فعلية تحت امرة الملوك من بنى الحسن ابن على ، وكان ذلك من جملة اسباب تدهور الحكم الاسلامى فى صقلية ، بعد حين . اذ كانت دولة صنهاجة لا تعنى الا بتوطيد ملكها وتوسيع عمرانها وتدعيم مدينتها التى بلغت اوج منعته وعلاها ايام المعز ابن باديس . وكانت دولة الفاطميين فى القاهرة تنظر الى الشرق ولا تكاد تنظر الى الغرب ، وبذلك خلا الجو لوحوش النرمان يفترسون كما شاءوا مسلمى الجزيرة ، حتى اذا ارادت دولة صنهاجة

امدادهم وانقاذهم كان الخطب قد اتسع على الراقع ، وتدهورت الدولتان معا ،
دولة صقلية على يد النرمان ودولة صنهاجة على يد الاعراب من بنى هلال
وسليم .

ولنرجع الآن - بعد هذين التمهيدين - لدولة ابي القاسم على ، المعروف
بالشهاد ، ولنسجل في هذه الصفحات اعمالها :

استمرار الفتح : فى سنة ٣٦٥ (٩٧٩) سار الامير ومعه جماعة من
العلماء وكبار القوم على رأس قوة عتيدة لمنازلة مدينة مسينا التى كان العدو
قد اتخذها مركزا لاعماله ضد المسلمين ، فنصب الحصار على تلك المدينة
الى ان ضاق اهلها ذرعا فخرجوا يسألونه الامان ، ويعلمون الطاعة ، فاجابهم
للصلح رحمة بهم وتقاضى منهم مال الجزية .

ثم سار يوالى فتح ما استولى عليه الفرنج من ارض الجزيرة وقلورية
فافتتح مدينة اغانة Santa Agata وغنم جميع ما اعده المسيحيون فيها .

ثم امر سنة ٣٦٦ بتجديد بناء مدينة رمطة ، وقد كان حطمها الامير احمد
بن الحسين ، كيلا تكون مركزا للمسيحية ، وفى تلك السنة سار على راس
المسلمين الى مدينة طارنطة فى جنوب ايطاليا ، وقد اتخذها النرمان مركزا
لاعمالهم وقرصنتهم فتحصن المسيحيون بها ، واستعدوا للنزال ، وهاجمهم
المسلمون بقوة وعنف فاقتحموا الاسوار وكسروا الابواب ، وفتحوها عنوة
المسلمون بقوة وعنف فاقتحموا الاسوار وكسروا الابواب ، وفتحوها عنوة
واقتدارا ، واصدر الامير امره بدك جدرانها ، واعفاء مراسمها كيلا تكون
داعيا لرجوع العدو مرة اخرى ومركزا لاعماله ضد المسلمين .

انتصار قلورية واستشهاد الامير : بينما كان زعيم النرمان برودويل
يستعد لمقارعة المسلمين ويحتل بعض المواقع على السواحل الصقلية ، نزل
الامبراطور الالماني اوطون الثانى يوطد ملكه بالبلاد الطليانية ، فيحتل روما
ويصمد لمقارعة المسلمين . ولقد خشى الروم زوال سلطانهم وانتهاء
نفوذهم على يد الالمان فاستصرخوا المسلمين بصقلية ، فهب الامير ابو القاسم
للقاء جموع الالمان والنرمان واراد المبادرة باحتلال كسنته مركز المسيحيين

المنيع ، وكان هؤلاء قد استعدوا للقائه في بلاد قلورية ، فدارت المعركة العنيفة الهائلة في موقع غير ملائم للمسلمين بمضيق بين جبلين يمكن للنصارى ان يحدقوا فيه بالمسلمين من كل ناحية ، فرأى ابو القاسم وجوب الانسحاب فورا ليتلقى صدمة النصارى في منبسط من الارض يمكنه فيه ان يدير حركاته بكل حرية .

لكن النصارى لم يتركوا للمسلمين فسحة من الوقت لانجاز تلك العملية وتتبعوهم بشدة وعنف فكاد الانسحاب الجزئي ينقلب انهزاما كليا واستمر ذلك التتبع مدى خمسة عشر يوما حتى وصل المسلمون الى مكان فسيح عند ساحل البحر وتكاثر عليهم جند الفرنج ، واحاطوا بهم من كل ناحية ثم اقتحمت طائفة منهم قلب المعسكر الاسلامى حتى بلغت مكانا اتخذ الامير ابو القاسم مقرا لقيادته وقد كان راكبا جواده وحوله خاصة رجاله ، فاقتتل الجميع هنالك ، وضرب احد جنود الالمان الامير ابا القاسم ضربة هائلة من سيفه شقت هامته وخر رحمه الله صريعا شهيدا على شاطئ البحر ، واستمرت المعركة عنيفة هوجاء ، ولم يعلم المسلمون ولم يعلم النصارى ما حل بالملك المسلم الشهيد .

ثم اجتمعت ميمنة المسلمين وميسرتهم حول القلب فسدوا الثلثة التى احدثها النصارى هنالك ، وقاموا فى الحين بهجوم مضاد ادهشت شدته جموع النصارى فانقلبوا على اعقابهم ، وتتبعهم المسلمون يشخون فيهم قتلا ، واستولوا على جميع محلات المهزمين وعددهم وسلاحهم ، واسفرت المعركة عن قتل اربعة آلاف من الفرنج ، وجرح الامبراطور واطون جرحا ادى الى موته فى دسامبر ٩٨٣ بعد ان التجأ منهزما خائبا الى رومة (١) .

ثم حمل المسلمون جثث اميرهم الكريم فنقلوه الى صقلية حيث وورى التراب ، رحمه الله رحمة واسعة ، وذلك فى شهر المحرم سنة ٣٧٢ (٩٨١) .

جابر بن ابي القاسم على

اجمع الناس يومئذ على نصب ابنه جابر ، اميرا مكانه ، عله يقتفى خطى

والده الموفقة ، لكن الولد لم يكن هذه المرة نسخة من ابيه ، وهل تلد النار
الا الرماد ؟ فان جابرا ترك امر الجهاد وتديرير الملك واشتغل بالملاذ حسب
عبارة ابن خلدون ، واضطربت احواله .

ولم يكن الخليفة الفاطمي في مصر قد اعترف بهذه الولاية ولم يقرها بعد ،
فاجتمع جند صقلية واهل العقد والحل فيها ، واعلنوا خلع جابر وترقبوا
قدوم ابن عمه الوالى الجديد الذى عينه الخليفة الفاطمي :

جعفر بن محمد بن الحسن بن على

كان من نخبة الامة ، وعلية القوم ، وكان من اصحاب الرأى والتدبير
والمكانة السامية فى بلاط الخليفة العزيز بالله ابن المعز لدين الله ، وقد كان
الوزير ابن كاس يغار من جعفر ويحسده على مكانته ، فعندما جاء الخبر
باستشهاد الامير ابى القاسم على اشار ابن كاس على الخليفة بتولية جعفر
بن محمد مكانه ، يريد بذلك ابعاده عن البلاط والتخلص من نفوذه .

قبل جعفر الولاية وهو كاره لها ، وسار الى صقلية اخذا معه اليها القائد
التركي سبستكين الذى كان حسب عبارة ابن الخطيب فى اعمال الاعلام من
جملة الترك الموصوفين بالشجاعة .

وصل جعفر صقلية يوم الاربعاء ٢٥ صفر سنة ٣٧٣ ، فسلم له جابر الامر
عن طيب خاطر بعد ان حكم حكما خائرا مدة سنة ، واستنشر الناس خيرا
بولاية جعفر الذى سبقت شهرته طلعت ، ومهدت سمعته له الامر ، فحسنت
الاحوال ، واستقامت الامور ، وانزوى رجال النرمان اثر هزيمتهم الشنعاء
السالفة ، فاخذ جعفر يصلح ما فسد ، ويرمم ما تهدم ، ويعمر البلاد ، وقد
جمع حوله ثلة صالحة من رجال العلم والادب ، وكون فى قصره ببالرمة بلاطا

(١) يقول بعض مؤرخى الفرنج ان المسلمين اسروه ولم يعلموا انه الامبراطور ثم اطلقوا سراحه
مقابل مال جزيل اقتدى به نفسه ؛ بينما يقول آخرون انه نجا من الاسر بفضل سفينة رومية
امكنه الانتجاء اليها .

ملكياً فآخراً ، وكان رحمه الله من فرسان الميدان فى الشعر والادب والعلوم .
من اجل جارية يخرب ملكا : كانت للخليفة بالقاهرة جارية صقلية عزيزة عليه محببة اليه ، وكان اخوها راهباً فى البلاد الصقلية ذا مكانة وملك ، فبلغت الجارية من قلب الخليفة الضعيف مبلغاً جعلته يقبل مطلبها ، ويدعن لمشيئتها ، فيرسل الى جعفر امير صقلية ، يامره بان يرجع للراهب اخى جاريته ، قلاع : بنقش ، وطبرمين ورمطة ، وان يرجع اليه مع ذلك كل سبى عنده قديم وحديث من تلك البلاد . وبعد شهر من ورود امر الخليفة ، جاء الراهب صقلية ، يستنجز الامير تنفيذ ما امره به خليفة القاهرة .

علم جعفر انه ان نفذ ذلك الامر فكانه قد نفذ حكم الاعداء على الجزيرة ، لانه سيمكن النصارى من قاعدة ما استطاع المسلمون تحطيمها الا بعد جهاد مائة عام ، وعظم عليه كذلك ان يعلن عصيان الخليفة ، ويرفض تنفيذ امره ، انما عظم عليه اكثر من ذلك ان يخرب ملكاً من اجل جارية ، فعمد الى حيلة الارب وسيااسة الداهية فانقذ صقلية من الخطر مؤقتاً ، واحرز على رضى الخليفة فى آن واحد واليك البيان :

انزل جعفر الراهب الملك فى قصر واحاطه بالعيون ، ومنع عنه الاجتماع بمن يريد من الناس وابقاه كذلك نحواً من اربعة اشهر ، ثم تظاهر بانه يريد تنفيذ الامر المطاع فجمع للراهب ، بصفة سبى يجب ارجاعه ، جماعة من الشيوخ والمعائز والمرضى ، واصحاب العاهات ، فدفعهم اليه وامره بالرحيل بهم حالا ، فضاق ومن هنالك راسل الخليفة العزيز واعلمه بان عامل صقلية لم ينفذ الامر .

كان جعفر يعلم ان الراهب سوف يوالى دسائسه وان الآمرة الناهية فى قلب العزيز ستستعمل اقصى جهود المرأة المدللة ، للوصول الى غايتها ، فبادر انجازاً للحيلة ، باقتناء مركب اندلسى شحنه من ماله بالكثير من تحف الاندلس وطرائفها ، وكتب للخليفة يقول : ان ابن ابى عامر المعروف فى التاريخ باسم الحاجب المنصور صاحب الامر ببلاد الاندلس ، قد راسله يرغب

تاريخ صقلية - ١١

اليه امر الدعوة الاموية ، ويدعوه للانضواء تحت لوائها ، وانه يرسل له من خيرات الاندلس ، ويقطعه من اعمالها ماشاء ، وانه هاداه بالمركب المشحون بالنفائس الثمينة ترغيبا له ، لكنه امتنع من قبول تلك الدعوة وأصر على ولاء القواطم بالقاهرة .

انطلقت الحيلة على العزيز ، فبادر بمراسلة العامل الصقلي يشكره على امتناعه مما دعاه اليه زعما صاحب الاندلس ، ويحضه على التمسك بما كان عليه محمد ابوه وحسين جده وبقية آل الحسن من الطاعة والولاء .
وأعرض الخليفة بعد ذلك عن اجابة مطلب الراهب ، والانقياد لرغبة المحبوبة فذهبت جهود الاخت واخيها سدى . وكفى الله المؤمنين القتال ، بواسطة السياسة والدماء .

استمر الامير جعفر يحكم صقلية حكما عادلا نزيها ، والامة مقبلة على اعمالها واعداء الخارج راكدون ، واعداء الداخل نائمون ، الى ان توفاه الله ، بعد سنتين من ولايته ، سنة ٣٧٥ .

عبد الله بن محمد بن الحسن بن علي

بايع الناس بالامارة بعد جعفر ، شقيقه عبد الله فحقق الامير الجديد آمال الامة فيه ، وسار سيرة شقيقه الصالحة ناصحا امينا ، مقيما للعدل ، رحيفا بالرعية ، ولم تطل ايامه في الملك اذ وافاه الاجل يوم ٢٣ رمضان سنة ٣٧٧ .

ابو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد

ولى الامر ، بارادة الامة ، بعد ابيه ، وكان غلاما ، انما توهم الناس فيه خيرا فوجدوا فيه خيرا ، وكان حسب كلمة ابن خلدون « قد انسى بجلالته وفضائله من كان قبله منهم » .

وقد وصله سجل الولاية من الخليفة بالقاهرة ومنحه لقب ثقة الدولة وكانت ايام الناس في مدته ، كما يقول ابن الخطيب في اعمال الاعلام ، على افضل

ما يشتهون ، وقد ضبط البلد ضبطا محكما ، وظهر من كرمه وجوده
وسماحته ، مالا يفي به وصف ، وعم العدل والرخاء والامن والاطمئنان كل
جهات الجزيرة ، لم يتحرك فى وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خارجها .
قال الشاعر الكبير ابو محمد عبد الله بن محمد التنوخى المعروف بابن
قاضى ميلة يمدحه من قصيد طويل ، هو من غرر الشعر :

اگر ، قضاى يكاد نواله	لكثرة ما يدعوا الى الشكر يجحف
اذا نحن اخلفنا ماخل ديمة	وجدنا حيا معروفه ليس يخلف
ويقظان شاب البطش بالدين فالتقى	بكفيه ما يرجى وما يتخوف
حسام على من ناصب الدين مصلت	وستر على من راقب الله مغدف
يسايره جيشان : راي وفليق	ويصحه سيفان : عزم ومرهف
مطل على من شاء فكانما	على حكمه صرف الردى يتصرف
يرى رايه ما لا ترى عين غيره	ويقرى به ما ليس يقرى المثقف
رعى الله من ترعى حمى الدين عينه	ويحمى ربه الاسلام والليل اغطف
ومن وعده فى مسرح الحمد مطلق	وايعاده فى ذمة الحكم موقف
ومن يضرب الاعداء هبرا فتثنى	صناديدهم والبيض بالهام تقذف
رماهم بمجر ضعضع الارض رزه	كان الروابى منه بالنيل تدلف
كان الردينيات فى رونق الضحى	اراقم فى طام من الآل ترجف
يعود الدجى من ليله وهو ابيض	ويبدو الضحى من نفعه وهو اكلف
ويحجب نور الشمس بالنقع عنهم	ففعول الطبا فى هامهم لا يكيف
لهم كل عام منك جاوز فليق	يسائل عنهم بالعوالى فتلحف
اذا ما طووا كشحا على قرح عامهم	وبلوا من الآلام انشات تقرف
فكم من اغم الوجه عار تركته	وهاديه عتشن ولحيه اكشف
لعمرى لقد عاديت فى الله طالبا	رضاه وقد ابلت ما الله يعرف
فطالبتهم فى الاهل حتى تركتهم	فرادى وفى الاديان حتى تجحفوا
فيا ثقة الملك الذى الملك سهمه	يراش لا كباد الاعادى ويرصف
... وقاله بالسعد نجلك جعفر	فيا لك من عيد بملكين يتحف
فمازلت تستجدى فتولى وترتجى	فتكفى وتستدعى لحطب فتكشف

اثناء ولايته ، مات فى بلبيس بمصر سنة ٣٨٦ ، الخليفة العزيز بالله ،
وتولى الخلافة بعده اشقى عباد الله وشيطان الخلفاء الرجيم الحاكم بامر الله ،

فاستوزر الحسن بن عمار بن علي ، وهو ابن عم امير صقلية المصلح العظيم .
صفحة سوداء في تاريخ الفاطميين : ارى ان اذكر هنا استطرادا ، وقد
 جردنا الحديث لذكر الطاغية الحاكم بامر الله ، شيئا من سيرة هذا الجبار
 العنيد لترى الى حد انحطت اخلاق المسلمين في الشرق وماتت قوتهم المعنوية
 وبلغت بهم المذلة والمهانة ، حتى صبروا لحكم كافر جبار ، فاسق فاجر ،
 فكأنهم هم الذين خاطبهم معروف الرصافي رحمه الله بقوله :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
 واعجب من ذا انهم يرهبونها واموالها منهم ومنهم جنودها

فكان يامر ببناء الكنائس والمساجد والبيع ، ثم اذا ما تم بناؤها امر بهدمها
 على رؤوس من فيها ، ثم ادعى انه صورة الله ، وان روح الله حلت فيه ، فامر
 بان يقف الناس اجلالا لاسمه عندما ينطق به الخطيب في صلاة الجمعة ، فاطاع
 الناس من نذلتهم امره حتى في الحرمين الشريفين ، وامر بهدم كنيسة
 القيامة في القدس الشريف سنة ٣٩٧ (١٠٠٦) فحدث بذلك رجة هائلة في
 العالم المسيحي كله ، مع ما يصحب ذلك من المبالغات الشعبية ، واذكى بذلك
 نارا كانت تتقد من قبل استعداد للحروب الصليبية الاستعمارية ، وادعى
 ذلك الفاسق الشرير الظالم السفاك للدماء انه يعلم الغيب مع الله ، فوضع
 له رجل على المنبر هذين البيتين :

بالجور والظلم قد رضينا
 ان كنت او تيت علم غيب
 وليس بالكفر والحقارة
 بين لنا كاتب البطاقة

وما انجى المسلمين من شروره وآثامه الا اخته ، وويل لامة تعمل امرأة
 واحدة فيها مالا يعمل سائر الرجال مجتمعين ، ويقال انه اراد منها منكرافدست
 له في جهة حلوان من قتله عندما كان يترصد النجوم وذهبت روحه الشريرة
 الى نقمة الله وعذابه السرمدي .

فليقا بل الناظر بين هذا الملك الطاغية ، وما عاناها مسلمو المشرق في نذالة
 وضعة واستكانة في ايامه وبين ما كان مسلموا صقلية يتمتعون به من امن-
 ورفاهية واطمئنان .

وان اردت ان تعرف مدى ما لصق بالدين فى هذا العهد المظلم من خرافات
واباطيل وبدع منكرة صيرت الاسلام نوعا من الوثنية او شرا من الوثنية ،
فاسمع لابن ابى دينار.يقول فى كتاب « المؤنس » :
« وكان بعض شيعته من المغاربة يزعم انه يعود ، فكانوا اذا راوا سحابة فى
الجو سجدوا لها زعما منهم انه فى السحاب » .

تاج الدولة جعفر بن يوسف بن عبد الله

استمر الامير يوسف ، يدير امور صقلية ادارة عادلة رحيمة ، الى ان قضى
الله عليه بدء الفالج اصابه سنة ٣٨٨ (٩٩٨) فعطل جانبه الايسر ، واتفق
الناس معه على تسليم امر الدولة ، لابنه جعفر ، ففعلوا ووضعوه على كرسى
الامارة وراسلوا بذلك طاغية الفاطميين بالقاهرة الحاكم بامر الله فصادق على
ذلك وارسل لجعفر سجل الامارة واعطاه لقب « تاج الدولة سيف الملة »
ثورة على : فى ايامه انتهى عهد النظام والامن والرفاهية (٥٠ سنة) وابتدا
عهد التدلى والسقوط الذى انتهى بزوال سلطان المسلمين من الجزيرة ووقوعهم
تحت سلطان النرمان .

راى على بن يوسف انه حق بالامارة من اخيه فاستمال اليه جماعة من البربر
الذين يتبعون كل ناعق ابتغاء الفتنة ، وجماعة من العبيد وتصدى لمحاربة اخيه
جمع جعفر جموعه وخرج للقاء الاخ الخائن فاشتعلت الحرب بين الاخوان
وتمكن جعفر من اخيه الغادر فقتله وقتل من نصره من البربر والعبيد ثم امر
بنفى جند البربر (١) من صقلية فنفوا ، منها وامر بقتل سائر العبيد ، وجعل
جنده من اهل صقلية المسلمين خاصة . فقل بذلك حسبما يرويه البكرى جنده
وسبب له انهيار ملكه .

ثورة الامة : كانت سيرة جعفر اول امره حسنة مقبولة الى ان استوزر كاتبه

(١) اى رجال كتامة الذين كانوا انصار الحكم الفاطمى وحماته . لكنهم لم يرحلوا جميعا ،
كما سترى فيما بعد .

حسن بن محمد الباغانى وكان فظا غليظ القلب ، وسلم له السلطة واطلق يده فى الاعمال ، فاستخف هذا الوزير الوصولى باعيان الامة وشيوخ البلاد وقوادها وامعن فى اهانتهم ، وسلك سياسة اقتصادية تخالف ما الفته البلاد ، ففرض الجباية والاعشار على طعام الناس وثمارهم ، وكانت عادتهم من قبل ان يدفعوا عن كل زوج بقر شيئا معلوما قلت محصولاتهم او كثرت ، ولو انه احسن المعاملة واخذ الناس بالحسنى وخاطبهم باسم الدين لكانت سياسته انجح وخطته اوفق لانها اقرب للزكاة الشرعية مما سار عليه اهل صقلية . لكن الغلظة وسوء الطباع لاتثمران الا الفتن والقلقل . ولقد خاطبه القوم فى الامر فاستغلظ عليهم فثارت البلاد ثورة عامة سنة ٤١٠ (١٠١٩) وحاصر الناس قصر الوالى واشرفوا على اخذه .

عندئذ امر الشيخ العجوز المصاب بالفالج الامير يوسف والد الامير جعفر ان يحمل على محفة وان يخرج للقاء الثائرين فلما رآه هؤلاء وكانت له مكانة عظمية فى القلوب اشفقوا عليه ورثوا لحاله فخاطبهم فى شأن ابنه جعفر فاشتكوا من شدته وسوء تدبيره وتدبير وزيره ، وطلبوا منه ان يعزله وان يولى عليهم ابنه الآخر احمد الاكحل فاستجاب الى ما طلبوا ، واعلن عزل جعفر وتولية احمد ، ففرح الناس بذلك واستبشروا به خيرا ، وانتهى امر الثورة بسلام .

ثم ان يوسف خاف ان يصاب ابنه جعفر بمكره ، او ان تسول له نفسه القيام على اخيه ، فجهز له مركبا حمله مع آله وامواله الى مصر ، وبعد قليل التحق به ومعه من الاموال ٦٧٠ الف دينار ، وقد كان ليوسف من الدواب ثلاثة عشر الف حجرة دون البغال ، ومات رحمه الله بمصر وليست له دابة واحدة . ومن هذا العدد الجسيم ، ومن مقدار ما حمله معه من المال الى مصر ،

تدرك مدى الثروة الجسيمة التى بلغها اهل صقلية فى منتهى ذلك العصر انزاهر

خسارة جنوب ايطاليا : كان جعفر قد اخذ يوالى الفتح فى جنوب ايطاليا

عند ولايته ، فاحتل كاليارى وبيزه سنة ٣٩٠ (١٠٠٠) ثم انه فى سنة ٣٩٢

(١) هاجم مراكز المسلمين دوج البندقية « ارسولو » واقتك منهم مدينة بارى،

عاصمة الامارة فخسروها انها ، وحلت بالمسلمين نكبة فى مدينة ريجيو حيث

خسروا اسطولهم .

ولقد اعادوا الكرة واحتلوا سنة ٣٩٧ (١٠٠٧) مدينة كوسترا Cosenza لكنهم لم يستطيعوا هنالك ثباتا ، وكانت حوادث الثورة ضد جعفر ، وارجاعه البربر لافريقيا قد اضعفت الجند وقللت من عدده ، فاضطر المسلمون لاختلاء قلورية مرغمين تحت ضغط القائد اورسييت ، وذلك سنة ٤١٤ (١٠٢٣) ايام احمد الاكلح السوداء .

الهجرة الى صقلية : اثناء تلك الحوادث ، وفي سنة ٣٩٥ (١٠٠٥) ، وقعت بالبلاد الافريقية مجاعة هائلة وقحط شديد فمات الناس موتا ذريعا من جراء ذلك حتى خلت البوادي واكثر الحواضر ، وخلت الاسواق والمساجد وعمدت البهائم وضاعت الارض بما رحبت فيعم الناس شطر صقلية ، وسارت اليها المراكب يتلو بعضها بعضا حاملة جموع اللاجئين من عامة القوم وخاصتهم ، ومن سكان الحواضر والبوادي ، فتقبل امراء صقلية هذه الجموع اللاجئة على الرحب والسعة وافسحوا لهم مكان العيش ويسروا لهم اسباب الارتزاق . واختلت بذلك لامحالة موازين الاقتصاد .

استطرد عن اعمال المسلمين بجنوب ايطاليا

ارى من المفيد تعريب الفصل الثانى من كتاب «غارات الهمج» تاليف المؤرخ الكبير فردينان لوط وقد حوى خلاصة وافية عن تدخل المسلمين فى البلاد الطليانية ، مما يضىفى نورا جديدا على ما ذكرناه آنفا خلال تسلسل الحوادث قال :

كانت مدينة نابولى قد اضطرت تحت ضغط الدوق سيكار امير بينيفانت لان تدفع جزية له ، وما قبل اهل نابولى امضاء المعاهدة التى عرضت عليهم سنة

(١) فى هذه السنة توفى ببلاد الاندلس بطلمها العصامى الكبير محمد بن ابي عامر ، الملقب بالمحارب المنصور : الذى نالت بلاد الاندلس فى ايامه عزة وسلطانا قلما بلغتاهما دولة : ودامت ايامه فى حكم مستبد عادل ٣٦ عاما غزا خلالها اثنتين وخمسين غزوة ، كان النصر فيها حليفه .

١٨٣٦ المكرهين وجليين ، ولقد استغاثوا بامبراطور الفرنج لويس الناسك ، فلم تجد استغاثتهم اذنا صاغية . عندئذ اتجه الامير اندرى دوق مدينة نابولي نحو مسلمى صقلية يستنجدهم فلبوا دعوته وانجدوه ، واضطروا خصمه اللومباردى للانسحاب سنة ٧٣٨ ، ثم اعاد المسلمون الكرة بحرا واحتلوا مدينة ابرنديزي وما انسحبوا منها الا بعد ان تركوها طعمة للنيران .

اخذ المسلمون يوالون التقدم لحسابهم الخاص ، فاحتلوا مدينة « طارنطة » رغم محاولة اهل البندقية الدفاع عنها ثم تمكنوا من مدينة « انقونة » . ورات البندقية يومئذ انها مهددة فعلا فاخذت تتسلح وتجهز ، لكن اسطولها غلب وانهزم تجاه اسطول المسلمين سنة ٨٤٢ .

ولقد كان موت سيكار الأنف الذكر سنة ٨٣٩ مساعدا للمسلمين على انتصاراتهم الباهرة ، اذ ان المملكة اللومباردية الكبرى قد انقسمت على نفسها اثر موت عاقلها ، وتآلفت على انقاضها مملكتا بينيفانت وسالرنه ، وكانتا مرتعا للفتن التى يثيرها الطامعون فى الملك .

وما كان لهؤلاء الطامعين من معين يعتمدون عليه الا جند المسلمين يستنجده مرة بعد اخرى احد الطامعين ضد خصمه ، ومن هذا القبيل ان الامير رادلشيس بينيفانتى قد استعان بالمسلمين ضد خصمه الامير سيكو نولف السالرنى ، كذلك كان كونت مدينة (بارى) الامير باندو قد فتح لهم ابواب مدينته ، ولم يكن النجاح حليف المسلمين فى نصرة هذا الامير ، فقد انهزموا ورجعوا للمدينة بارى فتمكنوا من اكنافها واصبحت لهم طيلة ثلاثين سنة مركزا Niemaiashرونه منه اعمالهم وغاراتهم ، ولقد اضطر رادلشيس ان يفتح ابواب عاصمته بينيفانت فى وجه حلفائه الاشاوس ، وكان المسيطر الحقيقى على تلك الامارة هاتيك الاوقات هو زعيم المسلمين « مصعر » وذلك ابتداء من سنة ٨٤٢ .

ارتأى يومئذ الامير سيكونولف ان يقاوم مسلمى صقلية بجموع من مسلمى اسبانيا وجنوب فرنسا وحتى المسلمين الذين افتتحوا جزيرة اقريطش عام ٨٢٦ ، وهكذا تمكن من افتكاك مقاطعة بيفنتان من بين يدي خصمه لكنه لم يستطع الاستيلاء على العاصمة (بارى) .

فى اليوم الخامس عشر من شهر جوان ٨٤٤ وقع تتويج الامير لويس ، ابن الامبراطور لوثير ملكا على ايطاليا ، وكبرت الآمال فى رؤية هذه البلاد موحدة القوى بصفة كانت فى اشد الحاجة اليها ، لكن الملك الشاب واجه الفوضى العميقة العميقة التى كانت قد ضربت اطنابها فى البلاد ، ثم ان المملكة قد ذاقت الامر من جراءتها ونها بامر الاسطول الحربى .

ذلك ان البحر الابيض المتوسط كان يومئذ بحيرة اسلامية خاصة ولم يكن اى اسطول من اساطيل المسيحية يستطيع ان يعترض لاعمال السفن الاسلامية فى غاراتها وفى انزال الجند بصفة متوالية فى مختلف السواحل .

اتسعت اعمال الاسطول الاسلامى وعمت السواحل الطليانية ، فعمد دوق مدينة نابولى الامير سيرج لجمع قوى امرات نابولى وقايت واملفى وسورننه ليتمكن من مقاومة تلك الغارات ، لكنه لم يستطع منع المسلمين من احتلال جزيرة ايتسياوراس سورننه والتمكن منهما .

فى سنة ٨٤٦ وقع الخطب الجسيم الذى تزلزل له العالم المسيحى لوعة واسى وذلك ان اسطولا اسلاميا يشمل ٧٣ سفينة ، كان قد اقلع من افريقيا واستولى على مدينة اوستى عند مصب نهر التيبر ، ثم اجتاز ذلك النهر حتى ارسى تحت جدران مدينة رومة يوم ٢٦ اوت من تلك السنة .

لم تكن لدى المسلمين يومئذ قوة كافية تمكنهم من مناجزة رومة القتال ومحاولة احتلالها ، فانتهبوا كنيسة القديس بطرس والقديس بولس ، وهما خارج الاسوار وانتهكوا حرمة قبور القديسين ، وما تركوا تلك الاصقاع مثقلين بالغنائم والاسلاب الا عندما اصبحت خالية من الزاد اللازم لهم .

ذهبوا على الاثر يحاصرون مدينة قايط ، ولم يستطع الفرنج ولا اللومبارد صدهم عن ذلك فكانت خيبة المسيحيين متوالية ، لكن مدينة قايط قد تصلبت فى الدفاع وما انقضت الا عاصفة هوجاء اتلفت اغلب سفن الاسطول الاسلامى . مهما كانت امبراطورية الكارولين (خلفاء شارلمان) قد سقطت فى مهاوى الانحطاط فانها لم تكن قادرة على عدم التدخل ومحاولة وضع حد لهذه الحالة لذلك اتفق الامبراطور لوثير وابنه لويس ملك ايطاليا وباشرا تحصين الجهة

التي يلتقى فيها نهر التير بالبحر وذلك دفاعا عن كنيسة القديسين ضد غارة اسلامية اخرى ، كما وطدا عزمهما على مهاجمة المسلمين الذين استقرت اقدامهم في مملكة البيفتان ، واستصرخا رجال المسيحية لاعانتهم على ذلك واستقر القرار اخيرا على ان الجند الاصلي المؤلف من الفرنج وجهات بورغونيا وبروفنسا (بالبلاد الفرنسية) يجتمع عند مدينة بافيا يوم ٢٥ يناير ثم يقصد مدينة لارينو حيث يجد العمارة البحرية البندقية وجند دولة البابا وفي تلك الاثناء يجب على اسقف مدينة اريزو ، ومركز مدينة اسبوليت ، ودوق مدينة نابولي ، ان يحاولوا جميعا اصلاح ذات البين بين امراء بلاد بينفانت المتخاصمين .

نجحت هذه المحاولة وكللت بالفوز ، وتمكن الحلفاء المسيحيون من استخلاص مدينة بينفانت ، وهناك وقع القضاء على كامل الحامية الاسلامية وزعيمها الامير مصغر (١) ثم اقتسم الاميران راشلديس وسيكوقولف كامل بلاد ايطاليا الجنوبية وتعهدا على ان لا يركن احدهما لجانب المسلمين ضد خصمه مرة اخرى وتم كل ذلك سنة ٨٤٧ .

يقيت يومئذ بين ايدي المسلمين مدينة « باري » يبعثون منها غزاتهم وسراياهم فتولى زهبان « دير كاسان » نشر الدعوة لمحاربتهم واقتنعوا الملك لويس الثاني بوجود ذلك فهاجم المسلمين وغلِبهم سنة ٨٥٢ ، الا انه لم يستطع او لم يرد احتلال مركزهم مدينة « باري » .

على ن قرصان المسلمين كانوا هاتيك الاوقات يقضون مضاجع السواحل الشرقية فاحتلوا مدينة لوني وتركوها من بعد طعمة النيران ثم صعدوا مع مجرى نهر الرون وتمكنوا من مدينة « ارل » بفرنسا سنة ٨٤٩ .
في نفس هذه السنة ارادوا تجديد المحاولة التي لاقت من قبل ايما نجاح ، فجمعوا على السواحل السردينية اسطولهم ومخروا عباب البحر ، ثم ارسو

(١) يقول مؤرخو الطليان ان مصغر هاجم مرة مدينة ايزرينا وقبل ان يصلها اعلمه الرواد الذين ارسلهم برنادون الطرق ، ويمهدون السبل امام الجيش ان زلزالا حطم اسوار المدينة ،

اتجاه مدينة اوستى ، لكن مصب النهر كان هذه المرة محصنا فلم يستطع المسلمون اقتحامه ، ثم جاء اسطول مدينة نابولي فنازل الاسطول الاسلامى الى ان ثارت روبة شنت شمل هذه العمارة . كان يومئذ الامير مفرج يثبت مركزه بمدينة بارى ويدعم هنالك سلطانه وقد اختط فى المدينة مسجدا للمسلمين واعلن انفصاله عن امير صقلية ثم اتخذ لنفسه لقبا كان قليل الاستعمال يومئذ بين المسلمين الا وهو لقب « السلطان » .

لقد كانت الخلافات المستحكمة الحلقات بين امراء ايطاليا وزعماء مدنها تمنعهم من جمع الشمل والتكتل لمحاربة هذه الدولة الناشئة ، فاعتنمت هى تلك الفرصة ونكلت بالبلاد تنكيلا ذريعا ، وكانت ترسل بسفنها مثقلة بالرقيق يباعون فى الاسواق الافريقية .

ويؤكد الرهبان المؤرخون بدير كاسان ان هذا السلطان كان يلتذ كل يوم بقتل خمسمائة نفس (١) واخيرا تمكن السلطان من احتلال دير كاسان نفسه (٢) وهنالك اخذ يلهو بالشراب فى اباريق الرهبان ويتطيب ببخورهم .

اخيرا ، فيما بين سنتى ٨٦٦ و ٨٦٧ ، اعتزم الامبراطور نجدة المسيحيين بايطاليا ، فنازل المسلمين ودحرهم حتى اووا الى مدينتى بارى وطارنطة ، لكن الامبراطور لم يستطع نصب الحصار على تينك المدينتين نظرا لفقد عمارة بحرية ولقد كان اسطول رومى جاء تلك الربوع ، لكنه اضطر للرجوع من حيث اتى ، وهكذا قويت آمال المسلمين وامتطوا صهوة الحيل العتاق التى غنموها من الافرنج ، فاندفعوا يجوسون خلال الديار ويمعنون فى غزوها .

لكن الامبراطور لويس ، لم يغير عزمه رغم مرضه ، فخاطب جماعات المسيحيين الذين امدوه بقوة من رجال صقلية دلماسيا (بلاد يوغوسلافيا اليوم)

وان المسلمين يستطيعون دخولها دون قتال ، فقال مصرع ان الله قد اظهر سخطه على هذه المدينة وانتقم منها فلا ازيد اهلها هيا على هم ، ولوى عنانه وتركها وشانها ترمم خرابها ولا اعرف فى تاريخ القروسية والشهامة عملا يضاهى فى نبلة هذا العمل . كذلك يؤكدون انه كان يمر حوالى ديسر كاسان ولم يهاجمه ولم يرد احتلاله .

وسربيا ، وجاء اسطول القسطنطينية يعزز بحريا تلك الحملة ، وحمى الوطيس برا وبحرا ، واندحر جند اسلامي جاء مددا لمدينة بارى فبعد حرب عوان دامت اربعة اعوام ، وبعد حصار ضيق النطاق ، سقطت مدينة بارى يوم ٢ فيفري سنة ٨٧١ (٣) (٢٥٨ هـ)

لكن هذا النصر قد اقلق امراء ايطاليا وبلبل افكارهم ، خرقا من اغتنام الامبراطور تلك الفرصة لنصب سلطانه عليهم واخضاعهم ، فدبروا مكيده ووقعوا الامبراطور اسيرا بين ايديهم يوم ١٣ اوت من تلك السنة ، وما اطلقوا سراحه وارجعوه لبلاده يوم ٧١ سبتمبر الا بعد ان تعهد بان يترك لهم جميع الغنائم والاسلاب التي استولى عليها بعد انهيار دولة المسلمين في بارى ، كما تعهد لهم بانه لا ينتقم منهم جزاء خيانتهم .

في هذه الاثناء كان الجيش الاسلامي الصقلي تحت قيادة امير صقلية العباس بن الفضل يكتسح جهات نابولي وقابو وبلاد البينيفنتان ، لكن امراء نابولي وقابو وبينفانتى تألبوا ووقفوا تيار المسلمين ، ولقد هاجم هذا الجيش الاسلامي مدينة « كاسينو » بشدة وكاد يتمكن منها لولا ان الامبراطور ، رغما عما جرى ، قد هب لنجدها ، ولقد اصابه مرض اثناء ذلك ، لكن قواده نالوا نصرا مبينا فكوا الحصار عن المدينة في صايفة سنة ٨٧٢ ، لكن موت الامبراطور سنة ٨٧٥ قد جعل هاتيك الجهود الكبيرة تذهب سدى ، ذلك ان خليفة الامبراطور ، شارل الاصلع ، وقد ارسل البابا يستغيث به ضد المسلمين ، قد جند جندا واجتاز جبال الالب ثم عاد ادراجه بسرعة نحو بلاده وقضى نجه دون ان يقوم بادنى عمل ، ولم يجد البابا يومئذ من ملجأ يلجأ اليه الا مصانعة المسلمين ، فتعهد لهم بدفع جزية مكنته من راحة نسبية .

(١) القرية طاهرة ، ولا ينتظر من راهب بدير كاسان في حالة حرب مع المسلمين وفي القرون الوسطى ان يكتب غير هذا .

(٢) المسافة بين بارى ودير كاسان ٢٥٠ كيلو مترا .

(٣) يقول مؤرخو الطليان ان الامبراطور كان قد اقسم ليقتل كل مسلم في المدينة ، وكان

لقد كان بحر الادرياتيک يومئذ مرتعا لاعمال القرصنة الاسلامية . وكانت مدينة البندقية وحدها تقاوم هنالك هاتيك الاعمال . اما ايطاليا الجنوبية فقد كان امير بينيفانت غير مستطيع وحده الذود عنها .

كانت مدينة بيزنطة « القسطنطينية » قد ملكت عائلة امبراطورية جديدة هي عائلة مقدونيا ، وتولى كبيرها يومئذ بازيل الاول ، واسترجعت بيزنطة ما كانت فقدته من صفة الحامية ، فجهز الامبراطور اسطولا حربيا عتيدا يشمل اربعين سفينة ارسل به نحو السواحل الصقلية الاسلامية فنال ذلك الاسطول فوزا مبينا . ثم انه في سنة ٨٨٠ تمكن الروم البيزنطيون من استخلاص قلورية من بين ايدي المسلمين ولقد كانت مدينة بارى قد تقبلت قبل ذلك واليا روميا اغريقيا من قبل الامبراطور .

لكن تلك الراحة لم تدم طويلا حيث اننا رأينا سنة ٩٠٢ الامير ابراهيم بن الاغلب الثاني يكتسح بجنده ارض قلورية ويلاقي حتفه تجاه مدينة كوسترا . ورغمما عما اصاب المسلمين في الجنوب الايطالى فقد بقيت بايديهم مراكز منيعة مثل سابينو شمال بينيفانت وجنوب بسطوم وميدان كاريليانوا المحض وخرائب ديرافارفا ومن سائر هذه الجهات كانوا يستطيعون باستمرار تهديد مدينة روما .

يومئذ اعتزم البابا يوحنا العاشر التخلص نهائيا من هذه المعازل الاسلامية المهددة ، فمنح تاج الامبراطورية لبير انجى الفريولى فى دسامبر ٩١٥ ، لكن هذا الامبراطور التدفى لم يعمل عملا ، وانسحب للشمال الطليانى فاعتمد راهل روما على انفسهم واستعانوا بمركيز اسبوليت الامير البريك ، فاستولوا على معقل « فارفا » الاسلامى ، ثم تألب جميع امراء ايطاليا الوسطى والجنوبية ، وبذلوا اقصى جهودهم فتخلصوا من المعقل الاسلامى المنيع (كاريليانو) ، واعانهم الاسطول الرومى على ذلك ، واستولوا على المعقل وقتلوا من كان به من

المجوع قد حطم قوى المسلمين . فبعد مقاومة يائسة استسلموا واحتل الامبراطور المدينة فذبح بسيوف جنده جميع « الكفار » ولم ينج منهم الا السلطان مفرج ، واثنان من خاصته هما حنون وعيد الباقي ! اذ اختفوا بعد انهيار الدقاع فى برج من البروج ، ثم ساروا ملتجئين لامير بينيفانت « ادلفيز » فاكرم وفادتهم ، معترفا بجميل السلطان الذى كان قد انقذ شرف ابنته فى سالف الايام .

المسلمين ، ولقد كان ذلك النصر الحاسم فى شهر اوت سنة ٩١٦ من اكبر وقائع
إيطاليا الحربية ، وقد شارك فيه البابا بنفسه وعرض ذاته للخطر ، وكان فخورا
بذلك .

كان ذلك النصر قد درأ عن مدينة روما الخطر الاسلامى ، لكنه لم يدرأ عن
السواحل خطر القرصنة ، ولم يدرأ عن الجنوب الطليانى خطر الغارات والغزوات
ففى سنتى ٩٣٤ و ٩٣٥ ، استولت جنود الخليفة ابى القاسم الفاطمى على
مدينة جنوة حينما وانتهبها .

وفى سنة ٩٦٥ اندحر اسطول الروم تجاه مسلمى صقلية عند مدينة
مسيناسنة ٩٦٥ (وقعة المجاز) (١)

تكونت الامبراطورية المسيحية فى المانيا اثناء هذه الحوادث واراد الاباطرة
ان يتولوا كبر الحملة على المسلمين .

ففى سنة ٩٨٢ سار الامبراطور اوطون الثانى نحوهم فاحتل مدينة طارنطة
ثم واجه جند امير صقلية ابى القاسم عند السواحل تجاه مدينة ستيلو او
كوترنى ، ولقد تولى الفرسان الالمان مهاجمة القلب الاسلامى فضعضعوا قواه
ودخلوه ، لكن الجناحان الاسلاميان تمكنا فورا من تلافى الفادحة ، فانطبقا
بسرعة على فرسان الالمان ، وباء الالمانيون يومئذ بانهزام شنيع ، وانسحب
الامبراطور مغلوبا مقهورا وما استطاع الفوز بنفسه الا بفضل سفينة رومية -
انقذته من الاسر ، اما امير صقلية فقد لقى حتفه شهيدا اثناء تلك المعركة (٢) .
ولقد مات الامبراطور قبل ان يتمكن من الاخذ بالثار وحدث اضطراب فى
الامبراطورية فاصبح كل امير طليانى يتولى بجهوده الخاصة مقاومة المسلمين .
ففى سنة ١٠٠٢ حاصر مدينة بارى القائد الصقلى « الصافى » فدافع عنها -
القائد الرومى والعمارة البندقية معا وابتعد عنها المسلمين ثم ان مدينة بيزا
تمكنت ١٠٠٦ بواسطة جهودها الخاصة من دحر اسطول المسلمين عند مدينة
رجيو ثم تدخل النرمان وانتهى امر المسلمين .

(١) انظر تفصيلها صفحة ١٤٨ (٢) انظر التفصيل صفحة ١٥٩

اسد الدولة احمد الاكل

اولاه ابوه وارتضاه الناس ، كما اسلفنا ، فى السادس من شهر المحرم سنة ٤١٠ (١٠٠٩ م) وابتدا اعماله بحزم شديد ، فضبط الامور ، ومهد الراحة ، ودانت له سائر البلاد .

ولقد راي النرمان اثر حوادث الثورة السالفة ان الشقاق اخذ يدب من جديد بين مسلمى صقلية فقرروا ان يهتبلوا الفرصة ، واخذوا يناوشون جند المسلمين لكنهم لم ينالوا فى اول الامر منالا ، واوقفتهم جنود احمد عند حدهم .

سياسة قرق تسد : كان اسد الدولة احمد الاكل يعتمد على ولده جعفر كما كان اخوه جعفر يعتمد على وزيره الباغاثى ، فكانت النتيجة خسرانا مبينا لهذا كما كانت النتيجة خسرانا مبينا لذلك .

راى جعفر بن احمد انه لا يمكن حكم صقلية والثبات بها الا بالاعتماد على فريق فيها دون فريق وتكوين عصبية متينة حول قصر الامارة تحميه من عاديات الزمن واضطرابات الشعب . ولو انه اعتمد على العدل والانصاف واحقاق الحق وازهاق الباطل ، كما اعتمد اجداده واعمامه من قبل ، لكان مآله احسن ، وعاقبته اضمن .

كان سكان صقلية ينقسمون الى فريقين : فريق الصقليين المتاصلين الذين استوطنوا البلاد منذ اوائل عهد الفتح وذريا تهم ومن اسلم من السكان الاصليين وفريق الافارقة الذين جاءوا البلاد حديثا مع ولاة الفاطميين واستقروا بها واغلبهم من البربر من كتامة وغيرها ، ممن بقى بعد ابعاد تاج الدولة لهم اراد جعفر ان يعتمد اول الامر على فريق الصقليين فخطبهم فى الامر وقال لهم اننى اريد ان اخرج عنكم هؤلاء الافارقة الذين سكنوا بلادكم وشاركوكم فى دياركم واعتمد عليكم وحدكم فى حكم البلاد فقال له وجوه القوم حذار ان تفعل ذلك ايها الامير فاننا قد صاهرناهم واصبحنا واياهم شيئا واحدا فلما اخفق مع هذا الفريق خاطب زعماء الافارقة فى الموضوع فقبلوا الاقتراح بسرور

تاريخ صقلية - ١٢

وابتهاج واصبحوا منذ تلك الساعة فريقا ممتازا فى الامة ، واعفوا من دفع الضرائب ، فاصبحت الاتاوات لاتمس الا الصقليين الاصليين خاصة ، فوقع من جراء ذلك اضطراب عظيم ، وانفصم جبل الامة وسادت الضغينة والاحقاد بين قسميها ، واستعد النرمان الذين كانوا يرقبون ذلك عن كثب لانزال الضربة النهائية على رأس ذلك الهيكل الذى تداعى للسقوط .

تدخل المعز بن باديس : اصبح الصقليون فى كرب عظيم . فارسلوا خفية وفدا من وجوههم ام بلاط المعز بن باديس مستصرخا مستنجدا ، وقالوا له : لئن لم ترسل من قبلك من يحكمنا حكما عادلا نزيها فاننا سنسلم انفسنا للمروم تخلصا من الظلم الفادح .

كان المعز بن باديس قد استقل فعلا بامور افريقيا ، وصفا له الجو موقتا ، فاقبل على الانشاء والتعمير ، وكانت له مدنية من اجل واروع ما رآته البلاد الافريقية .

وكانت الخلافة الفاطمية يومئذ تتخبط فى مصر فى دياجير من الكفر والالحاد ، ومن الفسوق والفجور ، ومن المظالم والارتباك بين عصر الحاكم بامر الله وعصر ابنه الظاهر لاعزاز دين الله ، بين ادمان الخمر والاعتكاف على الملذات ، فكان المعز ابن باديس يبغض الفواطم بغضا يكنه فى فؤاده ، وكان يرى وجوب استخلاص اكثر ما يمكن من بلاد الاسلام وانتشالها من بين يرائهم وكذلك كان اهل صقلية قد راوا ان لا امل لهم فى الاعتماد على الفاطميين ولا نجدة ترجى لهم من قبلهم ، فولوا وجههم كما رايت شطر القيروان يستصرخون ابن باديس ويستنجدونه .

اغتنم ابن باديس تلك الفرصة انجادا لاهل صقلية ، وادخلا لتلك البلاد تحت سلطة القيروان كما كانت اول مرة ، فارسل ولديه عبد الله وايوب وارسل معهما جندا قويا يشمل ثلاثة آلاف راجل فدخلوا ارض صقلية وهاجموا قصر الامارة مع من انضم اليهم من الصقليين فاستولوا عليه وقبضوا على الاخرق احمد الاكل فى الخالصة واهرقوا روحه سنة ٤١٧ (١٠٢٦) ، واخذ ابن المعز يدبران الامر بحكمة ورأى سديد .

نكبة هائلة : كان النرمان ، كما قلنا يرقبون عن كشب سير الامور بصقلية ، ويستعدون لانزال الضربة الحاسمة بها ، وما كان الصقليون عن ذلك من الغافلين ، فقد ارسلوا الى المعز يستنجدونه ويستصرخونه ، ويطلبون اليه ان يمدحهم بقوة عتيدة تمنع عنهم خطر النرمان وتحمي ارض الجزيرة من كل طامع ولقد كان النرمان وجماعة النصارى كما اسلفنا ، قد استخلصوا كامل ارض قلورية واحاطوا بصقلية متكالبين .

لبي المعز بن باديس رحمه الله الطلب ، فانتدب الناس واستنفرهم للجهاد، وتطوع خلق كثير باعوا انفسهم لله وفي سبيل دينه ، وتم تجهيز اسطول يجمع ٤٠٠ سفينة مثقلة رجالا وخيلا وسلاحا .

انما قضى الله يومئذ بهلاك الجزيرة ولا مرد لقضائه ، فذلك الاسطول العظيم الذى كان يستطيع بقوته وبعمق فيه ان يقلب صفحة التاريخ فى صقلية، بله اروبا نفسها ، قد سار حتى وصل جزيرة قوصرة ، وهناك اصابته زوبعة هائلة اتلفته كله ولم ينج من اهله الا القليل ، فكانت هذه النكبة المؤلمة والكارثة الجلى اكبر اسباب ضياع صقلية ، ومن اعظم اسباب ضياع ملك ابن باديس نفسه الذى اندك فيما بعد تحت ضربات الاعراب الهالين .

فى هاتيك الاثناء ، اجتمع جماعة من اهل صقلية يتلاومون ، وقالوا لقد ادخلتم على حكمكم غيركم ، وفقدتم استقلالكم ، واستنصرتكم من لا يستطيع نصركم ، فاتفقوا على نصب امير من عائلة بنى الحسن وارجاع الملك لهم ، فثاروا بولدى المعز ، وقتلوا من جندهما زهاء الثمانمائة رجل ، وما وسع عبد الله وأيوب الا الرجوع بفلولهما لافريقيا ، ونصب الصقليون فى بالرمة صمصام الدولة حسن ، شقيق أحمد الاكل القليل .

صمصام الدولة حسن بن يوسف

تناثر العقد من وسطه ومن اطرافه ، وأخذ النرمان يتقدمون فى البلاد . وكان الصمصام مفلولا ، فلم يستطع ان يوطد ملكه او ان يثبت سلطانه ، ولم يجد المسلمون يومئذ وسيلة تنجيهم من ذلك الخطر الداهم ، خطر النرمان

المميت ، الا الانقسام على انفسهم واستقلال كل أمير بناحية . وصدق الله العظيم « فانها لا تعمى الابصار ، ولكن تغمى القلوب التي فى الصدور » .
 ففى بالرمة العاصمة كان الصمصام حسن يحكم الناحية الشمالية . وفى مازرة وما حولها استقل بالامر عبد الله بن منكوث . وفى جرجنتى وما اليها استبد بالامارة على ابن نعمة بن الحراس . وفى سرقوسة وقطانية استقر بن لثمنة . واستقل فى جهة مسينا أمير آخر . واصبح أمر البلاد فوضى ، وتغلب سفلة القوم على اصحاب الراى والاصالة فيهم .

القادر بالله بن الثمنة

اجتمع أهل بالرمة وأعلنوا خلع طاعة حسن لما راوا من ضعفه ، وما كان ضعيفا الا بهم ، وأمروا عليهم القادر بالله ابن الثمنة ضامين بذلك امارتى سرقوسة وقطانية وامارة بالرمة ، وكان ابن الثمنة متزوجا ميمونة أخت على ابن الحواس أمير جرجنتى ، فكان ذلك بادرة من بوادر جمع الكلمة ومحاولة يائسة لتوحيد صفوف تلاشى نظامها أبديا (١) .

الحرب الاخوية والخيانة : سكر الامير يوما فخلط ، فاتهم زوجه أخت ابن (١) اثناء هذه الحوادث سنة ٤٣٠ وما حواليتها توطن قدم الاتراك السلجوقيين ببلاد الشام وفلسطين وانتزعوها من أيدي ملوك الطوائف وامراء الفاطميين . الحواس تهمة هى منها بريئة ، فقطع لها عرق الزند لتموت من نزيف الدم . لكن ولدها ادركها فى اللحظة الاخيرة وجاءها بالاطباء فانعشوها . ومن الغد ادرك الامير سوء فعله فاعتذر لزوجته ، وتظاهرت بقبول الاعتذار ، ثم طلبت اليه ان تذهب لزيارة اخيها فاذن لها . وهنالك قصت على ابن الحواس ما فعل بها زوجها ، فاقسم لينتقم لها منه ، وجمع جموعه لا لرد غائلة النرمان ، بل لمحاربة امير بالرمة ابن الثمنة ، والتقى الجمعان ودارت الدائرة على ابن الثمنة ومن معه ، وانتصب ابن الحواس اميرا فى بالرمة .

اما ابن الثمنة فقد ادت به النذالة والصغار الى جزيرة مالطة ، حيث كان ملك النرمان ، وطلب اليه ان يمدد بجنده ووعدته بملك الجزيرة وما كان روجى الاول

ملك النرمان ينتظر الا مثل ذلك الحادث فجمع اسطوله وجموعه الوحشية وسار مع الخائن ابن الثمنة كما سافر منذ مائتي عام اسد ابن الفرات مع الخائن او فيماس لفتح صقلية .

خراب دولة المعز على يد بنى هلال : فى سنة (١٠٧٣) حيث كانت تجرى هذه الحوادث ، وحين كان من المستطاع التفات المعز من جديد بعد نكبة الاسطول السالفة الذكر وبعد اخراج ولديه من صقلية ، لتلك الناحية البائسة، وقعت فى مدينة القيروان الفتنة الشهيرة ضد الشيعة او الرافضة كما كانوا يدعون فى ذلك الوقت ، وانقض اهل السنة على رجال الشيعة فقتلوهم فى الحواضر والبادى اشنع قتلة ، واعلن المعز يومئذ خلع طاعة الفاطميين وخطب للخلافة البغدادية العباسية وحمل الناس عامة على مذهب مالك ابن انس رضى الله عنه . ثم جاء من بغداد سنة ٤٣٩ الوزير ابو الفضل بن عبد الواحد الدرمي يحمل له من الخليفة العباسى القائم بامر الله تقليدا يعترف له فيه بالاستقلال بلغت تلك الانباء مدينة القاهرة ، فعظم الامر على بلاط الفاطميين فيها ، ولقد اشار على الخليفة المنتصر بالله ، وزيره احمد بن على الجرجاني ، ان يرسل اعراب بنى هلال على بلاد المغرب ، انتقاما للشيعة ، وتحطيم لسلطان صنهاجة وملك بنى باديس ، وتخلصا فى آن واحد من اولئك الاعراب الذين كشرت قلاقلهم فى شرق الصعيد المصرى .

قبل الراى كما هو معلوم فى كتب التاريخ ، وانصب على ارض افريقيا من تلك الجموع نحو النصف مليون نسمة، صادموا جند المعز سنة ٤٤٠ (١٠٤٨م) فدحروه وتحصن فى القيروان فنازلوه بها واحتلوها ، والحقوا بها نكبة كانت من اكبر نكبات التاريخ فى العالم الاسلامى ، فاندكت بذلك معالم مدينة من ازهى وازهر مدنيات هذه البلاد .

يقول شاعر بلاطا المعز الحسن ابن رشيق ، واصفا مصيبة القيروان من قصيد طويل :

وسما اليها كل طرف وان	حسننت فلما ان تكامل حسننها
وغدت محل الامن والايمان	وتجمعت فيها الفضائل كلها

نظرت لها الايام نظرة كاشح
 حتى اذا الاقدار حم وقوعها
 اهدت لها فتنا كليل مظلم
 بمصائب من فادع واشالب
 فتكوا بامة احمد ، اتراهموا
 نقضوا العهود المبرمات واخفروا
 فاستحسنوا غدر الجوار واثروا
 ساموهم سوء العذاب واظهروا
 والمسلمون مقسمون تنالهم
 يستصرخون فلا يغاث صريخهم
 بادوا نفوسهم فلما انفذوا
 خرجوا حفاة عاندين بربهم
 هربوا بكل وليدة وفطيمة
 ففترقوا ايدي سبا وتشتتوا
 ترنو بنظرة كاشح معيان
 ودنا القضاء لمدة واوان
 وارادها كالناطح العيدان
 ممن تجمع من بنى دهمان
 امنوا عقاب الله ، فى رمضان
 ذم الاله ولم يفوا بضممان
 سبى الحريم وكشفة النسوان
 متعسفين كوامن الاضغان
 ايدى العصاة بذلة وعوان
 حتى اذا سئموا من الازمان
 ما جمعوا من صامت وصوان
 من خوفهم ، ومصائب الالوان
 وبكل ارملة وكل حصان
 بعد اجتماعهم ، على الاوطان

اما المعز فقد ترك اواسط البلاد للاعراب والتجأ الى الساحل ، فاستقر فى
 المهديّة . ثم هدأت نوعا ما عاصفة الاعراب الذين اخذوا يتوغلون فى بلاد
 الشمال الافريقى من مشرق الى اقصى مغربه ، واخذت الدولة الصنهاجية
 تنتعش شيئا فشيئا ، وكانت فيها باقية صالحة للحياة .

ملوك الطوائف وتميم بن المعز : انقسمت البلاد التونسية مومئذ ، وكانت
 مهد وموطن الدولة الصنهاجية الى عدة امارات صغيرة واهية البنيان ضعيفة
 الشأن .

فمنها امارة بنى خراسان بمدينة تونس وما حوالها ، استقلوا بشؤون
 تلك الناحية من حوالى سنة ٤٥٨ الى سنة ٥٥٣ (١) .

ومنها امارة بنى جبارة بن مكى استقلت بناحية سوسة الى سنة ٥٥٤ .
وامارة بنى مدافع بن جامع الهلالى : استبدت بناحية قابس وما اليها من
 بلاد الجنوب الى سنة ٥٥٥ .

اما ناحية الجريد ، فقد استقرت بها عائلة بنى الرند ، ودام استقلالها
اكثر من الامارات السابقة اى الى سنة ٥٧٥ .

واخيرا بمدينة المهديّة وحواليها من ناحية الغرب والجنوب ، ثبتت امارّة
بنى المعز بن باديس الصنهاجية ، الى سنة ٥٥٥ ، حيث جاءت دعوة مهديّة
اخرى من ناحية المغرب كانت هذه المرة سنّية موحدة ، قضت على ملوك
الطوائف ، ووحدت بلاد الشمال الافريقى فى امور الدين والدنيا ، على يد بطل
من ابطال الاسلام الخالدين : عبد المؤمن بن علي .

وقد ازدان ملك صنهاجية بالمهديّة ، كما ازدان ملكها من قبل بالقيروان
ببلاط فاخر التفت حوله ثلة صالحة من رجال العلم ، واعلام الادب ، وكبار
الفلاسفة والشعراء ، فكانت ايام المهديّة على صغر حجم المملكة وتعاقب الحروب
بينها وبين الهلالين ، اياما مشهودة فى تاريخ الفن والعلم والادب ، وقصدها
من كل ناحية امثال فيلسوف الاندلس الشهير امية ابن ابي الصلت والمجتهد
الاكبر الامام المازرى والتجّأ اليها بعد خراب صقلية شاعرها الاعظم عبد
الجبار بن حمديس ، وكان امير المهديّة تميم بن المعز من خير الرجال عقلا
وادبا ، وحسن ادارة ، ومعرفة باصول الادب والشعر ، وانه ليصور لك
حال مملكته وحال رجاله وحال العالم الاسلامى كله فى ذلك العصر اذ يقول :

يادهر ما اقساك من متلون	فى حالتك ما اقلك منصفاً
اتروح للنكس الجهول ممهدا	وعلى اللبيب الحر سيفامرهفا
واذا صفوت كدرت شيمة باخل	واذا وفيت نقضت اسباب الوفا
لا ارتضيك وان كرمت لاننى	ادرى بانك لا تدوم على الصفا

(١) اثر نكبة الدولة الصنهاجية الشرقية على يد الهلالين وخراب القيروان ، اعلنت مدينة
تونس التى كانت يومئذ من ازهى وازهر المدن فى الشمال الافريقى انضمامها للمملكة الصنهاجية
الغربية ؛ مملكة بنى حماد ، وكانت قد استقرت فى بجاية وانتظم شملها وذاع صيتها واصبحت
كعبة القصاد ومحط رجال العلم والادب وكبار الشعراء ؛ فعين ملك بجاية الناصر ، الامير عبد الحق
ابن خراسان واليا على مدينة تونس وما حواليها ، فلما استقر به المقام وتم له الاتفاق مع اهل
البلاد ؛ اعلن استقلاله ، وحافظ هو وبنوه على ذلك الاستقلال فى تلك الامارة الصغيرة الرقعة
الكبيرة الاهمية مدى مائة عام .

زمن اذا اعطى استترد عطائه واذا استقام بدا له فتحرفا
 ما قام خيرك يا زمان بشره اولى بنا ماقل منك وما كفى
 ثم هو يخاطب البقية من قومه ، يحرضهم ويستفز منهم الحمية ، كأنه يلهب
 فيهم نار الايمان ليرسل بهم نجدة لمسلمى صقلية :
 متى كانت دماؤكم تطل ؟ اما فيكم بشار مستقل ؟
 اغانم ثم سالم ، ان فشلتهم فما كانت اوانلكم تذل
 ونتمم عن طلاب المجد حتى كان العزم فيكم مضمحل
 وما كسرتم فيه العوالى ولابيض تفل ولا تسفل
 وتسمو به احيانا نفسه الابية حتى تبلغ ذروة الطموح للعلی واسترجاع المجد
 الآفل :

بكر الخيل دامية النحور وقرع الهام بالقضب الذكور
 لا تحمنها حربا عوانا يشيب لهولها راس الصغير
 فاما الملك فى شرف وعز على التأجفى اعلى السريـر
 وما الموت بين ضبا العوالى فلست بخالد ابد الدهور

محاولة انقاذ صقلية : اخذ فى صقلية اميرها المتغلب على بن الحواس يجمع
 الجموع ويحاول توحيد الكلمة ، لتاليب الناس ضد النرمان ، والدفاع النهائى
 عن حكم المسلمين بتلك الجزيرة .

فى هاتيك الاثناء ، قصد وفد من رجال الجزيرة مدينة المهديّة ، وقد علم كما
 علمت فضل اميرها ونخوته وهمته العالية ، فاستنجدوه واستمد منه الاعانة
 على الفرنج المتكالبين . فما كان من الامير تميم بن المعز الا تلبية الدعوة ،
 واستنغار الناس للجهاد ، فجهز بعض قطع الاسطول الذى كان بالمهدية ، وحمله
 ثلة صالحة من بقايا جنده ، وارسل بكل ذلك تحت قيادة ولديه على وايوب .
 نزل على بن تميم بقسم من الجند فى مدينة بالرمة ، ونزل ايوب بالقسم
 الاخر فى مدينة جرجنتى ، فاكرم ابن الحواس وفادتهما ، وتقاء الناس خيرا
 بهذا المدد الكريم ، واحسن ايوب وعلى السيرة ، فمال اليهما الناس واحبوهما
 حبا عظيما واستعد الجميع للجهاد ضد النرمان .

لكن ابن الحواس خشي منهما على ملكه المتضعع ، وخاف زوال سلطانه
الآفل ، ففرق الكلمة بعد اجتماعها ، وشتت الشمل بعد التثامه ، وجمع جماعة
من جنوده صادم بهم نذالة وخيانة وصغاراً جند المنقذين على وايوب ، ومات
اللعين فى معركة بضربة سهم .

ايوب بن تميم

اجتمع اكثر الناس يومئذ على ولاية ايوب ، وروا فيه الرجل الصالح والقائد
الذى يمكنه انقاذ الجزيرة من رجال النرمان الذين كانوا يتقدمون دائماً ، فياكلون
اطرافها ، وقد التهموا منها الشيء الكثير بل اصبح اكثرها بين ايديهم ، واخذت
نيران الحماس تتقد فى النفوس يذكىها شعراء امجاد امثال عبد الجبار بن
حمديس الذى انشد قصيداً خالداً انتشر يومئذ بين الناس فاستنهض همهم
ودفع بهم الى مقاومة عنيفة هى مقاومة اليانس المستميت ، قلما رأيت لها مثيلاً
فى اسفزاز الهمم الفاترة للدفاع عن الوطن المشرف على الهلاك . واننى لا ارى
غنى عن تسجيل هذا القصيد برمته لانه يمثل بنفسه صفحة من اغرب واروع
صفحات الجهات الاسلامى بصقلية . يقول ابن حمديس :

بنى الثغر لستم فى الوغى من بنى امى اذا لم اصل بالعرب منكم على العجم
دعوا الخوف انى خائف ان تدوسكم دواه وانم فى الامانى مع الحلـم
وكاس بام الموت يسعى مديرها الى اهل كاس حثها بابنة الكرم
فردوا وجوه الخيل نحو كريهة مصرحة الروم بالثكل واليتـم
تهيل مع النقع المعلق بالضحى على الشمس ما هالته ليلا على النجم
وصولوا ببيض فى العجاج كانها فروق بضرب الهام محمرة السجم
فلا عدمت من سلها من غمودها ظهورا ، فقد تخفى الجداول بالرجـم
وقرع الحسام الرأس من كل كافر احب الى سمعى من النقر فى اليمـ
ووالله منكم كل ماض كعضبة يسير الى الهيجاء متقد العزم
يحدث بالاقدام نفسا كانها تطير الى الحرب اشتياقا عن السلم
ويسطو بمحجوب الطبء اذا بدا جلاماً جلا بالصبح من ظلمة الظلم

له دخلة فى الجسم تخرج نفسه
وما يفتدى منه بلحم ولا دم
ليوث اذا ما اقبل الموت فاغرا
له عين ضرغام مصور ، فقلبه
ولله ارض ان عدمتم هواءها
وعزكم يفضى الى الذل والنوى
وان بلاد الناس ليست بلادكم
أعن ارضكم تغنيكم ارض غيركم
تقيد من القطر العزيز بموطن
واياك عنه ان تجرب غربته
التكبة : استمر الجهاد عنيقا قاسيا ، انما كان النرمان يتقدمون فى
البلاد باستمرار ، واخذ الخناق يضيق على المسلمين هنالك ، ولقد صدق من
قال :

يغمر على المرء فى ايام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن
ففى هاتيك الايام ، والنرمان يتقدمون والمسلمون يتوالى خسراهم ، ويستمر
انهيارهم ، تالب جماعة من المسلمين هنالك ضد ايوب بن تميم ، وناووه وقتلوه
على مرأى ومسمع من النرمان (١) ، فعلم هذا انه خسر الصفقة ، وعلم كبار
القوم هنالك ان صقلية قد ضاعت على يد سفهائها وانذالها ، فقرر ايوب وقرر
وجوه القوم معه الانسحاب الى المهدية ، فركبوا الاسطول ، حاملين معهم جميع
من راي الانسحاب من الجزيرة من خاصة القوم واعيانهم وعامتهم وكان ذلك
سنة ٤٦١ (١٠٧٨) وعندئذ انتهى امر المقاومة المنظمة او الشبيهة بالمنظمة
وخلا الجو لرجال النرمان فاندفعوا يحتلون بقايا الجزيرة .

آخر مقاومة : لم يبق يومئذ بارض الجزيرة بيد المسلمين الا قلعة قصر يانة
ومدينة جرجنتى ، فقصدهما رجار الاول ملك النرمان ، ونصب عليهما الحصار

(١) الامر اعظم من ان يكون تنظما وجهالة ، بل كان فى نظرى نتيجة خيانة وتواطىء مع النرمان

وضيقه ، وتقانى اهل المدينتين فى الدفاع ، واستبسلاوا استبسالا لو وقع من قبل مثله لبقيت صقلية احقابا عديدة اخرى بيد المسلمين ، ودام الحصار ثلاثة اعوام ، حتى اكل المحصورون الجيف ، فاستسلمت جرجنتى ، ونصب النرمان عليها لواء الصليب وبقيب قصر يانة ثابتة منيعة رغم الجوع والخصاصة والالام ، فسجلت فى تاريخ المقاومة الاسلامية ضد النرمان ، ما سجلته من قبل فى تاريخ المقاومة المسيحية ضد المسلمين ، وهكذا ابى الله الا ان يختم صفحة المسلمين بصقلية ، ختاماً كله عزة وشرف وافخار ، وما استسلمت قصر يانة تحت ضربات رجار العنيفة الا سنة ٤٨٤ (١٠٩١) اى ٢٣ عاماً بعد انسحاب من انسحب من المسلمين مع ايوب ابن تميم ابن المعز . وتملك يومئذ النرمان كامل جزيرة صقلية (١) .

سيرة النرمان الاولى : كان النرمان لم يختلطوا بعد بالمسلمين فى غير ميادين القتال ، فكانوا لم يزوالوا على فطرتهم الوحشية الاروبية الاولى ، ولم يفتروا بعد من المدنية الاسلامية التى كانت وضاعة لامعة رغم الحروب ورغم الفتن والقلقل ، والخلافات السياسية والحزبية والعنصرية .

فان رجار الاول ملك النرمان لما تم له الامر كاملاً بارض الجزيرة اسكن الروم والنرمان مع المسلمين فى سائر جهاتها ، فتم الاختلاط بينهم ، ولم يترك لاهلها من المسلمين حسبما يرويه ابن الاثير : حماما ولا دكانا ولا ولا طاحونا ولا فرنا .

فكانت ايام رجار الاول - نحو الثلاثين سنة - ايام تنكيل وزجر ، ايام

(١) لم يكتف النرمان باحتلال صقلية والثبات بها ، بل تنبعوا المسلمين الى البلاد الافريقية ، واتخذوا فيهم واصبحت اساطيل الملك رجار تلقى الرعب فى قلوب سكان السواحل الاسلامية بافريقيا الشمالية ؛ فكانت نتيجة سقوط صقلية ان استولى النرمان على مدينة طرابلس الغرب سنة ٥٤٠هـ ؛ فافنى رجالها وسبى حرمها ، لان اهلها ناروا بالنرمان واطردوهم ، اذا كانوا قد احتلوها قبل ذلك سنة ٥٣٠هـ .

ثم احتل النرمان مدينة صفاقس سنة ٥٤٣هـ ، واحتلوا مدينة المهدية ، واطردوا منها سلطانها الحسن بن على بن يحيى سنة ٥٤٣هـ .

اقتلاع جذور الحكم الاسلامى بالجزيرة ، وتمكين سلطان المسيحية فيها ،
فكانت دورا من ادوار الفتح الحربى ، دام طيلة ايام رجار الاول (٣٠ سنة) ،
الا انه يسجل لهذا الملك انه لم يعمد الى قتل المسلمين ، ولم يشردهم عن
البلاد ، فكان ذلك سببا فى بقاء المدينة الاسلامية وازدهار فيما بعد بصفة لامعة
وضاءة ، وكان النرمان انفسهم اول مستفيد منها .



وفى سنة ٥٤٨ احتلوا مدينة عنابة وجزيرة قرقنة .
واحتلوا سنة ٥٤٨ كذلك جزيرة جربة وفتكوا باهلها فتكا ذريعا .

القسم السابع

صقلية الاسلامية

تحت الحكم المسيحي النرمانى

رجار الثانى : كان من اغرب نتائج استيلاء النرمان على صقلية ان الغالبين النرمان تاثروا ايما تاثر بمدنية المسلمين المغلوبين ، وكان اختلاط العنصرين فى المدن والقرى والبوادرى سببا لتعارفهم السريع ، واقول لتألفهم البديع .

لقد نشأت فى هاتيك الاصقاع ، منذ انتهاء عصرى الاحتلال ، وموت الملك الفاتح رجار الاول ، مدنية جديدة زاهية زاهرة ، ظاهرة لامعة ، يمكننا ان ندعوها المدنية النرمانية الاسلامية .

كان المسلمين حين فقدوا سلطانهم السياسى بهاتيك الديار ، وضعفت عصبيتهم عن مزاوله الحكم وممارسة رئاسة الدولة ، فقدوا جميع الاسباب التى كانت تحول بينهم فى منازعاتهم الداخلية آخر ايام ملكهم ، وبين الاستمرار على نشر رسالتهم العلمية الفنية المدنية الرائعة ، فاقبلوا يومئذ تحت سلطة النرمان على العلوم والفنون والآداب ، وانشاء المباني الجليلة الضخمة والقصور البديعة ، وحتى الكنائس والكاتدرائيات ، مما لاتزال آثاره الجليلة قائمة الى يومنا هذا ، ولقد دام هذا الدور البديع دور المدنية الاسلامية النرمانية طيلة عهد النرمان فى صقلية ، بعد رجار الاول (مائة سنة)

يقول ابن الاثير عن رجار الثانى :

« سلك طريق ملوك المسلمين من الخبايب والحجاب ، والسلاحية والجاندارية وغير ذلك ، وخالف عادة الفرنج فانهم لا يعرفون شيئا من ذلك . وجعل له ديوان المظالم يرفع اليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده ، واكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فاحبوه . »

قال غوستاف لوبون فى تاريخه الشهير عن هذا العهد من تاريخ المدنية

الاسلامية النرمانية : (ص ٣١٦) .

« كانت مدينة العرب لاتزال زاهية بصقلية عندما اتم النرمان فتحها .
ولقد اظهر رجار وخلفاؤه من بعده عقلا راجحا ، عندما ادركوا سمو منزلة اتباع
الرسول ، فاقتبسوا عنهم النظم والتراتب الادارية وبذلوا لهم حمايتهم ، وبذلك
اتاحوا للبلاد عصر رفاهية دام الى عصر ملوك السواب الالمان (١١٩٤) الذين
ابعدوا العرب خارج صقلية .

ثم يقول فى موضع آخر من كتابه المذكور ، عن هذه الفترة التاريخية ايضا
(ص ٤١٦) :

« لقد ادرك الملك رجار كما ادرك رجال المسلمين ان التسامح وحده هو الذى
يكفل الحكم الصالح للجميع . وكانت الارستقراطية ، اعيان الامة وعلية القوم
من رجال العلم والفكر والصناعة مؤلفة خاصة من المسلمين فبذل لهم حمايته
بصفة فعالة .

ولقد سلك خليفته غليوم خطته فتعلم العربية وحذقها ، وكان لا يعتمد فى
المهمات الدقيقة الا على العرب خاصة ، واعترف له هؤلاء بالجميل ، فكانوا
ينضوون تحت لوائه لمقاومة الخصوم واخماد نيران الفتن وكانت لهم فى بالرمة
حارات فسيحة ، ومساجد ضخمة ، واثمة ، وقاض يفصل ما شجر بينهم ،
وبفضلهم كان بلاط ملوك النرمان زاهرا كثير التالى ، حتى امكن للمؤرخ ابنى
الفداء ان يقول عنه ، « وانه كان يضاهى بلاط الخلفاء فى بغداد والقاهرة » .
يقول الشريف الادريسي الصقلى فى كتابه الشهير « نزعة المشتاق فى
اختراق الآفاق » عن الملك رجار :

« فان افضل ما عنى به الناظر ، واستعمل فيه الافكار والخواطر ، ما سبق
الملك المعظم رجار المعترز بالله ، والمقتدر بقدرته ، ملك صقلية وانكبردة وايطاليا
وقلورية امام رومية الناصر للملة النصرانية ، اذ هو خير من ملك الروم بسطا
وقبضا وصرف الامور على ارادته صرفا وقبضا ، ودان فى ملته بدين العدل ،
واشتمل عليهم بكشف التطول والفضل ، وقام باسباب مملكته احسن قيام ،
اجرى سنن دولته على افضل نظام واجمل قيام . الخ

ملوك النرمان تولوا امر صقلية

الملك	الولادة	الولاية	الوفاة
رجار الاول	١٠٤٠	١٠٧٠	١١٠١
ابنه رجار الثانى	١٠٩٣	١١٠١	١١٥٤
ابنه غليوم الخبيث (١)	١١٢٠	١١٥٤	١١٦٦
ابنه غليوم الحسن	١١٥٤	١١٦٦	١١٨٩
طانكريت (٢)		١١٩٠	١١٩٤
غليوم الثالث		١١٩٤	

وهو آخر ملوك النرمان ، تولى صيبيا تحت رعاية امه (سبيلا) لكن الامبراطور الالماني هنرى استولى فعلا على امر البلاد وضمها للامبراطورية وساق غليوم وامه واخوته للاسر فسمّل اعينهم وجسهم فى قلعة حتى لاقوا حتفهم .



(١) اطلق النصارى عليه هذا الاسم لحسن سيرته مع المسلمين ولانه عندما تولى الملك اعتمد فى المهمات عليهم .

(٢) هو ابن غير شرعى لرجار الثانى ؛ وفى ايامه تدخل الامبراطور هنرى الرابع الالماني فى امر صقلية وضرب على ايدى النرمان والمسلمين معا .

النفوذ الاسلامى بصقلية

تحت امرة ملوك النرمان

يقول مسيو لوط السالف ذكره ، فى كتابه « غارات الهمج » عن هذه الحقبة من تاريخ المسلمين فى صقلية :

« انتهى امر الاستيلاء العربى بجزيرة صقلية ، لكن الحياة العربية قد استمرت بعد ذلك ، فالملك رجار الاول ، والملك رجار الثانى الذى استبدل لقبه واصبح يدعى الملك بدل الكونت وكذلك غليوم الاول وغليوم الثانى قد نفذوا جميعا ما تعهدوا به لجماعة المسلمين هنالك من احترام عوائدهم وقوانينهم ولغتهم وديانتهن

ثم ان ملوك النرمان قد استخدموا المسلمين جنودهم ، وتركوا للمدن الصقلية وكانت كلها يؤمئذ مدنا اسلامية (١) جميع نظمها البلدية والعرفية والصناعية، وفتحوا فى وجه المسلمين ابواب ارفع مناصب الدولة يتولونها ، اما علماء المسلمين ورجال الادب والفكر منهم فقد كانوا خلاصة الخاصة فى بلاط الملوك . اما بالنسبة لسائر الرعايا المسلمين فقد كانوا يرون فى ملوك النرمان ، امراء يعتنقون الدين المسيحى ، ويقول عمارى ان الامبراطور فريديريك الثانى كان كما كان رجار الثانى قبله سلطانا من سلاطين الشرق لا يميزه عنهم الا دينه بالمسيحية .

... ولقد دام الرقى المادى العربى والحضارة الادبية العربية امدا طويلا ، وورثها عن ملوك النرمان ملوك الالمان من عائلة الالمان من عائلة هوها نستوفن كهنرى الرابع وافر يدريك الثانى .

« ولعنا لا نجد مندوحة عن المقارنة بين سياسة ملوك النرمان الحرة الماهرة مع مسلمى صقلية ، وبين سياسة ملوك قشتالة الاسبان مع مسلمى الاندلس .

(١) انظر فيما بعد قسم : كيف ترك المسلمون الجزيرة ؟

لكننا نقول ان فارقا جسيما يمنعنا من هذا التفسير ، حيث ان المسيحيين فى اسبانيا كانوا يتولون بانفسهم اخراج المسلمين الغاصيين من بلادهم ، اما فى صقلية فان النرمان انفسهم كانوا ا جانب غاصيين ، بل كانوا فى اول امرهم مغامرين مكروهين ، واضطرو الاضطناع الناس بحسن السلوك ، فقربوا منهم المسلمين واجملوا معاملة النصرارى سواء كانوا من الصقليين اللاتينيين او من الصقليين الاغريق .

« كانت حياة المسيحيين بصقلية اثناء حكم المسلمين من الاغالبه او الفاطميين حياة مظلمة النواحي لا نستطيع ان نستجلي غوامضها ، لان الكتابات المسيحية واغلبها كان مكتوبا باللغة اليونانية قد ا تلفت خلال القرن العاشر ، انما كان مقامهم هنالك كمقام سائر المسيحيين الذين الذين عاشوا تحت حكم المسلمين اى انهم كانوا يدفعون للدولة اتاوات ثقيلة وكانوا فى اكثر الاوقات بعيدين عن المناصب الادارية ، ولقد كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية انما على شرط ان يكون ذلك بصفة هادئة خافتة » ان عدم وجود شهداء للمسيحية بهذه الاقطار خلال هذا العصر يدل دلالة صريحة على تسامح المسلمين نسييا ، ويقول ميكال عمارى ان استشهاد وتعذيب القديس بوركوب اسقف طبرمين عند سقوط هذه المدينة سنة ٩٠٧ بين ايدى المسلمين لم يكن نتيجة تعصب دينى اسلامى بل كان نتيجة جنون ابراهيم الاغلبى الثانى الذى قاسى اهله وذوو قرابته الاهوال من جنونه .

« ... لقد ازدهر التفوق الاسلامى بصقلية ازدهارا لامعا من القرن التاسع الى القرن الحادى عشر حتى يكاد يخيل لك ان صقلية قد اصبحت جزيرة عربية بحتة . وكنت تنتظر بعد ذلك ان ترى فوق اديم صقلية معالم وآثارا تباهى بجمالها وجلالها معالم وآثار اسبانيا والمغرب وتونس . لكن يالها من خيبة امل ، انه لم يبق لنا من ذلك اى شىء سواء معالم الدين او الحياة المدنية . انما يتجلى لك نفوذ الهندسة العربية فى قصور وكنائس النرمانيين امثال قصور القبة والعزيز والقبولاء او كاتدرائيات بالرمة وشفالو .

« .. نظرا لذلك الدور العظيم الذى لعبه بارض الجزيرة علماء الرياضة

والمنجمون والاطباء والمهندسون المسلمون ، ونظرا لكون البلاط الملكي النرمانى كان بلاطا شرقيا فى نظر امراء المسيحية ، كان ينتظر ان تحيا العربية فى هاتيك الديار حياة طويلة . لكن شيئا من ذلك لم يكن . واخذت العربية تتراجع وتتقهقر خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الى ان تضاءلت حتى فى المدن ، وذلك يرجع لسببين اثنين : اولهما ان الطبقات الراقية والعليا من المسلمين قد هجرت الجزيرة الى افريقيا ومصر وثانيهما وهو الاهم ان الرهبان اللاتينيين قد امعنوا فى تنصير الناس طوعا او كرها بحيث ان الاسلام اضمحل تماما من ارض الجزيرة حسبما يلاحظه عمارى خلال القرن الثالث عشر »

جاء فى كتاب « التاريخ العالمى » للمؤرخ السويدي الكبير كارل كرمبرغ (١) ، عن هذه الفترة ، ما يلى :

« كانت صقلية ، خلال القرنين الحادى والثانى عشر ، الموطن الوحيد الذى تسود فيه حرية المعتقد . فالاديان الثلاثة المسيحية والاسلامية واليهودية ، كانت تعيش هنالك جنبا الى جنب ، فى امن وسلام .

« قامت هنالك ممدنية ضخمة شامخة ، ذات طابع مختلط ، كانت ثمرة ما اظهره الملك روجى من عبقرية سياسية ، وضعته فى صف الاسكندر ، وتيودوريك الكبير .

« نشأت هذه الممدنية بفضل حكومة سمحت لليونانيين وللمسلمين وللإيطاليين ولليهود ، بأن يعمل كل على شاكلته ، وكانت تشجع الجميع على حد سواء . وهكذا كانت صقلية ، جغرافيا وتاريخيا ، الملتقى الطبيعى للمدنيات الاغريقية والرومانية والعربية . كذلك اجتمع فيها ، فى تجانس بديع ، الفن الهندسى المعمارى البيزنطى ، والعربى ، والرومانى والنرمانى ، فتشكل من كل ذلك هذا الفن النرمانى الصقلى ، وهو زبدة ابع مدنيات »

(1) Histoire Universelle : Karl GRIMBERG

بعد مائة عام - حكاية ابن جبير : فى سنة ٥٦٠ هجرية (١١٧٢ م) اى بعد مائة عام من انهيار حكم المسلمين بصقلية ودخولها تحت طاعة النرمان ، وبعد ان تدخل فعلا الالمان فضربوا على ايدى آخر ملوك النرمان ونكسوا بالمسلمين تنكيلا ذريعا ، بعد ذلك ، دخل صقلية قافلا من حجه الرحالة الشهير ابو الحسين بن جبير الكنانى الاندلسى ، فترك لنا وثيقة من اغرب وثائق التاريخ ، هى رحلته البديعة التى صور فيها تصويرا دقيقا حالة المسلمين فى الجزيرة مع ملوك الالمان فى اخرج ساعة ، وادق موقف ، اى فى الساعة التى سبقت انتهاء عصر التسامح الدينى واخراج المسلمين كافة من صقلية .

فهذا القسم من الرحلة يعتبر اصدق تاريخ لتلك الحقبة من التاريخ الصقلى وتقل نتف منه بنصها نعتبره تمة لمبحثنا هذا ، يقول ابن جبير وهو فى مسينا :

« وكفى بانها ابنة الاندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة ، مشحونة بالارزاق على اختلافها ، مملوءة بانواع الفواكه واصنافها ، لكنها معمورة بعبدة الصليبان يمشون فى مناكبها ويرتعون فى اكنافها ، والمسلمون معهم على املاكهم وضياعهم قد احسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم : وضربوا عليهم اتاوة فى فصلين من العام يؤدونها ، وحالوا بينهم وبين سعة فى الارض كانوا يجدونها .

... وليس فى مسينا هذه من المسلمين الانفر يسير من ذوى المهن ولذلك يستوحش بها المسلم الغريب » .

ثم حل ببالرمة فكتب لنا عنها هذه القطعة الطريفة : « هى مسكن ملكهم غليام Guillaume (١) وشان ملكهم عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتیان المحاييب ، وكلهم او اكثرهم كاتم ايمانهم متمسك بشريعة الاسلام ، وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم فى احواله ، والمهم من اشغاله ، حتى ان الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين . وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . ووزراؤه وحجابه الفتیان ، وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . ووزراؤه وحجابه الفتیان

وله منهم جملة كثيرة هم اهل دولته والمرسمون بخاصته ، وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسعون فى الملابس الفاخرة ، والمراكب الفارعة ، وما منهم الا من له الحاشية والخول والاتباع ، وليس فى ملوك النصارى اترف فى الملك ولا انعم ولا ارفه منه ، وهو يتشبه فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع اساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم ابهة الملك واطهار زينته بملوك المسلمين ، وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له ان طبيبا او منجما اجتاز ببلده امر بامساكه وادر له ارزاق معيشته ، حتى يسليه عن وطنه وسنه نحو الثلاثين سنة . . . ومن عجيب شأنه انه يقرأ ويكتب العربية ، وعلامته على ما اعلما به احد خدمته المختصين به « الحمد لله حق حمده » وكانت علامة ابنه : « الحمد لله شكرا لا نعمه

» واما جواريه وحظاياه فى قصره فمسلمات كلهن ، ومن اعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى ابن فتيان الطراز ، وهو يطرز بالذهب فى طراز الملك ان النصرانية من الفرنجيات تقع فى قصره فتعود مسلمة ، يعيدها الجوارى المذكورات مسلمة ، ومن على تكتم من ملكهن فى ذلك كله ، ولهن فى فعل الخير امور عجيبة .

» واعلمنا انه كان بهذه الجزيرة زلازل مرجفة ، دعر لها هذا المشرك ، فكان يتطلع فى قصره ، فلا يسمع الا ذاكرا لله ورسوله من نساؤه وفتيانه ، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ، فكان يقول لهم ، ليذكر كل احد منكم معبوده ومن يدين به تسكيننا لهم .

» وما فتiane الذين هم عيون دولته واهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون ، ما منهم الا من يصوم الا شهر تطوعا وتؤجرا ، ويتصدق تقريبا الى الله وتزلفا ، ويفتك الاسارى ويربى الاصاغر منهم ويزوجهم ، ويحسن اليهم ، . . الفينامنهم بمسينة فتى اسمه « عبد المسيح » من وجوههم وكبرائهم ، بعد مقدمة رغبة

(١) هو غلبوم الحسن ورحلة ابن جبير وقعت فى آخر سنة من ملكه .

مناليه في ذلك ، فاحتفل في كرامتنا وبرنا ، واخرج لنا من سره المكنون بعد مراقبة منه في مجلسه ، ازال لها من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه ، فسألنا عن كة قدسها الله ، وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فاخبرناه وهو يدوب شوقا وتحرقا ٠٠٠ وقال لنا انتم مدلون باظهار الاسلام ، فائزون بما قصدتم له رابحون ان شاء الله ، ونحن كاتمون ايماننا خائفون على انفسنا متمسكون بعبادة الله واداء فرائضه سرا متعلقون في ملكة كافر بالله قد وضع في اعناقنا ربة الرق ٠٠٠

« ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان انهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون افاذا من مجلسه فيقضون صلاتهم ٠٠٠ فلا يزالون باعمالهم ونياتهم وبنصائحهم الباطنة للمسلمين في جهاد دائم » .
ويقول عن مدينة ثرمة :

« وسرنا في طريق كانها السوق عمارة ، وكثرة صادر ووارد وطوائف النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسونا ، فراينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس اهل الجبل ٠٠٠ فانتبهنا الى « قصر سعد » وهو على فرسخ من المدينة وقد اخذ منا الاعياء فبتنا فيه ، وهذا القصر على ساحل البحر ، مشيد البناء عتيقه ، قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة ، لم يزل ولا يزال بفضل الله مسكنا للعباد منهم ، وحوله قبور كثيرة للمسلمين ، اهل الزهادة والورع ، وهو موصوف بالفضل والبركة مقصود من كل مكان ، وبازائه عين تعرف بعين المجنونة ، وله باب وثيق من الحديد وداخله مساكن وعلاى مشرفة وبيوت منتظمة ، وهو كامل مرافق السكنى ، وفي اعلاه مسجد من احسن مساجد الدنيا بهاء ، مستطيل ذو حنايا مستطيلة مفروش بحصر نظيفة لم ير احسن منها صنعة ، وقد علق فيه نحو الاربعين قنديلا من انواع الصفر (النحاس) والزجاج ، وامامه شارع واسع ، يستدير باعلى القصر وفي اسفل القصر بئر عذبة ، فبتنا في هذا المسجد احسن مبيت واطيبه ، وسمعنا الاذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه ، واكرمنا القوم الساكنون فيه ، ولهم امام يصلى بهم الفريضة والتراويح فى

هذا الشهر المبارك

ووصف حال مسلمى بالرمة فقال :

وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان ، يعمرون اكثر مساجدهم
ويقومون الصلاة باذان مسموع ، ولهم ارباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن
النصارى والاسواق مغمورة بهم وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة
المحضورة عليهم ويصلون الاعياد بخطبة ، ودعاؤهم فيها للعباسى ،
ولهم بهاقاض يرتفعون اتيه فى احكامهم ، وجامع يجتمعون فيه
للصلاة ، ويحتفلون فى وقيدته فى هذا الشهر المبارك ، واما المساجد فكثيرة لا
تحصى ، واكثرها محاضر لمعلمى القرآن ...

وزى النصارىات فى هذه المدينة زى نساء المسلمين ، فصيحات الالسن ،
ملتحات ، متنقبات ، خرجن فى هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير
المذهب والتحفن اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة
وبرزن لكنايسهن او كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى
والتخضب والتعطر ، فتذكرنا على جهة الدعاية الادبية قول الشاعر :

ان من يدخل الكنيسة يوما يلحق فيها جاذرا وطيءا

« ... وبتنا فى الطريق ليلة واحدة فى بلدة تعرف بعلمقة ، وهى كبيرة
متسعة فيها الاسواق والمساجد وسكانها وسكان الضياع التى فى هذا الطريق
كلهم مسلمون »

ثم حل بمدينة اطرابنش فقال :

« وكان مصلانا فى هذا العيد المبارك (عيد الفطر) باحد مساجد اطرابنش
المذكورة ، مع قوم من اهلها امتنعوا من الخروج الى المصلى لعذر لهم ، ...
وخرج اهل البلد الى مصلاهم ، مع صاحب احكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات
فنعجبنا من ذلك ومن اغضاء النصارى لهم عليه .

ابتداء امر الفتنة فى الدين : مما يرويه ابن جبير ، بعد ان اقام مدة الشتاء

فى مدينة اطرابنش :

« تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال اهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها - دمرهم الله - وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهدة الذمة وغلظه الملك الى دواعى طوارى الفتنة فى الدين على من كتب الله عليه الشقاء من ابنائهم ونسائهم ، وربما تسبب الى بعض اشياخهم اسباب نكالية تدعوهم الى فراق دينهم . »

« فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين الغربية لبعض فقهاء مدينتهم التى فى حضرة ملكهم الطاغية ، ويعرف (الفقيه) بابن زدغة ، ضغطته بالمطالبة حتى اظهر فراق دين الاسلام ، والانغماس فى دين النصرانية ، ومهر فى حفظ الانجيل ومطالعة سبير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد فى جملة القسيسين الذين يستفتون فى الاحكام النصرانية ، وربما طرأ حكم اسلامى ايضا فيه لما سبق من معرفته بالاحكام الشرعية ، ويقع الوقوف عند فتياه فى كلا الحكمين ، وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة ومع ذلك فاعلمنا انه يكتم ايمانه . »

« ومن اعظم ما منى به اهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه او على زوجه او تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه انفة تؤديه الى التطارح فى الكنيسة فيتنصر ويتعمد فلا يجد الاب على الابن ولا الام على البنت سبيلا ، فتخيل حال من منى بهذا فى اهله وولده ويقطع عمره متوقعا لوقوع هذه الفتنة فيهم ، فهم الدهر كله فى مداراة الاهل والولد خوف هذه الحال ، واهل النظر فى العواقب منهم يخافون ان يتفق على جميعهم ما اتفق على اهل جزيرة اقريطش من المسلمين فى المدة السالفة فانه لم تزل بهم — الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشئ بعد الشئ — حالا بعد حال ، حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته . »

زعيم المسلمين ابن حمود : قال ابن جبير : « وصل هذه الايام الى هذه المدينة زعيم اهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم : القائد ابو القاسم ابن حمود المعروف بابن حجر ، وهذا الرجل من اهل بيت بهذه الجزيرة ، توارثوا السيادة

كابرا عن كابر ، وقرر لدينا مع ذلك انه من اهل العمل الصالح مريد للخير
محب لاهله كثير الصنائع الاخراوية ، من افتكاك الاسارى وبث الصدقات
فى الغرباء والمنقطعين من الحجاج ، الى مآثر جمّة ومناقب كريمة ، فارتجست
هذه المدينة لوصوله .

وكان فى هذه المدة تحت هجران من الطاغية الزمه داره بمطالبة توجهت عليه
من اعدائه ، افتروا عليه فيها احاديث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين
ايدهم الله ، كادت تقضى عليه لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات اغرمته
نيفا على الثلاثين الف دينار ، مؤمنية ، ولم يزل يتخلى عن جميع دياره واملاكه
المورثة عن سلفه حتى بقى بدون مال .

« فاتفق فى هذه الايام رضى الطاغية عنه وامره بالنفوذ لهم من اشغاله
السلطانية فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله وصدرت عنه عند
وصوله الى هذه انبلدة رغبة فى الاجتماع بنا فاجتمعنا به ، فظهر لنا من باطن
حاله وبواطن احوال هذه الجزيرة مع اعدائهم ما يبكى العيون دما ويذيب الما ،
فمن ذلك انه قال : كنت اود لو اباع انا واهل بيتى فلعل البيع كان يخلصنا
مما نحن فيه ، ويؤدى بنا الى الحصول فى بلاد المسلمين ومن عظم هذا الرجل
المحمود المذكور فى نفوس النصارى انهم يزعمون انه لو تنصر لما بقى فى
الجزيرة مسلم الا وفعل فعله ، اقتداء به » .

حادث له مفزاه الاليم - وآخر ما نرويه عن ابن جبير ، هذه الحادثة
الفربية التى تملؤ النفوس لسوعة واسى وتدل دلالة قوية على ان مقام
المسلمين بصقلية رغم مظاهر التسامح الدينى الاخيرة ، كان مقاما قد قصر امده
وانتهت مدته :

« ومن اعجب ما شاهدناه من احوالهم التى تقطع النفوس اشفاقا وتذيب
القلوب رافة وحنانا ، ان احد اعيان هذه البلدة وجه ابنه الى احد اصحابنا
الحجاج راغبا فى ان يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد راهقت الادراك ، فاز
رضيها تزوجها وان لم يرضها زوجها ممن رضى لها من اهل بلده ويخرجها مع

نفسه راضية بفراق ابنيها واخوتها ، طمعا في التخلص من هذه الفتنة ، ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين ، فطاب الابن والاخوة نفسا بذلك لعلهم يجدون السبيل لتخلص الى بلاد المسلمين ، بانفسهم اذا زالت هذه العلة المقيدة عنهم . « فتأجر هذا الرجل المرغوب اليه بقبول ذلك وأعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية الى خير الدنيا والآخرة ؛ وطال عجبنا من حال تؤدى بانسان الى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب ، واسلامها الى يد من يغربها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق اليها والوحشة دونها ، كما استغربنا حال النصيبة صانها الله ، ورضاها بفراق اهلها رغبة في الاسلام ؛ واستمساكا بعروته الوثقى » .

فريدريك الثاني امبراطور المانيا وملك صقلية

كان الامر قد استتب للامانيين بصقلية وربوع ايطاليا ؛ واحتضنت البابوية تلك الامبراطورية الجرمانية وشملتها بالرعاية مستفيدة من قوتها المادية لبسط سلطانها الروحي ؛ كما استفاد الالمانيون من ذلك النفوذ الروحي لتقوية سلطانهم المادى . ولقد ظهرت آثار ذلك التعاون جلية اثناء الحروب الصليبية التى كانت متقدة الاوار بالبلاد الشامية ، وكانت الباباوية تذكى الحمية فى نفوس الملوك والاباطرة والامراء باروبا وتبعث منهم الفوج اثر الفوج للجهاد فى سبيل الصليب .

فى تلك الاثناء ، فى مفتح القرن الثالث عشر المسيحى ، تألق فى السماء الاروبية نجم جديد هو نجم الامبراطور الشاب فريدريك الثانى ، الذى ترعرع تحت رعاية البابا انوسانت الثالث ، الذى كان يطمع فى ادارة الدنيا واخضاعها لسلطانه ، فلما مات ذلك البابا سنة ١٢١٦ ، عندما كان يتفقد التجهيزات النهيئة للحملة الصليبية استقل فريدريك بامور نفسه متخلصا من كل نفوذ . نشأ فريدريك نشأة صقلية عربية ، اذ كانت امه كنستنس صقلية النشأة

والمسكن ، فتربى هنالك فى وسط راق ، رقيق الحاشية جمع الى مدينة المسلمين وحضارتهم رقة الآداب الاغريقية وعلومهم ؛ فلما استقل بامور الملك حين ترشد اتخذ من بالرمة مقرا لسلطانه ، وسار على غرار ملوك الترمان السالفين ومن سبقهم من ملوك وامراء المسلمين .

اقرار المسلمين بالجنوب الايطالى - انتهى عهد ملوك الترمان بصقلية بعد سلطان دام مائة عام ، وانتهى معه كما اسلفنا عهد راحة المسلمين وحریتهم .
وابتدأت اعمال الاضطهاد والتنكيل تحت تأثير الكنيسة ، وتحت مفعول الحرب الصليبية ، تظهر نتائجها فجمع المسجون امرهم عندما تولى البابا انوسانت الثالث الوصاية على فريدرىك الصبى ، وخلعوا طاعة الجرمانيين ، واعلنوا الثورة تكن الجنود المسيحية غلبتهم على امرهم سنة ١٢٠٠ فسكنوا حينئذ ثم عادوا للعصيان والثورة فرارا من انفتنة فى اندين فكان على الامبراطور فريدرىك اخضاعهم فيما بين سنتين ١٢٢١ و ١٢٢٥ ، فكانت ثوراتهم اشبه شىء بثورات بقايا مسلمى اسبانيا « المورىسك » الذين تظاهروا بالتنصر واخفوا الايمان ، خلال كامل القرن السادس عشر (١) .

لكنه فكر فى وسيلة تمكنه فى آن واحد من التخلص من اولئك الرجال الاشداء فى صقلية ، واستعمال قوة سواعدهم وصلابة سيوفهم لتمكين سلطانه وقهر اعدائه بالبلاد الطليانية ، لانهم يحاربون غير متأثرين بالفكرة المسيحية ، وهكذا اخذ ينقل للبلاد الطليانية جموعا كثيرة من المسلمين اسكنهم اول الامر مدينة لصيرة ، ثم نصيرة (انظر الخريطة) وقد بلغ عدد المسلمين والمسلمات هنالك (٦٠) الف نسمة منهم الثلث من رجال السيف والطعان ولقد احدث هذا العمل رجة فى العالم المسيحى وكان من جملة الاسباب التى حملت البابا على اعلان (كفر) فريدرىك لانه استعمل المسلمين لقتال المسيحيين بينما الكنيسة تعمل على جمع كلمة المسيحيين لقتال المسلمين شرقا وغربا .

لقد سار فريدرىك اول مرة لبلاد فلسطين مشاركا فى الحرب الصليبية استرضاء للمسيحيين ؛ لكن البابا اغتنم فرصة ابتعاد الملك الامبراطور لايقاد

نيران الفتن فى بلاده ودفع امراء الطليان لرفع لواء العصيان فكان جنود فريدريك الصقليون ومسلموا نصيرة ينكلون بالثائرين ويخضعونهم .

تأسيس المملكة - رجع فريدريك من فلسطين واعلن سنة ١٢٣١ تأسيس مملكة صقلية وقد كان متشبعا بالنظم الشرقية الاسلامية ؛ وكانه ذهب لبلاد الشرق الادنى ليدرس النظم الاجتماعية والادارية لا ليحارب المسلمين ؛ فرتب يومئذ امور الدولة ترتيبا اجمع المؤرخون على انه كان حجرة الاساس فى تكوين الدول الحديثة ، واسس الدواوين المختصة ، وفصل بين السلط القضائية والمالية والتشريعية التى كانت من خصائص الملك وحده فيما سلف . وقضى على سلطة الكهنوت بصفة جعلت البابا غريغوريوس التاسع يعلن ان الملحد فريدريك « محارب للكنيسة متلف للحريات العامة » والحريات العامة فى نظر البابا هى حرية رجال الدين خاصة .

البلاد - فى القصر الملكى ببازمة (انظر رسمه فى القسم المصور) اعاد الملك رونق وبهاء بلاط ملوك النرمان والمسلمين ؛ وجمع حوله فى تناسق غريب جملة من جلة علماء المسلمين والاغريق واللاتينيين ؛ ولقد كان الملك يحسن التكلم باللسن العربية والالمانية والاطليانية والاغريقية والفرنسية ؛ وكان متبحرا فى علم الحيوان والنبات وقد اخذ معه من بلاد الشرق طائفة من غريب الحيوان شكل منها « متحفا » كان ينقله معه اثناء حروبه بايطاليا .

واذ كانت العلوم قد تضاءلت فى صقلية وجنوب ايطاليا ، فان الملك فريدريك اسس جامعة « نابولى » التى كانت اولى الجامعات الحديثة من نوعها وقد جاء فى مرسوم تاسيسها : « ان جميع معلومات الانسان يجب ان تدرس بنابولى ، لكى يجد كل جائع للعلم الغذاء الذى تميل نفسه اليه حتى لا يكون مضطرا للهجرة فى سبيل المعرفة واستعطاف الاجانب من اجل العلم » . وبما ان « جامعة سالرنة » الطبية كانت ذات شهرة واسعة تدرس على

(١) انظر كتابنا « تاريخ الحروب الجزائرية الاسبانية ١٤٩٢ - ١٧٩٣ »

الطريقة التي اختطها العلامة التونسي الصقلي (قسنطيني) (١) اعلن الملك فريدريك انه لا يجوز لانسان ان يياشر مهنة انتطبيب ما لم يكن متحصلا على اجازة تلك الجامعة .

الافكار الدينية - كان الامبراطور الملك على صلة متواصلة مع العلماء المسلمين شرقا وغربا ؛ وكان يستدعى لبلاطه علماء الاندلس وافريقيا ، ويجادلهم في علوم الكلام ومسألة الارواح وخلود النفس ما الى ذلك مما هو مرسوم بكتاب يدعى « المسائل الصقلية » (٢) كتبت نسخته الاصلية باللغة العربية ؛ وكان حافظا لفلسفة ابن رشد ناشر لها ومدافعا عنها .

ولقد كانت الحياة تلذ له في مدينة نصيرة بين الجماعة الاسلامية التي استعمر بها تلك الناحية ، وهناك كان له قصر شرقي وخدم وحواشى وجواري حسان وهناك كان يحيا حياة سلطان من سلاطين المسلمين .

ولم تكن فكرته الدينية مستقيمة على الوتر المسيحي ، فلقد كتب البابا غريغوريوس التاسع منشورا لرجال الكنيسة يعلن فيها كفر الملك ويقول « نستطيع ان نثبت ان هذا الملك الفاجر يصرح علنا بان العالم قد غلظه ثلاثة من الادياء هم : موسى وعيسى ومحمد (صلوات الله عليهم) وانه بينما قد مات موسى ومحمد في عنفوان المجد والشرف ، مات عيسى موة حقيرة وهو معلق على صليب خشبي ؛ ثم يقول ان العقل البشرى لا يتصور ان امرأة عذراء تلد الاها ، ويجاهر امام الناس انه لا يمكن لاسان ان يعتقد الا مايقبله العقل ويقوم الدليل على صحته وتشهد الوقائع على ثبوته » .

ولقد كان فريدريك شديد النعمة على الرهبان ، وشديد القسوة على رجال

(١) انظر ترجمته وآثاره فيما بعد .

(٢) هي جواب الصوفي الاندلسي عبد الحق ابن سبعين ، احد اقطاب فلسفة « وحدة الوجود » (Le Pantheisme) عن اسئلة الامبراطور افريدريك حول : قول ارسطو بقدوم العالم . والعلم . والنهاي . والمقولات العشر . وبقاء النفس البشرية بعد الموت . ومن اشهر كتبه « كتاب الالواح » وفيه بيان كامل لفلسفة وحدة الوجود .

الكنيسة ، ويقول ان عيسى كان فقيرا يحب الفقراء ، فما للرهبان ورجال الكهنوت يجمعون الثروات الطائلة ويعيشون فى الترف والنعيم ؟

ولقد كتب مرة رسالة لامبراطور الروم فاتاتزيس Vatatzes يقول فيها :
« يا لسعادة آسيا ؛ ويا لسعادة بلاد الشرق ، هنالك لا يخشى الملوك ثورة شعوبهم ، ولا دسائس رجال الدين حواليتهم » .

فى الحرب الصليبية - كان البابا يستثير العامة ، ورجال الدين ، واوروبا كلها ، ضد فريديريك ، فاضطر هذا للعودة تخفيفا لتلك الغائلة ، للميدان الشرقى والحرب الصليبية ؛ فارسل الحملة تحت قيادة احد رجاله ، وكانت نتيجتها ان استولى المسلمون على دمياط (سنة ١٢٢١) فاشتدت نقمة المسيحيين على الملك ، واضطر للسفر بنفسه سنة ١٢٢٨ ، لكنه لم يعمل هنالك اعمال صليبي محارب ، بل اخذ يختلط برجال المسلمين وكبرائهم ، ويربط صلات الود والادب والعلم معهم ، فكانت الوقائع الحربية فاترة من الجهتين ، انتهت بعقدة معاهدة مع سلطان مصر الملك الكامل الايوبى ، نال بها المسيحيون صلحا بيت المقدس وبيت لحم والناصر ، فلم تشبع تلك الحملة نهم الباباوية ورجال التعصب ، وصدر الحكم « بكفر » الامبراطور الملك فريديريك .

لكن الامبراطور راي انه لا تمكن له مقاومة اكنيسة بصفة علنية ، وانه لا يستطيع الحكم ورجال الدين على الاطلاق وشعبه ضده ، فاخذ يعمل لنيل رضا البابا ، حتى نال الغفران ، ووقع نشر البلاغين التاليين : الدبلوماسيين : ٠٠٠ : يقول البابا فى منشورة « لقد جاءنى الامبراطور وبين جنبيه نفس مؤمنة مطمئنة ، ورايت انه على استعداد ليقوم باى عمل فى سبيل منشآتنا وتحقيق غاياتنا » .

ويقول الامبراطور فى منشوره : « لقد خاطبنى البابا بقلب مفتوح ، وهذا نائرة نفسى ، فلا اريد ان اتذكر شيئا من الماضى » .

هنالك ثارت ثورة التعصب الكنيسى ؛ واسترجع رجال الكهنوت نفوذهم وسلطانهم ، وقاموا برد الفعل فاخذوا يمعنون فى تتبع « الكفار » والتنكيل بهم ، واحراقهم ، ونال المسلمون من ذلك جانبا عظيما .

اخراج آخر المسلمين من صقلية - اصبح المسلمون يفادرون الجزيرة جماعات وافرادا ، كلما وجدوا للخروج سبيلا ، فلم يبق منهم هنالك الا الاقل يعيشون فى ذل ومسكنة .

لما تفاقم امر ذلك ، وكانت دولة الموحدين العلية قد تركت فى بلاد تونس وشرق الجزائر ، ثمرتها الطيبة ، دولة بنى حفص ، عقد السلطان ابو زكريا بن ابي محمد عهدا مع الامبراطور ، يضمن للمسلمين فى بالرمة وضواحيها حرية دينهم وذواتهم واملاكهم ، وان يكونوا شركاء للنصارى فى البلاد والضاحية ؛ وبقي المسلمون آخر ايامهم هنالك متمتعين بتلك العناية الحفصية الغالية :

عندما لى ابو زكريا داعى ربه فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ (١٢٤٩ م) وبلغ نصارى صقلية موت السلطان المسلم العظيم ؛ بادروا بنقض ذلك العهد ، ولجوا فى طغيانهم ضد المسلمين وتكالبوا عليهم ، فلجأت بقايا المسلمين هنالك للحصون والاعوار ؛ ونصبوا عليهم زعيما عربيا من بنى عبس ؛ فصمد اليهم النصارى وحاصروهم وضيقوا عليهم حتى استسلموا ، فاركبهم الملك البحر (١) واجتاز بهم الى الارض الافريقية ، وعرج النصارى كذلك على جزيرة مالطة ، فاحرجوا منها فى تلك السنة سائر من كان قد بقى بها من المسلمين ؛ واحلوهم البلاد الافريقية كذلك ؛ وانقطعت يومئذ آخر كلمة للاسلام بهاتيك الديار ، والملك لله الواحد القهار (٢) .

موت الملك واستشهاد مسلمي نصيرة - سلك الملك منذ تلك الساعة سياسة اروبية مسيحية بحتة . وتمكن بواسطة البابا من تدعيم سلطانه وبث نفوذه واخضاع الامراء لسلطته . الى ان حانت ساعة وفاته وقد كان يحن

لشرقيته القديمة وتلذذ له السكنى فى قصره بين مسلمى نصيرة وهناك مات
ودفن وله ضريح ضخم ، نقشت عليه كتابات عربية بديعة .

فلما تولى الملك شارل دانجو الفرنسى ، عمد الى التخلص من جموع
المسلمين فى نصيرة فاركب الكثير منهم الى افريقيا سنة ١٢٩٢ بعد ان اقاموا
هنالك وازدهر استعمارهم ٦٧ سنة . ولقد بقيت منهم بقية من المستضعفين
بتلك البلاد ، راي الملك شارل التخلص منهم دفعة واحدة فاطلق عليهم وحوش
جنده سنة ١٣٠٠ (٧٠٠ هـ) فقتلوههم ومحقوا رسمهم من الوجود ، ووزع ارضهم
واملاكهم ومتاعهم على العائلات الطليانية وهكذا انتهى امر الاسلام بايطاليا بعد
ما انتهى من صقلية .

(١) لاحظ ما فى اركابهم البحر وعدم الفتك بهم بعد تلك الثورة من عاطفة انسانية غريبة
الوقوع فى تلك العصور المظلمة .

(٢) فيكون المسلمون قد بقوا بصقلية ، حاكمين ومحكومين ، مدة ٤٢٣ سنة (٨٢٧ - ١٢٥٠)

القسم الثامن

التمدن وال عمران

شهد المؤرخون كافة ان ايام المسلمين بصقلية سواء حاكمين او محكومين ، كانت ازهر ايام الجزيرة واكثرها امنا واوسعها عمراناً .

ولا نستطيع مهما اوتينا من مقدرة وبيان ، ان نلخص مدنية المسلمين في الجزيرة الصقلية ونجمل وصفها بمثل ما لحصها واجمل وصفها اجمالاً بديعاً المؤرخ الاكبر النزيه قوسطاف لوبون ، في كتابه مدنيات العرب ؛ فلا نرى اوفق من تعريب الفصل برمته ، اذ هو الصورة الصادقة لمدينة المسلمين هنالك ، صورة لم تكد تترك شاردة ولا واردة الا احصتها وسجلتها ؛ يقول قوسطاف لوبون :

« ان ما لدينا من المصادر ، لاهياء معالم المدنية العربية بصقلية نادر قليل ، بل ان المعلومات الوحيدة التى لدينا تنحصر فى روايات المؤرخين المختلفة ، وفى عدد قليل من الآثار التى سلمت من ايدي الحراب والتحطيم ، وفى بعض النقود .

« ذلك المقدار الزهيد الذى بين ايدينا اليوم يكفيننا على كل حال لاقامة البرهان على ان مدنية العرب فى جزيرة صقلية كانت دون مدنياتهم فى اسبانيا وفى مصر ؛ انما هى كانت رغم ذلك موجودة وطيدة الاركان ، بحيث ان المستوى الفكرى والصناعى والاجتماعى فى صقلية كان ارفع عند خروج المسلمين من صقلية من المستوى الذى كانت عليه عندما دخلوها .

« لا يستطيع انسان ان يدرك مدى التأثير التمدنى للشعب على آخر الا بمدى ما احدثه فيه من اثر اصلاحى . فاذا نحن جربنا على هذه القاعدة ، راينا ان النفوذ الصالح للعرب فى جزيرة صقلية كان جسيماً .

« **النظام الإدارى (١)** - عندما اتم المسلمون فتح الجزيرة ابتدأوا فيها عصر التنظيم والترتيب ، ولقد كانت الجزيرة مقسمة منذ عهد الفنيقيين الى ولايتين : سرقوسة وبالرمة فالعرب قسموها الى ثلاث ولايات (٢) تقسيما مناسبا للوضعية الجغرافية .

ولقد كان لكل وال من الولاة فى هذه الاقاليم الثلاثة تحت امرته طائفة من القواد يحكمون النواحي .

« **القضاء** - كان المفتى وهو قاضى القضاء ينتصب فى مدينة بالرمة . وفى كل مدينة من المدن كان يوجد قاض وكاتب .

« **الجباية والديوان** - فى كل مدينة كان يوجد مستخلص الضرائب والعشور وهناك (ببالرمة) مجلس اكبر يدعى الديوان (٣) : من خصائصه ضبط اموال الدولة وفحص الحسابات العامة .

« **الحرية الدينية والمدنية** - كان المسيحيون الصقليون يتمتعون فى كل ما ليس له مساس بالمصالح العام ، بقوانينهم الدينية والمدنية ، ولهم كذلك حق الحكم فيما بينهم .

« **القضاة من الاغريق** الذين كان يطلق عليهم اسم « ستراتيغ » او الحكماء قد احتفظوا مدة الفتح الاسلامى بوظائفهم وبامتيازاتهم وحتى باسمهم التقليدى القديم ، فكانوا يحكمون فى كل خلاف شجر بين انصارى . وكانوا هم الذين يتولون جمع الجزية التى فرضها العرب على رعاياهم النصارى ، وكان مقدارها : ٤٨ ديناراً فى السنة على كل رجل غنى و ٢٤ ديناراً على متوسط الحال ؛ و ١٢ ديناراً على العامل الذى يكسب قوته بعمل يديه . فكانت هذه الضريبة ، اقل مما كان يدفعه انصارى تحت حكومة الروم . اما النساء والاطفال فكانوا لا يدفعون ادنى اتاوة .

(١) العناوين الصغيرة اضفناها على الاصل لزيادة البيان (٢) هى : سرقوسة ونوطس وبالرمة (٣) اخذ الترمان نظام الديوان واسموه «Dohane» ومنها اخذ الاروبيون كلمة الدوان «Douanes»

« ولقد كانت كل القوانين المدنية المتعلقة بالاملاك وبالموارث ونحو ذلك منطبقة غاية الانطباق على عادات البلاد واخلاقها ، الى درجة ان النرمان عندما استولوا على البلاد ، ابقوا العمل جاريا بهاتيك القوانين ولم يمسوا منها شيئا . »

« التسامح الدينى - » لقد احتفظ المسيحيون ايام سلطان المسلمين بقوانينهم وعاداتهم وحرية معتقدتهم ، ولقد قال الراهب الدومينكى كورداين من كنيسة القديسة كاترينة بباليمة ، ان الرهبان كانوا يخرجون مرتدين ثيابهم التقليدية الدينية ، ويذهبون كذلك يحملون الى المرضى طقوس الدين .

« اما الراهب مور كولى ، فيقص علينا قصة الحفلات الدينية فى مدينة مسينا ، حيث كان المسيحيون فى اعيادهم يحملون علمين : علما اخضر اللون وفى وسطه برج اسود ، وهو علم المسلمين ؛ وعلما احمر فى وسطه صليب ذهبي هو علم النصارى . »

« ولقد ابقى المسلمون فى صقلية جميع كنائس النصارى ولم يمدوا لها ايديهم بسوء لكنهم لم يسمحوا لهم باقامة كنائس جديدة ، وذلك خلافا لما كان وافعا فى اسبانيا . »

« الزراعة - » ما كاد العرب يسيطون سلطانهم على جزيرة صقلية حتى اندفعوا فى ميدان الزراعة (١) والصناعة ، فانتشلوهما من وهدة السقوط العظيم الذى وقعتا من قبل فيه .

« لقد ادخلوا الى الجزيرة غراسية القطن ؛ وقصب السكر وشجرة المن Frêne والزيتون (والفستق والبرتقال والليمون (٢) ؛ واحداثوا فى سبيل خدمة الارض قنوات الري التى لا تزال موجودة ، واستعملوا على الاخص مجارى المياه بركب الماسورة Agueduc à Siphon وكان ذلك مجهولا قبلهم (I).

(١) يقول الرحالة ابن حوقل : ان حقول القمح والشعير كانت تبسط على اكثر اقسام الجزيرة وشاحا من الذهب الابريز .

(٢) قال مسيو جيهار فى كتابه « اصول النهضة فى ايطاليا » ما نصه :

الصناعة - اما الصناعة فهي مدينة لهم كذلك برقيها العظيم ؛ فقد استغلوا احسن استغلال ثروات البلاد الطبيعية ، من فضة وحديد ونحاس وكبريت ورخام وحجر صلب الخ ؛ وادخلوا الى الجزيرة صناعة الحرير ، ففي متحف نورمبرغ بالمانيا يوجد معطف من الحرير ، كان يرتديه ملوك صقلية ، محاط بنسيج من الكتابة الكوفية يحمل تاريخ ٥٢٠ هجرية (٢) (١١٢٦ م) وكل شيء يحملنا على الاعتقاد ، بان فن صباغة الثياب قد انتقل من صقلية الى اوروبا .

التجارة - اما التجارة فقد كانت قبلهم ليست بذات قيمة فاصبحت بفضلهم واسعة النطاق ، ولدينا على ذلك دليل ، ما كانت تتقاضاه (الديوانة) من مكوس على الصادرات والواردات في عهدهم ، وهناك لائحة طويلة الذيل ضمن اجازات تجارية نرمانية من اوائل عهد الاحتلال ، تثبت لنا مقدار ما بلغته التجارة من اتساع وتنوع ، عندما استولى النرمان على الجزيرة (١)

الآثار - لم يبق الآن في صقلية من آثار المسلمين الا النزر اليسير ، واهم ذلك قصر العزيز (لازيزا) وقصر القبة ، جوار بالرمة ؛ وهذه البقية الباقية تثبت لنا ان الرواة الذين وصفوا لنا ابهة وفخامة قصور المسلمين هنالك لم يرتكبوا اى غلو او شطط .

فالراهب تيودوز ، والجغرافي الادريسي على الاخص ، قد وصفوا لنا وصفا بديعا معجبا تلك القصور المحلاة بالرخام النادر ؛ والفسيفساء الناصعة الالوان تحيط بكل ذلك الحدائق الغناء . والراهب تيودوز وقد اسر سنة ٨٧٨ في

« ان جزيرة صقلية ، امبيد وقبل العتيقة ، قد اصبحت تحت ايدي المسلمين بما فيها من ثمانى عشرة من المدن ، وثلاثمائة وعشرين من القلاع المحصنة ، وما استثمر فيها من معادن الذهب والفضة والصفير ومناجم الكبريت ، وما انتشر فوق اديمها من حقول الحبوب ومزارع القطن وقصب السكر وحدائق التاربخ والتخيل ، وبما كان يفرها من زهور ذات السوان زاهية ناصعة ، ومن مرائب الحبوب الجياد ، ومن مصانع الاقشة والسندس ؛ وبما كان فيها من قصور ومساجد ؛ اصبحت بكل ذلك تبدو كأنها جنة ن رياض الشرق اليانعة » .

(١) لا تزال بالجزيرة الى يومنا هذا آثار من قنوات السرى والترع التى انشأها المسلمون كما لا تزال القرية الصقلية تحمل الطابع الاسلامى الى الآن .

(٣) انظر رسمه فى القسم المحصور .

حصار سرقوسة وسير به الى بالرمة ؛ يحكى باعجاب عما شاهده من قصور
ومساجد وحاتر حوالى هذه المدينة « ١٠ هـ .

كيف ترك المسلمون الجزيرة ؟

ترك لنا الجغرافى الاكبر محمد بن محمد بن عبد الله الادريسي كتابه الجليل
القيمة العالى المقدار (نزهة المشتاق فى اختراق الافاق) الفه للملك النرمانى
الشهير رجار الثانى ، وبطلب منه ؛ ووضع له اول خريطة (٢) جغرافية علمية
عرفت فى الدنيا ، تعتبر آية فى الدقة بالنسبة لذلك الزمن (انظر فى القسم
المصور قطعة منها) .

فلننقل عن الادريسي بعض ما وصف به مدن صقلية فى عهده اى آخر عهد
الحكم الاسلامى واول عهد الحكم النرمانى؛ بعد أن اقبل المسلمون تحت سلطة ملوك
النصارى على اصلاح ما افسدته الحروب وما خربتته حوادث الاحتلال ؛ فاستمع
اليه يحكى لنا عن بالرمة .

بالرمة « Palerme »

« وساحلها بهج مشرق فرج ولها حسن المباني التى سارت الركبان بنشر
محاسنها فى بنااتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها وهى على قسمين :
قصر وربض فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره فى كل بلد واقليم وهو
فى ذاته على ثلاثة اسطه ؛ فالسماط الاوسط يشتمل على قصور منيفة ، ومنازل
شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار
والسمطان الباقيان فيهما ايضا قصور سامية ومبان فاخرة عالية وبهما من

(١) يقول مسيو نوبل دى فرجى فى كتابه « العالم » ان تجارة صقلية بلغت ايام المسلمين
مبلغا هائلا لم تدركه ابدا من قبل ولا من بعد .

(٢) يدعون ان انكليزيا كان اول من وضع رسما جغرافيا للعالم لكن ذلك الرسم على فرض
صحته يعتبر لعب صبيان اذا قيس بخريطة الادريسي المدققة .

الفنادق والحمامات كثير وبه (القصر القديم الجامع الاعظم الذى كان بيعة فى الزمن الاقدم واعيد فى هذه المرة على حالته فى سالف الزمان ...

فاما الربض فمدينة اخرى تحديق بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة بالحائصة ، التى كان بها سكنى السلطان والخاصة فى ايام المسلمين وباب انجر ودار الصناعة التى هى للانشاء والمياه بجميع جهات مدينة بالرم مخترقة وعميونها جارية متدفقة وفواكهها كثيرة ومبانيها ومنتزهاتها حسنة تعجز الواصفين وتبهر عقول العارفين وهى بالجملة فتنة للناظرين والقصر المذكور من اكثر القصور منعة واعلاها رفعة لا ينال بقتال ولا يطاق على حال .. والربض المحديق بالقصر القديم المتقدم ذكره هو فى ذاته كبير القطر كثير الفنادق والديار والحمامات والحوانيت والاسواق وله سور يحيط به وخندق وفصل وله فى داخله بساتين كثيرة ومنتزهات عجيبة وسقايات ماء عذبة جارية مجلوبة اليها من الجبال المحدقة ببقيعتها (١)

مسينا Messine

« ساحلها بهيج وارضها طيبة المنايت وبها جنات وبساتين ذات ثمار كثيرة ولها انهار غزيرة عليها ارحاء كثيرة وهى من اجل البلاد واكثرها عمارة والسفر منها اليها قصدا وهى دار الانشاء وبها الحط والاقلاع وبها الارساء من جميع بلاد الروم الساحلية وبها تجتمع السفن الكبار والمسافرون والتجار من بلاد الروم والاسلام القاصدون اليها من جميع الاقطار ؛ واسواقها رائقة وتجارها نافقة وقاصدها كثير وفى جبلها معدن الحديد الذى يتجهز به منه الى البلاد المجاورة لها ومرساها العجب العجيب الذى يتحدث به فى كل البلاد وذلك ان اكبر ما يكون من السفن العظام يرسى بها من الشاطئ بحيث يتناول ما فيها من البر بالايدي .

(١) يقول ابن حوقل ان مدينة بالرمة كانت تشمل خمس حارات :

طبرمين Taormina

« حصن منيع وبلد شامخ رفيع من عيون الحصون الازلية واشراف البلاد الدولية وهو على جبل مطل على البحر وانه مرسى حسن والسفر اليه من كل الجهات ويحمل منه كثير من الغلات وبه منازل واسواق وهو مجتمع القوافل والرفاق الواصلة الى مسينا وبه ضياع صالحة ومزارع طيبة زاكية وبه الجبل المشهور المسمى بالطور الموصوف بالآيات المعروف بالعبادات وبه انهار غزيرة عليها ارحاء كثيرة وبها جنات قلائل ولها واد عليه قنطرة عجيبة وبنائها يدل على قدرة بانيها .

قطانية Catania

« وهى البلد الجميل المعروف ببلد الفيل الشامخة القدر العالية الذكر ، وهى على ساحل البحر وبها الاسواق العامرة والديار الزاهرة والمساجد والجوامع والحمامات والحانات ، وبها مرسى حسن ؛ ويسافر اليها من جميع الآفاق ويحمل منها كل البضائع والاسواق وجناتها كثيرة ومياها من انهارها وعيونها غزيرة ، وبها نهر فى امره عجب عجيب وشان مستطرف غريب ؛ وذلك انه فى بعض السنين يفيض فيضاً كثيراً فتتصب عليه الارحاء وتمتلئ منه الاودية وفى بعضها ينضب فلا يوجد فيه ماء يشرب ؛ وعمارتها واسعة وباديتها ومزارعها طيبة نافعة واسوارها منيعة ، واقطارها واسعة ؛ والفيل الذى اشتهرت به هو طلسم من حجر على صورة فيل ، كان منصوباً على بناء شاهق فى سالف الازمان ، ثم

(١) « القصر وفيه المدينة القديمة وحى التجار والمسجد الاعظم .

(٢) « الخالصة وهى مقر الامير والحاشية والدواوين ودار الصناعة .

وليست بها حركة تجارة وصناعة وفيها الكثير من المساجد والمدارس

(٣) « حى الصقالبة وفيه المرسى والحركة التجارية وكان يسكنه الكثير من الصقالبة (مر

ناهية اسلوفاكيا)

(٤) « حى ابن صقلب والحى الجديد وفيهما عامة الناس .

ثم انه لا تزال الى يومنا هذا بالمدينة حارة تدعى « اتاريني » كانت سوق العطارين فيما مضى

وكان سكان المدينة ايام المسلمين زهاء الثلاثماية وخمسين الفا وبها ٥٠٠ مسجد .

نقل الآن فنصب داخل المدينة بكنيسة الرهبان .

لنتيني Lentini

« قلعة حصينة متحضرة الاسواق كالمدينة ، وهى من البحر على ستة اميال ، وموضعها على ضفة النهر المنسوب اليها وتبعد فيه المراكب باوساقها حتى تحط بين يديها من شرقيها ، وبغربيها ارض واسعة جدا فسيحة الارعاء ممتدة الفضاء ولها بوادها انواع من السمك الجليل المثل ما يحمل منه الى جميع جهاتها .

سرقوسة Syracuse

« من مشاعير المدن واعيان ائبلاد ، تشهد لها المطى من كل حاضر وباد ويقصد اليها قصاد التجار من جميع الاقطار ، وهى على ساحل البحر ، وهو محدد بها دائر بجميع جهاتها والدخول اليها والخروج منها على باب واحد وهو بشمالها ، وشهرتها تغنى عن التكثير من وصفها اذ هى منبر مشهور ومقل مذكور ، وبها مرسيان ليس مثلها فى جميع البلدان احدهما اكبر من الآخر وهو بجنوبها والآخر اشهر وهو بشمالها وبها فوارة النبوى تنبع من جرف على حاشية البحر وهى عجيبة الامر .

« وبها ما باكبر المدن من الاسواق ذوات السماطات والحانات والديار والحمامات والمباني الرائقة والاقنية الواسعة ؛ (لاحظ انه لم يذكر بها مساجد) ولها اقليم كبير طائل وضياع ومنازل وهو خصيب المواضع زكى المزارع وتوسق منه السفن بالطعام وغيره من سائر الاوساق الى سائر البلاد والآفاق .

نوتس Noto

« من ارفع القلاع حصنا واشرف المدن حسنا قطرها واسع المساحة شريف المنافع والرجاحة وبه اسواق جميلة اترتيب وديار متقنة التركيب

انهارها جارية بمياه غزيرة وعليها ارجاء كثيرة ولها عمل واسع المجال واقلية شريف الحال مزارعها ازكى المزارع ومواضعها اخصب المواضع وهى ازيلية العمارة قديمة الآثار .

رغوص Ragusa

« وهى قلعة منيعة وبلدة شريفة قديمة العمران ازيلية المكان محدقة بها الاودية والانهار كثيرة الارحاء والمطاحن حسنة الابنية واسعة الاقنية ولها بادية خصيبة ومزارع زكية رحبية وبينها وبين البحر سبعة اميال ونهرها المنسوب اليها يجرى منها بجهتها الشرقية وبهذا الوادى عند مصبه فى البحر مرسى حسن والمراكب تدخله وبه توسق وتفرغ ولها اسواق يتصرف اليها من جميع النواحي والافاق .

بشيرة Butera

احسن البلاد بادية وحاضرة ، واشبه شىء بالمدن الكبيرة العامرة حسنة البنيان مشيدة الاركان ، ديارها رائقة عجيبة واسواقها مرتبة رحبية وبها مساجد للجماعات ويدور بها واد من اعظم الاودية محدقة به الجنات من جميع الجهات ؛ ولها فواكه طيبة وخيرات كثيرة معجبة .

جرجنت Girgenti

مدينة متحضرة من اشرف الحواضر عامرة بالوارد والصادر ؛ وقلعتها حصينة سامية ومدينتها زاهية قديمة العمران مشهورة فى جميع البلدان ؛ بل هى من اعظم الحصور منعة واجل البلاد رفعة يسعى اليها من سائر الافاق وتجتمع بها السفن والرفاق ديارها سامية فى الديار ومحلاتها تفتن الانظار وبها اسواق جامعة لاصناف الصنائع وضروب المتاجر والمبايع واصناف كثيرة من الثمرات ؛ ازيلية اولية تدل آثارها على سلطنة عليا ، ويحمل على كل ما وصل اليها من عظام السفن ما يتجاوز اوساقها فى الايام القلائل لاتساع ما بها من

مواد الطوائل وبها جنات وغللات مشهورات ؛ وهى على ثلاثة اميال من البحر .

مازرة Mazara

« مدينة فاضلة شامخة كاملة ، لا شبه لها ولا مثال ، فى شرف المحل والخال واليها الانتهاء فى جمال الهيئة والبناء ، وما اجتمع فيها من المحاسن التى لم تجتمع فى غيرها من المواطن وهى ذات اسوار حصينة شائقة وديار حسنة فائقة بها ازقة واسعة وشوارع واسواق عامرة بالتجارات والصنائع وحمامات فاضلة وخانات واسعات وبساتين وجنات طيبات المزروعات ، يسهر اليها من جميع الآفاق ويتجهز منها بوافر الاوساق واقليمها كثير الاتساع يشتمل على منازل جليلة وضياع .

مرسى على (مرحالا) Marsala

كانت مدينة ازلية من اشرف بلاد صقلية ، وكانت خربت ودثرت فعمرها النومس رجار وسور عليها سورا فصارت ذات عمارة واسواق وخانات ولها اقليم واسع وعمل شاسع وسفر اهل بلاد افريقيا اليها كثير ٠٠٠ ولها فنادق وحمامات وبساتين ومزارع طيبات .

اطرابنش Trapani

مدينة ازلية قديمة المحل على ساحل البحر والبحر يحدد بها من جميع جهاتها وانما يسلك اليها على قنطرة على باب شرقيها ومرساها بالجانب الجنوبى منها وهو مرسى ساكن غير متحرك تشتوبه اكثر السفن آمنة من جميع الانواء هاد موجه عند هيجان البحر ويصاد به من السمك ما يفوق المقدار ويصاد به السمك الكبير ايضا المعروف بالتتن بشباك كبار ويصاد ببحرها المرجان السننى وعلى بابها سبخ الملح البحرى ولها اقليم واسع الاجناب ممتد الاطناب ارضها من اكرم الارضين فى الزراعات كثيرة الفوائد والغللات ، وطرابنش فى ذاتها

ذات اسواق رحيية ومعاش خصبية وبقر بها جزيرة الراهب وجزيرة اليابسة
وجزيرة مليطمة ولكل واحدة من هذه الجزائر مرسى وآبار ومحتطب .

برطنيق Partinico

« بلدة جميلة طيبة وطية حسنة المنظر بهية وبها ضياع زكية يعمل بها
الظن الكثير والحناء وغير ذلك من انواع القطنى وبها مياه غزيرة وعليها
ارحاء كثيرة .

قرينش Carini

« بلدة طيبة جميلة حصينة وبها اصناف من الفواكه كثيرة وبها سوق
كبيرة واكبر ما بالحوض من الاسواق والحمامات والديار الواسعة ومنها يحمل
كثير من اللوز والتين الناشف والخرنوب ويوسق به المراكب والقوارب ويتجهز
به الى الكثير من البلاد .

* * *

بعد هذه الجولة التى جالها الشريف الاديسى حول المدن البحرية
الصقلية ؛ مبتدئيا بالرمة ومسينا متجها من الشمال الشرقى صوب الجنوب
ثم منه الى الشمال الغربى ؛ وقد اقتبسنا منه وصف اهم المدن ينتقل الى داخل
البلاد واصفا المدن البرية فلنقتبس منه شيئا من ذلك ؛ قال عن :

الحزان

« وهو حصن فى اعلى جبل ، من اجمل القلاع وافضل البقاع ، وحاله افضل
حال ولها عمارة وارجال ، ومنه يخرج النهر المسمى وادى الامير واصله من
الحزان فينزل مع الحنادق وتجتمع به مياه قجانة ، (وهذا الحزان من جملة
منشآت المسلمين لتنظيم الرى فى البلاد وتوزيع المياه على المزارع والبساتين)

الصنم Castelvetrano

« رجل كبير ؛ يحتوى على بشر كثير ، وعليه حصن مطل ومعقل سامى المحل ، اشجاره مصطفة وبساتينه ملتفة ومياهه مندفقة وخيراته محدقة ، ومن الصنم الى مازر سبعة اميال . »

قلعة النساء Calata Nisetta

« قلعة حسنة البناء ، مطلة على عمارات متصلة ومنابع جمة وغلات واشجار وفواكه . »

قصريانى Gastro Giovanni

« وهى مدينة فى اعلى جبل ، ذات حصن حصين ومعقل متين ، قطرها واسع وفناؤها شاسع ولها اسواق جميلة الترتيب وديار متقنة التركيب وصنائع وبضائع ، وصناع ومتاجر وامتاع ، ولها عمل واسع المجال ، واقاليم واسعة الحال ، مزارعها زكية وغلاتها مرضية وهواؤها بارد ومرافقها تشفى الصادر والوارد ، وبالجملة انها امنع بلاد الله مكانا واوثقها بنيانا ، ولها مع حصانتها فى جبلها مزارع ومياه جارية لا تحتاج الى البسط ، وبها رقة رائقة ورقعة شاهقة ، لا تغلب فى الحال ولا يمكن فيها القتال . »

(من اجل ذلك كانت آخر معاقل الروم التى سقطت بايدى المسلمين ، ثم كانت من بعد آخر معاقل المسلمين التى سقطت بين ايدى النرمان) . »

حياة اللغة العربية ايام النرمان

كانت العربية كما رايت لسان البلاد الرسمى تستعمل فى كثير من الاحيان قبل اللغة انترمانية . وكان شعار الملك النرمانى عربيا والتخاطب فى البلاط باللغة العربية ، والتقود النرمانية عربية الضرب عربية الصيغة ، وانما نقش على احد وجهيها رسم الملك واسمه باللغة النرمانية ، واستمر العلم زاهرا

والتعليم العربى منتشرًا يدل على ذلك اجدى دلالة شواهد القبور من العهد النرمانى الاسلامى التى لا تزال قائمة الى يومنا هذا .

من ذلك شاهد فى مدينة بالرمة نقش عليه « الله العزة والبقاء وعلى خلقه كتب الفناء . ولكم فى رسول الله اسوة حسنة ، هذا قبر ميمونة بنت حسان بن على الهذلى عرف بابن السوسى توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان من سنة تسع وستين وخمسائة (١) وهى تشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له .

انظر بعينك هل فى الارض من باقى او دافع الموت او للموت من راقى الموت اخرجنى قسرا فىا اسقى لم ينجنى منه ابوابى واغلاقى وصرت رهنا بما قدمت من عمل محصى على وما خلفته باقى يا من راي القبر انى قد بليت به والترب غير اجفانى وآماقى فى مضجعى ومقامى فى البلا عبر وفى نشورى اذا ما جئت خللقى وامثال هذه الشواهد كثير فى صقلية ايام العهد النرمانى ، لا تكاد تحصى؛ وقد جمع اكثرها سيد كتاب صقلية وكبير المستشرقين ، ميكل عمارى ، فى كتاب جليل انقيمة اسماء . **Le Epigrafi Arabiche di Sicilia** انما الذى يعطيك صورة صادقة لحياة العربية اذاك ، وانها كانت اللغة الرسمية ليس فى الدوائر الحكومية فحسب بل حتى فى الدوائر الدينية المسيحية ما نقش على قبر مسيحي :

« توفيت أنه ام القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية الملكية العالية العلية المعظمة السنية القريسية البهية المعتزة بالله الملويزة بقدرته المنصورة بقوته مالكة ينطالية وانكبرده وقلورية وصقلية وافريقية ، معزة امام رومية النصرانية سرمد الله مملكتها يوم الجمعة العشر العشرين من او ست سنة ثلاث واربعين وخمسائة (١) ودفنت بالجامع الاعظم ثم نقلها ولدها

بالمستنجيد الى هذه الكنيسة حنت مخايلة يوم الجمعة اول ساعة العشا
العشرين مائة سنة اربع واربعين وخمسمائة وبنى على على قبرها هذه الكنيسة
وسمى الكنيسة حنت انه على اسم ام مريم ودعا لها بالرحمة آمين آمين آمين »
وانك لا ريب قد لا حظت ان التاريخ المستعمل كان التاريخ الهجرى ولم يذكر
التاريخ المسيحى فى بناء كنيسة مقدسة للمسيحية وليس بعد هذا الاثر اثر
ولا افصح من هذا البيان بيان •



القسم التاسع

العلوم والادب

فى تلك الفترة الطويلة التى قضاها المسلمون فى ربوع صقلية ، وقد جعلوها روضة غناء ، وحديقة يانعة ، وجنة تجرى من تحتها الانهار ، وسواء كانوا حاكمين يومئذ او محكومين ؛ ورغم جميع ما اجتازته الجزيرة من حروب خارجية واضطرابات وفتن داخلية ؛ ازدهرت العلوم والفنون والآداب ، ونبغ فى الجزيرة رجال خلدوا على صفحات التاريخ اسمها ؛ ورفعوا ذكرها بين البلاد عليا ؛ فكانت العلوم تدرس هناك فى كل مدينة وكل قرية ، شأنها فى ذلك شأن بقية بلاد الاسلام ، حيث كانت المساجد والجوامع تقوم مقام المدارس الثانوية والعليا ؛ وحيث كانت الكتاتيب القرآنية المنتشرة انتشارا غريبا ، فى كل حارة من حارات المدن والقرى ، تبث التعليم الابتدائى العربى الدينى وتؤهل الاطفال لتسبم ذرى المعارف العليا فى صقلية نفسها او ببلاد افريقيا او الاندلس او الشرق .

ويقص علينا ياقوت الحموى ، فى كتابه معجم البلدان ؛ انه كان بمدينة بالرمة فى عهده ثلاثمائة مدرس ؛ وان المدرسين ومعلمى القرآن كانوا لا يكلفون بحمل سلاح ، وليس عليهم اى شئ من التكاليف الحكومية .

نشأت هناك ، خلال تلك المدنية الشامخة انذرى ، طبقات غفيرة من اطباء كان لهم الفضل الاكبر ، لاختلاطهم بايطاليا وبقية اوروبا ، فى نشر آخر ما وصلت اليه قرائح اطباء العرب والاغريق فى كامل القارة الاوروبية وسياتيك نبا قسطنطين الصقلى التونسى فيما بعد ، ونشأت هناك طبقات عديدة من رجال العلم والفن والآداب ، كما نشأ هناك جمهور صالح من كبار الشعراء من

افذاذ العباقرة الموهومين ترعرعوا بين احضان الروعة والجمال ، والعزة والجلال ، فسجلوا لصقلية باشعارهم النفيسة صورة طيبة محببة الى النفس ، وانشأوا بذلك فى صقلية ادبا قوميا صقليا عربيا متينا ، جزلا رقيقا ، كأنه الدرة اللامعة فى عقد الادب العربى الرائع البهاء . وانما اقول ان شعراء صقلية قد انشأوا شعرا قوميا ، لأن تلك الطائفة الصالحة من كبار الشعراء ، كما سيمر بك فيما بعد ، قد صوروا لنا فابدعوا تصوير صقلية بلهجة شعرهم وبتشابيههم المنتقاة من صلب الحياة انصقلية ، وعلى الاخص بما وصفوه لنا من حياة صقلية ، ومن جهادها ومن عبثها ، ومن رياضها وجناتها ومن زهورها واشجارها ، ما يجعلك تشعر بعد تلاوة ذلك الشعر الحى المتين ، انك تغفلت خلال ذلك الوسط ، وعاشرت اهله ، واطلعت على تخفى نفوسهم من عظمة وقوة ، وما تخلل ذلك من تهتك ومجون .

وانها لدراسة ثرية ، بعيدة الغور ، فسيحة الآفاق ، دراسة آداب صقلية وعلومها وفنونها ، وحياة الادباء والعلماء والفنانين فيها ؛ فعسى الله ان يقيض من ابناء هذا الشمال الافريقى من يتخصص لهذه الدراسة ، فهى جديرة بان يهبها باحث كل حياته لا جزءا من وقته ، وان من قضى حياته فى ذلك العمل يكون قد خلد اسمه فى سجل الاعلام .

ولنلق الآن نظرة وجيزة على اولئك النابغين الافذاذ الذين استحققت بهم صقلية كما يقول العلامة البحاثة كارل سيدهورف ، لقب « باب الشرق للتوغل فى الغرب » .

قسطنطين الصقلي ومدرسة سالرنة

وانه لحرى ان نفتتح به هذه السلسلة الذهبية ، وان كان آخر علماء صقلية وايطاليا عهداً ؛ انما كان يمثل لنا طبقة من الرجال ، من اجل العلم خلقوا ، وكل ميسر لما خلق له ، ومن اجل العلم عاشوا ، وفى سبيل العلم جاهدوا

الجهاد العنيف وتم يتأخروا عن تقديم اعز التضحيات واثقله على النفس في سبيل نشر المعرفة ، وبث الانوار في الاصقاع التي كانت يومئذ في ظلمات الجهالة ، اعنى قارة اوروبا .

فقسطنطين الصقلى او الافريقى ، كان الطبيب المعلم الذى نقل الى الغرب كتب الطب والحكمة ، فترجمها لللسان اللاتينى ، وجمع حولها رواد المعرفة والراغبين فى العلم ، فاسس لهم « مدرسة سالرنة » (١) التى كانت اول مدرسة من نوعها فى اوروبا ، والتى كانت مبعث انوار الطب الحديث فى العالم الغربى باسره ؛ والتى بقيت عدة قرون حاملة راية الطب يتبع طريقته التى سننها قسطنطين كل علماء اوروبا وجامعاتها .

حوالى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٥ م) ولد بمدينة تونس ، ذلك الرجل الذى سيسجل التاريخ اسمه باحرف من نور ، وبها تعلم وتهذب وثقف ، وكان يتعاطى التجارة فى مقتبل عمره ويقبل بكليته على العلوم ، ويغامر فى الاسفار ، ويعتكف على دراسة كتب الطب حتى استوعب منها الكثير ثم حل يومئذ فى تجارة له بمدينة سالرنة ، واتصلت علاقته باميرها جيزولف وكان مترجمنا الذى سيدعى فيما بعد « قسطنطين » يجهل اللاتينية وكان قصارى امره يومئذ انه تاجر من تجار المسلمين ومثقف متنور بين جماعة غفيرة من المثقفين الملتنورين ، فكان الطبيب العربى « عباس دى كوربا » يتولى مهمة الترجمة بين المسافرين والامير ، وسال قسطنطين الذى لم يكن يدعى يومئذ بهذا الاسم اثناء عملية تحليل البول ، هل لاطباء ايطاليا كتب طبية باللغة اللاتينية فاجيب سلبا ، واعلم ان الطب يتلقى هنالك شفويا ويعتمد على بعض التجارب ليس الا .

رجع الرجل للبلاد التونسية ، وانكب على استكمال معلوماته الطبية بين افريقيا وصقلية وبلاد الشرق ، وجمع من احسن كتب الطب الشئ الكثير فبعد ان استوعب جميع ذلك ، اخذ معه تلك المكتبة الثمينة الثرية ، وسافر الى

(١) اصبحت جامعة رسمية بامر من الملك روجى الثانى سنة ١١٥٠ : واستمرت عاملة مدى ٦٦٧ عاما . ثم الغيت سنة ١٨١٧ .

صقلية ، ومنها اجتاز الى مدينة ساليرنة يحمل ذخيرة ستكون غذاء أوروبا
طيلة قرون .

هنالك انكب على دراسة اللغة اللاتينية حتى حذقها على يد رجال الدين
والكهنة ، واصبح يدعى يومئذ « قسطنطين الافريقى » تارة « وقسطنطين
الصقلى » تارة اخرى ، ثم اعتكف فى دير جبل كاسان ، ولهذا الدير شهرة عالمية
باقية منذ تلك الساعة الى يومنا هذا (١) ؛ وهنالك فى ذلك الدير اخذ
قسطنطين فى بادى امره ، يترجم اللغة اللاتينية اهم كتب الطب العربى وفى
طليعتها : « زاد المسافر » لابن الجزار ، ترجمة تحت اسم *Vieticum*
وانتشر صيت ذلك الكتاب ، وعمت شهرته كافة البلاد الاروبية ، واصبحت
طريقة ابن الجزار فى الطب طريقة اروبا كلها . ومكثت كذلك قرونا عديدة ثم
نشر شيئا من كتاب على بن العباس تحت اسم : *Pratica Pantegni*
وترجم كذلك كتباً نلرازى ؛ وكتباً اخرى لاسحاق ابن سليمان الاسرائيلى ؛ ولم
يكتف بترجمة تلك الكتب ، بل اخذ يتبحر فى علم الطب ، والف نحواً من ٢٢
كتاباً فى مختلف شعب الطب وطريقة الوقاية من الامراض والعلاج ، ولقد
طبعت كتبه كلها ما بين سنتى ١٥٣٦ و ١٥٣٩ ومن اهمها :

قانون الطث : ١٢ كتاباً .

فياتيكوم فى الطب العام ، ٧ كتب :

البول وتحليله - الاعضاء الداخلية فى جسم الانسان - الجماع - جسم
المرأة واعضاؤها - النبض - كتاب الجراحة - كتاب المعدة - كتاب العيون -
النبات الطبى - المالىخوليا - الحمية للمرضى - طبيعة الانسان ووظائف
الاعضاء - الحيوان . الخ .

(١) حطمت الحرب العالمية الاخيرة الوحشية وقضت فيه على ثروة علمية ادبية تاريخية عزيزة
المثال . واصبح كوما من حجارة ورماد .

يؤخذ على قسطنطين الصقلي ، انه كان كلما ترجم كتابا نسيبه الى نفسه ؛ ولم يذكر اسم المؤلف ، ويدافع عنه رجال من كبار العلماء ، امثال دارمبرغ (Darembert) وسيدهوف (Sudhoff) فيقولون ان العلاقات بين النصراني والمسلمين كانت يومئذ رديئة عدائية ؛ وقد تركت محاولات المسلمين لاستعمار الجنوب الطلياني اثرا عظيما في نفوس القوم ؛ فعندما ادرك قسطنطين ذلك علم انه اذا نسب كتب المسلمين لاصحابها ، عمل التعصب عمله وحال بينها وبين الانتشار ، فنسبها الى نفسه ، كانها عمل راهب من رهبان دير كسان ، يعلم الطب في مدينة ساليرنة ، فانتشرت تلك الكتب بتلك الطريقة ؛ وما كاد علماء عصر النهضة يدركون ذلك حتى كانت تلك الكتب قد تمكنت وعم ذيوها وانتشارها ، واصبحت في العالم الاروبي نبراسا منيرا ؛ ومات قسطنطين في دير جبل كاسان سنة ٤٨٠ (١٠٨٧) .

وقد طبعت مؤلفاته بمدينة بال بسويسرا في جزأين ضخمين ، صدر الاول منهما سنة ١٥٣٦ والثاني سنة ١٥٣٩ (٢) .

الامام محمد بن علي المازري - قال عنه صاحب سبط اللئال :

ابو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري ؛ اصله من مازرة (صقلية) اخذ عن اللخمي وعبد الحميد السوسي المعروف بابن الصائغ وغيرهما ؛ وهو احد الاعلام المشار اليهم في حفظ الحديث والكلام وآخر المشتغلين بتحقيق العلم ورتبة الاجتهاد ودقة النظر حتى لقب بالامام ؛ وممن اخذ عنه بالاجازة القاضي عياض كان يفزع اليه في الفتوى وفي انطب كما يفزع اليه في الفقه ، وسبب اشتغاله بالطب انه مرض ، وكان يطبه يهودي ؛ فقال اليهودي : يا سيدي مثلي يطب مثلكم ، وای قرية اجدها اتقرب فيها في ديني مثل ان افقدك للمسلمين ، فمن حينئذ اشتغل بالطب ، وقد هاجر الى افريقيا

(١) علامة فرنسي (١٨١٧ - ١٨٧٢) نشر قاموس الآثار الرومانية واليونانية

MORBORUM COGNITIONE (٢) اسم الكتاب الاول

OPERA RELIQUAT واسم الكتاب الثاني

وتولى قضاء القيروان وقضاء المهدية ،

وله تأليف كثيرة جليلة ، منها شرحه على صحيح مسلم المسمى كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم ، وعليه بنى القاضى عياض كتاب الاكمال تكملة له ؛ توفي رحمه الله فى ١٨ ربيع الاول سنة ٥٣٦ هـ ؛ وتربته خارج بلد المنستير من جهة البحر ؛ يزورها الناس افواجا الى يومنا هذا .

محمد بن يونس التميمي - من مدينة مازرة كذلك ، مـ علم من اعلام الفقه اخذ عن النخعي وابن الصائغ وغيرهما وتبحر فى العلم وشدت اليه الرحال للافتاء حتى لقب « بالامام الاكبر » وقد الف تأليف حافلة عن شرح موطأ الامام مالك بن انس رضى الله عنه والتعليق عليه ، ونال بواسطة ذلك شهرة ذائعة وصيتا عظيما ؛ وتوفاه الله بمدينة مازرة فى اوج عزه وسؤدده العلمى سنة ٤٤٧ (١٠٥٥ م) ؛ وترك جماعة من العلماء الجلة ممن صحبوه واخذوا عنه ونفعوا الناس بعلمه وآثاره .

محمد بن محمد بن ظفر - من افذاذ صقلية الاعلام ايام حكم النرماو؛ قضى حياته كلها فى التعلم والتأليف والتنقل بين البلاد ، من صقلية الى مصر الى بلاد الشام ، وصحب الملك رجار الصقلى ، وقدم له بعض الكتب المؤلفة باسمه ؛ مثل : « سلوان المطاعو فى عدوان الاتباع » وهو كتاب ثمين ؛ قام بترجمته للغة الطليانية المستشرق الصقلى الاكبر والعلامة الجليل ميكل عمارى .

وتكاد كتب محمد بن ظفر الصقلى لا يحصيها عد ؛ منها : ينبوع الحياة فى تفسير القرآن الكريم - فوائد الوحي الموجز الى فرائد الوحي المعجز - المسند فى الفقه على مذهب مالك - اساليب الغاية فى احكام الآيه - معاتبة الجريء فى معاقبة البريء ، فى اعتقاد ابى حنيفة والاشعرى - كتاب الجنة فى اعتقاد اهل السنة - خير البشر - منح اللغة فيما اتفق لفظه واختلف معناه على حروف المعجم - ايهام الغواص فى ايهام الخواص ، فى بيان غلط ابى محمد الحريرى - الحوذ الواقية ، والعود الراقية ؛ كتابان فى شرح الحريرى - كتاب الاشتراك اللغوى والاستنباط المعنوى - كتاب الاشارة الى علم العبارة - القواعد والبيان

فى علم النحو - أنباء نجباء الابناء - مالك الاذكار فى مسالك الافكار - الخ . الخ .
ولم يزل فى حل وترحال بين صقلية وبلاد المشرق ، الى ان غادر صقلية
نهائيا سنة ٥٥٤ (١١٥٩) ، بعد ان ألف كتابه البديع « سلوان المطاع ، فى
عدوان الاتباع » وقال فى مقدمته : « ان ملكا حسن السيرة مظنون حسن
السريرة ، أمرنى ان أصنف له كتابا يكون لهمومه شافيا ، ولكليته ودمنة
قافيا ، فاجبته لذلك مكافيا » واستقر بعدئذ بمدينة حماه من مدن الشام
وبها أدركته الوفاة سنة ٥٥٦ .
وكان شاعرا رقيقا ، قال :

حملتك فى قلبى فهل أنت عالم بانك محمول وانت مقيم
الا ان شخصا فى فؤادى محله واشتاقه شخص على كريم
ومن قل فيما يتقيه اصطباره فقد قل فيما يرتجيه نصيبه
وقال: على قدر اهل الفضل تؤتى خطوبة ويعرف عند الصبر فيه نصيبه

عبد الرحمان ابن محمد بن عمر - من مدينة بشيرة ، بصقلية ، عاش ايام
رجار ؛ وقد كان حاملا كتاب الله ، واشتهر شهرة ذائعة فى الشعر والادب ،
ولقد مدح الملك رجار الصقلى بقصيد من عيون الشعر ، له قيمة تاريخية عالية ،
كاغلب الشعر الصقلى ، يصف به حياة الجزيرة ويتغنى ببهائنها وجمالها ، منه :

ادر العقيق العسجدية وصل اصطحابك بالعشية
واشرب على وقع المئان سى والاغانى المعبدية
ما عيشة تصفو سوى بذرى صقلية هنية
فى دولة اربت على دول الملوك القيصرية

وقصور منصورية حط السرور بها المطية
اعجب بمنزلها الذى قد أكمل الرحمن ربه
والملاعب الزاهى على كل المباني الهندسية

ورياضة الانف انتى عادت بها الدنيا زهية
 وأسود « شادر وانه » تهمل مياها كوثرية
 وكسا الربيع ربوعها من حسنة حللا بهية
 وغدا يكلل وجهها بمصبغات جوهرية
 عطران انفاس الصبا عند الصبيحة والعشية

عبد الرحمان بن ابى العباس - شاعر اديب فنان ، لم يترك لنا صورة
 زيتية تمثل حياة صقلية ، انما ابقى لنا من غرر الشعر قصيدا بديعا يصف به
 الجزيرة ، وحياة بالرمة ، وقصر الفوارة التابع لقصر المعتزية ، الذى كان
 منتزه ملوك صقلية المسلمين ، فاستمع اليه يقول :

فوارة البحرين جمعت المنى عيش يطيب ومنظر يستعظم
 قسمت مياهاك فى جداول تسعة يا حبذا جريانها المتقسم
 فى ملتقى بحريك معترك الهوى ، وعلى خليجك الفرام مخيم
 لله بحر التخلتين وما حوى الـ بحر المشيد به المقام الاعظم
 وكان ما المفرغين وصفوه در مذاب ، وانسيطة عدرم
 وكان اغصان الرياض تطاولت ترنو الى سمك المياه وتبسم
 والحوت يسبح فى صفاء مياهاها والطير بين رياضها يترنم
 وكان نارنج الجزيرة اذ زها نار على قضب الزبرجد تضرم
 وكانا الليمون صفرة عاشق قد بات من انم التوى يتالم
 والنخلتين كعاشقين استخلا حذر العدا حصنا منيعا منهم
 او ريبة علقتهما فتطاولا يستمخنان ظنون من يتوهم
 يا نخلتى بحرى بلرم سقيتما صوب الحيا (١) بتواصل لا يصرم
 هنيئما امر الزمان ونلتما كل الامانى والحوادث نوم
 بالله طيبا واسترا اهل الهوى فبأمن ظلكما الهوى يتحرم

عيسى بن عبد المنعم - هو الفقيه ابو موسى عيسى بن عبد المنعم الصقل ،
 ذكر عنه صاحب خريدة القصر ، انه كان كبير الشأن ، ذا الحجة والبرهان ،

ففيه الامة له المعاني والافكار البعيدة مراميها ومراقبها ، والالفاظ التي هي كالرياض . فمن بدیع قوله فی الغزل ، فی فتاة نرمانية بلا ريب ، واعجب بفقیه مسلم یعشق فتاة نرمانية یتغزل فیها !

یا بنی الاصفر (٢) انتم بدمی منکم القتاتل لی والمستبیح
املیح هجر من یهواکم وحلال ذاک فی دین المسیح ؟
یا علیل الطرف من غیر ضنی (٣) واذا لاحظ قلبا فصحیح
کل شیء بعد ما ابصرتکم من صوف الحسن فی عینی قبیح
عمر بن حسن النحوی - کان شیخا من شیوخ اللغة ، واماما من ائمة
النحو وبلغا من اکبر البلغاء فی عصره ، وكان ممن جاهد ضد الترمذی ، وابلی
البلاء الحسن الی ان اسر ونكب ، وجاء عهد الملك رجار فافرج عنه وقربه ،
فقال یمدحه من قصید :

طلب السلو لو غیر سعاده حلت سویدا قلبه وفؤاده
ورجا زیارة طیفها فی صدره وغرامه یابی لذیذ رقباه
والله لولا الملك (رجار) الذی اردی لحتته عظیم وداده
ما عاف کاس الوجد یوم فراقها وراى محیا المجد فی میلاده
یهتز للجدوی اهتزاز مهند یهتز فی کفیه یوم جلاده
ویضی فی الدیجور صبح جبینہ فیخال ضوء الشمس من حساده
ومطائع الجوزاء ارض خیامه والنجم والقمران من اجناده
واذا الامور تشابهت فلقصیه خط یمیض سودها بمداده

ابن القطاع - هو ابو القاسم علی بن جعفر بن علی السعدی ، المعروف
بابن القطاع ویرتفع نسبه الی ابراهیم بن الاغلب ، ولد فی صقلية سنة ٤٣٣
(١٠٤١ م) وبها عاش وتعلم وتادب ، وقرأ علی ابن البر الصقلی واضرابه من

(١) الحیا ، المطر (٢) بنو الاصفر النصاری ، یقول البهاء زهیر :
واقسم ما ذاقتم بنو الاصفر الکری وما حلمت الا باعلامه الصفر
(٣) الضنا . المرض

رجال ذلك العصر وقال انشعر صبيبا ، وجمع من اخبار اهل صقلية من الشعراء والادباء الشيء الكثير فالف كتابه «الدرة الحظيرة» ، والمختار من شعراء الجزيرة جمع فيه طائفة صالحة من شعراء صقلية ، وذكر البعض من جيد شعرهم ، وهاجر آخر ايامه الى بلد الكنانة ، فعاش الى آخر زمان الملك الافضل ، وقد الف كتاب « تاريخ صقلية » ذكره ونقل عنه ياقوت الحموي في معجم البلدان ؛ ولا نزال نجد في البحث عنه ؛ وتوفي في صفر سنة ٥١٥ .

ابو عبد الله محمد بن الحسن - المعروف بابن الطرى ؛ كان ايام الدولة الاسلامية ، صاحب ديوان الرسائل والانشاء ، وكان من ذوى الفضل والمكانة فصيحاً بليغاً مترسلاً شاعراً ؛ وكان من اصحاب الباع الطويل الى جانب ذلك فى علم الطب . قال يهجو منافقا :

يقرب قوله لك كل شيء وتطلبه فتبصره بعيدا
فما يرجو الصديق الوعد منه ولا خشى العدو له وعيدا

الاصلاح الاسلامي - وثقد ترك لنا من ابيات ، صورة لما كانت عليه حالة المسلمين فى صقلية يومئذ ، من الركض فى ميدان البدع والمنكرات التى الصقت بالاسلام ظلما وعدوانا ، بدعوى انها من القربات الصوفية ؛ شأنها فى ذلك شأن بقية العالم الاسلامي ، وما كان كرام الامة ومصلحو الاسلام يشنونه من غارة على تلك الاباطيل ، فيقول :

ليس التصوف لبس الصوف ترقة ولا بكاء اذا غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا تغاش كان قد صرت مجنونا
بل التصوف ان تصفو بلا كدر وتتبع الحق ، والقرآن ، والدينا
وان ترى خائفا لله ، ذا ندم على ذنوبك طول الدهر محزونا

ابو الفضل مشرف بن راشد - من شعراء امجاده ، تغنى بذكر الجزيرة فاجاد ، مما يقوله مادحا احد كبار قوادها مفتتحاً القصيد بالغزل حسب الطريقة المألوفة التقليدية :

سرت ورداء الليل اسحم حالك (١) ولا سائر الا النجوم الشوابك
 عشية اعشى (٢) الدمع انسان مقلتي ونمت (٣) باسرار الدموع السوابك
 وطاف انكرى (٤) بالطرف وهو محجب كما طاف بالبيت المحجب ناسك
 سرت موهنا ثم استنأت فودعت تجاذبها حقف (٥) من الرمل عاتك
 به غصن بان اثمر البدر طالعا عليه قناع من دجا الليل حالك
 غريبة حسن يحسن الهجر عندها واعجب بها محبوبة وهى فاتك
 واحور (٦) مكحول المدافع عافنى عن الصبر فاستولت على مهالك
 رعى الله اكناف الجزيرة ان رعى سوائها الغراء ريس (١) ناتك
 يشيد اعداياه الحصون منيعة وهل منع الافشين ما شاد بابك
 وانى لآتى الحق فيما اقوله وما انا فيما يعلم الله باتك (٢)
 شهدت لقد حاز العلا بيمينه غداة تصداه الردى وهو ضاحك
 ليوث وغى اذ كنت خلال ضلوعها لهيبا انارته لهن الحسائك (٣)

عمار بن المنصور الكلبى - الامير ابو محمد عمار بن المنصور الكلبى من
 امراء بنى الحسين الكلبين ملوك صقلية نشأ فى بيت الملك وانعزة والجاه ،
 وانقطع للعلم والادب ، فكان من افاضل علماء زمانه المبرزين فى الفقه والحديث
 له من اروغ الشعر ، يصف بيته ويمجد قومه ، ويجمع بين شرف العلم
 وهمة الابطال :

تقول لقد رايت رجال نجد وما ابصرت مثلك من يمان
 الفت وقائع الغمرات حتى كانك من رءاها فى امان
 الى كم ذا الهجوم على المنايا وكم هذا التعرض للطعان
 فقلت لها سمعت بكل شيء ولم اسمع بكلمى جبان

(١) السحم ، اسود حالك شديد السواد (٢) اعشى ، اساءت بصره (٣) نمت فشت واذاغت
 (٤) الكرى ، النوم (٥) الحقف ، المعوج من الرمل والعاتك من الرمل ما تعقد وارتفع ؛ يعنى
 بذلك ردفها ، كما قال الشاعر :
 كيف اسلو وانت حقف وغصن وغزال لحظا وقد وردفا (٦) واحور ، الحور

ويقول فى ابن عمه الامير ، وقد أساء اليه :

ظننتك سفا انتضيك (٤) على العدا وما خلت انى انتضيك على نفسى
وجنتك ابغى رفعة وكرامة فامسيت مقهورا بقربك فى حبس
الرشيد احمد بن قاسم - من ابناء صقلية وكبار علمائها ، هجر وطنه بعد
توطد قوم النصارى فيه ، وجاب الآفاق حتى استقر بمصر واصبح ايام الملك
الافضل قاضى القضاة بها ، ولقد دخل يوما على الافضل فوجد بين يديه دواة
من عاج محلاة بمرجان فانشد :

الين لنداود الحديد بقدرة يقده فى السرد كيف يريد
ولان لك المرجان وهو حجارة على انه صعب المرام شديد
مجبر بن محمد بن مجبر - كان من رجال الادب والعلم بصقلية ، بها
وند ونشأ وتثقف ، ثم هاجر منها وأستقر بمصر مع القاضى الرشيد الآنف
الذكر ، وكان زينة مجالس الادب ، وله من قصيد فى الغزل والمدح :

ليس انفراق بمستطاع	فدعيه من ذكر الوداع
وعديه ما يحى به	من طيب وصل واجتماع
يا وجه مكتمل البدو	روحسن ما تحت القناع
يا اخت يوسف ان قلبى	فى هواك هو الصواع
فلئن ظفرت به لديد	ك وكنت سارقة المتاع
فلاخذنك من قبى	لك اخذ ملك واقتطاع
يا نفس حسبك لا تهابى	بالخطوب ولا تراعى
يكفيك انك فى حمى	من ليس يرضى ان تضاعى

بالفتح شدة بياض العين وسواد سوادها (١) راس الشيء ضبطه وغليه والقوم اعلى عليهم ،
النتك جذب الشيء تقبضه ثم تكسره يعنى : ان رعاها قوى شديد قابض على زمام الامور
(٢) بئتك ، قاطع السيف (٣) المسايك جمع حسيكة اداة للحرب تصنع من حديد على شكل
المعروف (٤) انتضيك ، اسلك .

مصعب بن محمد - ابو العرب مصعب بن محمد ابن ابى الفرات القرشى ، ولد ونشأ وتعلم فى صقلية ؛ اما ولادته فقد كانت سنة ٤٦٤ (١٠٥٤ م) ، وام بلاط المعتمد بن عباد ، ملك اشبيلية بالاندلس ، قال يمدحه ويذكر وطنه الضائع :

الى م اتباعى للامانى الكواذب	وهذا طريق المجد بادی المذاهب
اهم ولى عزمان ، عزم مشرق	وأخر يغرى همتى بالمفارب
ولا بد لى ان اسأل العيش حاجة	يشق على اخفافها والفوارب
على لآمالى اضطراب مؤمل	ولكن على الاقدار نجح المطالب
فيا نفس لا تستصحبى الهون انه	وان خدعت اسبابه شر صاحب
ويا وطنى ان بنت عنى فانتى	ساوطن اكوار (١) العتاق النجائب
اذا كان اصلى من تراب فكلها	بلادى وكل العالمين اقاربي

عمر بن حقيق - شاعر رقيق الاحساس ، نشأ بصقلية وهجرها عند تغلب النرمان عليها ، وله من قصيد يذكر به مدينة بالرمة بعد ان زال عنها سلطان المسلمين :

نفسى تحن الى اهلى واوطانى	وهل رايتم مجبا غير حنان
كانوا بقلبى احياء وفى كبدى	نار تاجج من شجوى (٢) واحزاني
ما ضر حين ناوا لو ودعوا (٣) دنفا	رهن الحوادث فى كف الهوى عان (٤)
عز اضطبارى لرزء قد دهيت به	وبان عنى لوشك البين سلوانى

محمد بن الحسن بن على ، ابوبكر الربعى - ولد بمدينة جرجنت ، وتفقه بها وتبحر فى العلوم العربية الاسلامية متما فى مدينة القيروان علمه ؛ وكان من خيار الرجال وافاضل المسلمين ، هاجر صقلية عند زوال سلطان المسلمين ، واستقر بمدينة الاسكندرية وبها توفى سنة ٥٣٧ .

محمد بن خراسان - يعرف بالنحوى الصقلى ؛ كان مولى لبني الاغلب سمع من ابى جعفر النحاس مصنفاته ؛ وروى عن ابى بكر محمد ابن بدر القاضى ، ومروان بن عبد الملك بن بحر وروى عنه يوسف بن ابى حبيب بن

محمد وقد قضى رحمه الله كامل حياته فى مجالس العلم ، وفى اوساط العلماء الى ان مات سنة (٣٨٦) عن ست وسبعين سنة .

محمد بن ابي فرج بن فرج - هو ابو عبد الله ، المالكى الكتانى ، المعروف بالذكى النحوى ، كان من كبار العلماء ، مبرزاً فى علوم اللغة والنحو ، وسائر فنون الادب ؛ وكان مولعاً بالمغامرات والاسفار .

ساح جهات العراق وفارس وغزنة حتى وصل بلاد الهند وجرت له مفاوضات مع جماعة من الائمة ، آلت الى طعنه فيهم ، وبسط لسانه الى ما لا يليق بهم .

مما يدل على علو كعبه وسمو مكانته فى العلم والنزاهة ، انه حضر املاء محمد بن منصور السمعانى ، فلم يصادق ابن ابي الفرج على ما املاه السمعانى وقال للناس ليس الامر كما املاه عليكم بل هو كذا وكذا فقال السمعانى رحمه الله اكتبوا كما قال فهو اعرف به ، فغيروا الكلمة وكتبوا كما قال الذكى ، فبعد ساعة قال الذكى ياسيدى انا سهوت والصواب ما املت انت فقال السمعانى اذن غيروه وارجعوه كما كان ومات محمد بن ابي الفرج متسوحاً فى ارض خراسان سنة ٥١٢ ؛ وقد كان مولده بصقلية سنة ٤٢٧ .

الشريف محمد بن احمد الادريسي - ليس هذا النابغ الفذ من ابناء صقلية بل هو مغربى قح ، من سلالة الاشراف الادريسيين ، مؤسسى الدولة العلية الادريسية بالمغرب الاقصى ، لكنه قد سجل اسمه فى التاريخ الصقلى ، بمأثرته الخالدة التى فتح بها فتحاً جديداً فى وجه التمدن العالمى ، وفجر بها ينبوعاً حياً لعلم الجغرافيا ، وهو يعتبر حقاً اول اساطينه ، وبالع سدره منتهاه فى عصره . ولد الشريف الادريسي بمدينة سبته سنة (٤٩٤ هـ) (١١٠٠ م) وابتداً تعلمه ببلاد المغرب الاقصى ، ثم خرج سائراً فى الارض راكضاً وراء التعمق فى العلم ؛ فام مدينة قرطبة كعبة القصاد ومنبع الهدى والنور فى القرون الوسطى ؛

(١) اكوار جمع كور - الرجل العتاق من الخيل نجائب يعنى انه يوطن سروج الخيل النجائب
(٢) شجوى ، حزنى واحزانى مرادف (٣) دنف ؛ مريض مرضاً مزمناً . (٤) عانى ، اسير

وهناك اقبل على علم الجغرافيا والنجوم والطب ؛ فلما استكمل معلوماته خرج سائحاً يكتشف البلاد ويطلع على الامصار ، فزار اسبانيا والبرتغال وايطاليا وسواحل فرنسا وبلاد الانكليز وبلاد اليونان وبلاد الشرق التركي والعربي والرمي .

ادى به المطاف يومئذ الى جزيرة صقلية ؛ ايام ملكها الكبير رجار الثانى ، فاتصل به واكرم مثواه ، واختصه لنفسه ، وبذل له اقصى ما يبذله ملك حكيم عالم ، لرجل فى مثل قيمة الادريسي ؛ فاستقر الشريف فى صقلية ، واصبح درة لامة فى بلاط الملك النرمانى .

هناك اخذ الادريسي طوعاً لاشارة الملك رجار ينجز مآثرته الكبيرة خريطة العالم ، كما كان معروفاً يومئذ .

نقشها على دائرة من الفضة وزنها ١٨٠٠ اوقية ؛ وقسم الدنيا المعروفة اذذاك الى سبعة اقاليم متوازنة ؛ يبتدىء الاقليم عند خط الاستواء تقريبا وينتهى الاقليم السابع عند المنجمد الشمالى ، الذى يدعوه بحر الظلمات (١) . ولكى يبين ما نقشه فى الخريطة الف كتابه الجليل الشان : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ؛ وقد قسمه الى سبعة ابواب ؛ حسب تقسيم الاقاليم ، وكل باب مقسم على عشرة اقسام يقول مسيو لوريش ، فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى « هو اكمل كتاب جغرافى تركه لنا العرب ، وان ما دققه الادريسي من تحديد المسافات ، وما حققه من دقائق الوصف ، يجعل من هذا الكتاب وثيقة نفيسة لعلم الجغرافيا فى مستهل القرون انوسطى . » وقد اتم تاليفه سنة ٥٤٥ (١١٥٠) .

ويقول عنه حاجى خليفة فى كشف الظنون « اورد اوصاف الممالك والبلاد مستوفيا وهى المسافات بالميل والفرسخ لكنه لم يذكر الاطوال والعروض » . وقد ترجمت قطع كبيرة من كتاب الادريسي ، لمختلف لغات العالم ؛ وكادت كل بلاد تترجم ما يتعلق بها من نزهة المشتاق ، اما بالفرنسية فقد ترجمه برمته مسيو جوبير ، ونشره فى جزأين ، سنة ١٦١٩ .

وله مع ذلك كتاب : الجامع لصفات اشتات النبات .
وتوفى الشريف الادريسي فى صقلية ودفن ببالرمة بعد ان ادى للعالم
خدمة تذكرها الاجيال ، خلال سنة ٥٦٢ هـ ؛ (١١٦٦) .

جمهرة من العلماء والكتاب والشعراء

عدد جسيم ممن اشتهر فى صقلية بالعلم والادب ، وتبرز فى الشعر ،
وركض فى ميدان النفع والتأليف ، لا نستطيع أن نترجم لهم ترجمة وافية ،
لان ذلك ربما اخرجنا عن دائرة الايجاز التى حددناها لانفسنا فى هذا البحث ؛
ولكننا لا نستطيع كذلك ان نغفل اسماءهم ، ونترك ذكرهم ، وهم ممن شادوا
صرح المدنية الاسلامية فى صقلية ورفعوا عاليا ذكر هذا القطر الذى جعلوه
منبع نور وهدى ، ومركز حضارة ومدنية ، فلنذكر اسماءهم فى ايجاز
واختصار ؛ الى ان تسمح الظروف لى او لغيرى بتأليف خاص عن تراجم وآثار
علماء وادباء صقلية الاعلام :

ابو الحسن احمد ابن الحسن الكلبى - من امراء الكلبيين من عائلة بنى
الحسن كان اديبا فاضلا ، وكان ميالا للشعر له فيه باع وابداع ، يقول :
شئيت البيض حين شنين شيبى وتأبانى التى ملكت فؤادى
وهل يختار ذو عقل ولب بياض المقلتين على السواد
ابو القاسم عبد الله ابن سليمان الكلبى - من الامراء الكلبيين كذلك ، كان
مثل بقية امراء تلك العائلة الزكية ، من رجال العلم والفن والادب ، انما ادرسته
حرفة الملوك ، فكان اكثر قوله فى الغزل والنسيب والصهبا ، يقول :

كفى حزنا على البلوى مقامى اخص عداك دونك بالسلام
فجد بالنوم اذ منعوك عنى لعل ان ازورك فى المنام
رجوت بمقلتيك شفاء قلبى وهل يشفى السقيم من السقام
وما ابقى الحمام على عطفها ولكن خفيت عن الحمام

(١) اعادها المجمع العلمى العراقى الى اصلها العربى سنة ١٩٥١ ، ونشرها (٢) ميترا (١) ،
وصحح بها الخريطة التى نشرها ميلر ، بما جمعه من خرائط الادريسي .

واذا ما جاريت الادباء فى ابحاثهم ، قلت ان قوله هذا مأخوذ عن ابي الطيب المتنبي .

كفى بجسمى نحولا اننى رجل لولا مخاطبتى اياك لم ترنى
ثم يقول من خمرة وقد ابدع :

ما ان سمعت ولا رايت بمثلها نار على ايدى السقات تدار
وجلوتها غلس الظلام فراغنى ان قام فى غلس الظلام نهار
محمد بن عيسى بن عبد المنعم - من علماء علم الهندسة ، وله فى علم النجوم باع طويل وقد ذكر بهاذين العلمين ، خاصة بكتاب تاريخ الحكماء للخطيبى .

على بن حبيب ابو الحسن - يقال له اللغوى الصقلى ؛ كان من علماء اللغة المعدودين واكابر البلغاء المبرزين ؛ وكان ممن يشار اليهم بالبنان ، فى نقد الشعر وتحليل معانيه .

عمر بن خلف بن مكى - من اكبر علماء عصره ، وافاضل المبرزين فى مصره ، جمع الى علم الدين علوم الادب ، فكان من المتقدمين فى كليهما ؛ وقد ادى به علمه الى تقدمه لمنصب قضاء حضرة تونس فوليه ، وروى انه كان خطيبا مفوها بليغا يخطب كل جمعة خطبة من انشائه تفوق خطب ابن نباته حسبا يقول الشيبانى فى انباء الرواة ، وقد كان آخر قضاة المسلمين بصقلية الاسلامية خرج منها مع آخر امرائها ابن الحواس عند الانجلاء النهائى وتغلب النرمان .

ظاهر بن عمر بن الرقبانى - من علماء صقلية الاعلام فى اللغة والادب وكلام العرب ؛ قال الشيبانى انه لم يكن فى زمانه اعلم منه بلغة العرب وكلامها ونثرها ونظمها ، وكان بينا مقدما ، جليلا معظما ، قصده العلماء من كل جهة الى صقلية فلقوا منه بحرا طاميا .

عمر بن على بن عمر السرقوسى - من كبار علماء العربية بصقلية له تاليف فى القراءات والنحو والعروض ، وقد استوطن مصر ، وكانت له حلقة

للقراء ، يؤمها الطلاب •

محمد بن علي بن الحسن بن عبد البر - التميمي القرشي الصقلي ، نبغ في موطنه ، ثم رحل لأتمام التفقه في الدين وملء الوطاب من علوم العربية والادب ، وعاد الى الجزيرة بحرا من العلم والفضل والهدى ؛ واستقر في مدينة مازرة وصحب اميرها الذي قربه واكرم مثواه وكان امير مازرة يومئذ ابن مذكور ، على غاية من الزهد والورع والتقوى ، وكان محمد موجودا الى سنة ٤٠٠ (١٠٥٩ م) وقد انتفع به وتخرج عليه جمهور كبير من العلماء الجلة ، ومن اشهر تلاميذه ابن القطاع الأنف الذكر والترجمة •

يوسف ابن احمد ابو يعقوب الدباغ - من علماء العربية الاعلام بصقلية كان حافظا لكتب الاقدمين ، وله شعر جيد حسن •

ابو محمد الدمعة - كان معدودا من كبار الشعراء ؛ وكان من اكابر المعلمين ورؤسائهم بصقلية نخرج عليه جمهور كبير من الادباء •

سليمان بن محمد الصقلي - قال عنه صاحب مسالك الابصار ، صقل الفهم الجلي مرآته ، وضور في حياة المصباح المضيء ، مشكاته ، وداوى به سقم الادب حتى اذا لشكاته ، وكان من اهل الادب والشعر وحافظا لكلام العرب ؛ وتقدم بفضل ادبه عند الكبراء •

بعض مؤلفات الصقليين

• مما ورد ذكره في كتاب كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون للعلامة المحقق المدقق مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة التركي :

الاشتراك اللغوي والاستنباط المعنوي : للشيخ محمد بن عبد الله بن ظفر؛ المتوفى سنة ٥٦٨ (سبقت ترجمته) •

اعراب القرآن - لابي طاهر اسماعيل بن خلف الصقلي المتوفى سنة ٤٥٥ ؛ في تسع مجلدات •

اعلام النبوة : للشيخ ابن ظفر الانف الذكر

الافعال وتصاريها : للشيخ ابي القاسم ابن القطاع المتوفى سنة ٥١٥ وقد
ذكر ابن خلكان ان تاليفه اجود من افعال ابن القوطية .

• انباء نجباء الابناء : للشيخ ابن ظفر .

• تاريخ صقلية لابن القطاع السالف الذكر .

الدرة الحظيرة ، والمختار من شعراء الجزيرة : لابن القطاع ايضا ؛ اورد فيه
ذكر مائة وسبعين شاعرا ، من شعراء صقلية .

تثقيف اللسان : لابن القطاع ايضا

تجويد ، لبغة المريد ؛ كتاب فى القراءات السبع ، للشيخ ابي القاسم عبد
الرحمن ابن ابي بكر بن الفحاح الصقلى ، المتوفى بالاسكندرية سنة ٥١٦
تفسير القرآن لابن ظفر

تهذيب المطالب ، لعبد الحق الصقلى ؛

المعلم ، للامام المازرى الشهير ، المتوفى سنة ٥٣٦

سلوان المطاع ، فى عدوان الاتباع ، لابن ظفر ،

الشافى ، فى علم القوافى ، لابن القطاع ؛

طبقات الشعراء ، لابن القطاع ؛

الملح العصرية ، له ايضا ؛

المختار فى النظم والنثر ، لافاضل اعل العصر ، تاليف ابن بشرون الصقلى ؛
كتاب المشى والسير ، لابن القطاع ؛

التنقيب ، على ما فى المقامات من غريب ، لابن ظفر ؛

الروضة الانيقة ، ليجى ابن عبد الرحمن بن عبد المنعم

ينبوع الحياة فى التفسير ، لابن ظفر ؛

تاريخ صقلية - ١٦

عبد الجبار بن حمديس

هو رابع اربعة اعلام ذاع صيتهم فى كل الاصقاع والبقاع ؛ وتتردد ولا يزال اسمهم يتردد دوما واستمرارا ، كلما ذكر العلم والادب والشعر هم : المازرى وابن الطقاع ، وابن ظفر وابن ظفر وابن حمديس ؛ وان صقلية لو لم تنجب من ابنائها انكرام البررة الا هؤلاء الاربعة لكفاها ذلك فخرا على مر الايام ، ولبقى بهم ذكرها حيا خالدا لا تعتدى عليه عواذى الزمان .

كان ابن حمديس علما من اعلام الشعر ؛ وفذا من أفذاذ البيان . وكان روحا سامية ، ونفسا ابية ، وفيضا نورانيا يشع بنفسه كالراديوم ، كان يمثل اجلى تمثيل وطنه صقلية ؛ فى عبثه ترى عبثها ، وفى لهوه ترى لهوها ، وفى حماسه ترى حماسها ، وفى اوصافه ترى اوصافها ذات الالوان الزاهية الحلاية ، وفى تلديداه باهلها ترى وتسمع لسانها العاقل يندد بابنائها الذين اضاعوها ؛ وفى رثائه لها ، وبكائه عليها ، يخيل لك انك تسمعها تبكى وتنتحب ؛ تندب سلطانا ضائعا ، وملكا مفقودا .

بل ان شعر ابن حمديس فى مجموعته ، يعد ملحمة من ابداع ما اخرج الشعراء للناس من الملاحم .

ولد ابن حمديس فى مدينة سرقوسة من صقلية سنة ٤٤٦ (١٠٥٥ م) فى وقت كان حكم المسلمين فيه يسلم الروح ؛ وقد فتح عينيه النافذتين فرأى مصائب قومه وفتنهم وتغلب الافرنج عليهم ؛ وصورها لنا كما قلت ، فابعد تصويرها ، ثم نزع عنها اذ لم يستطع البقاء تحت حكم النصارى ؛ فجاب بلاد المغرب والاندلس واتصل بملوكها وامرائها ؛ ومدح ابن علناس فى بجاية ؛ ويحيى ابن تميم ابن المعز بن باديس فى المهديّة والمعتمد بن عباد ملك اشبيلية الشاعر وغيرهم وكان اينما حل وحيثما ارتحل يترنم بذكر صقلية ويزفر حار الرفرات كانه يستحث المسلمين عامتهم وخاصتهم امراءهم وسوقتهم على الاخذ بيدها واستخلاصها من يد العدو الغاصب الى ان هزم ، وجاوز الثمانين واصبح يقول :

اسلمنى الدهر للرزايا وغير الحادثات نفسى

وكنت امشى ولست اعيا فصرت اعيا ولست امشى

كاننى اذ كبرت نسر يطعمه فرخه بعش

سأله بعض الادباء عن تشبيهه نفسه بالنسر ، فقال ليس فى الحيوان من يطعمه ولده اذا هرم الا النسر »

واصبح يسير الهوينا متكئا على عصاه :

ولى عصا من طريق ائذم ائذمها بها اقدم فى تاخيرها قدمي

كانها وهى فى كفى اهش بها على الثمانين عاما لا على غنى

كاننى قوس رام وهى لى وتر ارمى عليها زمان الشيب والهرم

ومات رحمه الله كئيب النفس ، مجروح الفؤاد ، سنة ٢٧٠٢ (١) ؛ وانى لذاكر لك ، فى خاتمة هذا الباب بل فى خاتمة هذا الكتاب ، شيئا من ملاحم ابن حمديس كانها تلخيص لجميع ما مر فى هذا السفر ، او استدراك لما لم يتوصل هذا القلم لبطه وتسجيله عن صقلية الاسلامية .

يقول فى قصيد رائع : يذكر شبابه وشباب صقلية

قضت فى انصبا النفس اوطارها وابلغها الشيب انذارها

وما غرس الدهر فى تربة غراسا ولم يجن اثمارها

نعم واجيلت قداح الهوى عليها فقسمن اعشارها

فافنيت فى الحرب الاتها واعدت للسلم اوزارها

كميتا لها مرح بالفتى اذا حث باللهو ادوارها

مجالس الشرب واللهو :

تناولها الكوب من دنها فتحسبه كان مضمارها

ومساقية زررت كفها على عنق الضبي ازرارها

تدير بياقوتة درة فتغمس فى مائها نارها

(١) بجاية ، وهو الاصح . وقيل بجزيرة ميورقة .

وفتيان صدق كزهر النجـ يوم النجادة احرارها
يدىرون راحا تفيض الكـ وؤنس على ظلم الليل انوارها
كان لها من نسيج الحجاب شباكا يعقل اطياريها
راهبة دير ؛ او مديرة ماخور ؟ :

وراهبة اغلقت ديرها فكنا مع الليل زوارها
هدانا اليها شذى قهوة تذيع لانفك اسرارها
كان نوافجه عندها دنان مضمنة قارها
طرحت بميزانها درهمي فاجرت من الدن دينارها
خطبنا بنات لها اربعا ليفترع اللهو ابكارها
من اللاء اعمار زهر النجوم تكاد تطاول اعمارها
تريك عرائسها ايديا طوالا تصافح اخصارها
خبير بنت الحان

تفرس في شهما طيبها مجيد الفراسة فاخثارها
فتى دارس الكاس حتى درا عصير الحمور واعصارها
يعد لما شئت من قهوة سنيها ويعرف خمارها
مجلس الطرب :

وعدنا الى هالة اطلعت على قضب البان اقمارها
نفى ملك الهم عنا الهموم تشور فيقتل ثوارها
وقد سكنت حركات الاسى قيان تحرك اوتارها
فهذى تعانق عودا لها وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها حساب يد تقرت طارها
وقصب من الشمع مصفرة تريك من النار نوارها
كان لها عمدا صففت وقد وزن العدل اقطارها
تقل الدياجى على هامها وتهتك بالنور استارها
كانا تسلط آجالها عليها فتحقق اعمارها

الحنين لصقلية :

ذكرت صقلية والاسى يهيج فى النفس تذكّارها
ومنزلة للتصابى خلّت وكان بنو الطرف عمارها
فان كنت اخرجت من جنة فانى احدث اخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء خلّت دموعى انهارها

التوبة والندم :

ضحكت ابن عشرين من صبوة بكيت ابن ستين اوزارها
فلا تعظمن لديك الذنوب ب اذا كان ربك غفارها

* * *

ثم يبكى صقلية بكاء مرأ ، كأنه قد ضاقت به الارض على سعتها بعدها ،
وكان ما لاقاه من عطف الملوك والامراء ، ورعاية اكابر القوم لا يعد شيئاً
مدكوراً امام « جنته المفقودة » فيقول :

فبت من الليل فى ظلمة فى غرة انصبح هاتى الضياء
ويا ريح اما مرّيت (١) الحيا ورويت منه الربوع الظماء
فسوقى الى جمام (٢) الغيوم لاملأها لك بالدمع ماء
ويسقى بكائى ربع الصبا فما زال فى المحل يسقى البكاء
ولا تعطشى طلالا (١) بالحمى تدانى على مزنة او تناء (٢)
فلا تعجبنى فمغانى الهوى يطيب طيب ثراها انهواء
ولى عندها مهجة صبة تزودت فى الجسم منها ذماء
ديار تمشت اليها الخطوب كما تتمشى الذئاب الضراء (٣)
صبحت بها فى الغياض (٤) الاسود وزرت بها فى الكناس الطباء (٥)
وراءك يا بحر لى جنة لبست النعيم بها لا الشقاء

(٢) جمام جمع جم وهو الكثير من كل شئ - يريد هنا الكثير من الغيوم .
(١) مرى الناقة مسح ضرعها ، يريد الشاعر من الريح اما ان تحلب المطر الخ .

إذا طالعت منها صباحا تعرضت من دونها لى مساء
فلو اننى كنت اعطى المنى اذا منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال به زورقا الى ان اعانق فيها ذكاء (٦)

* * *

ويذكر فى ديار الغربية ، اسود العرين ، ابطال صقلية الذين لم يتركوا
السيف حتى فارقه النفس الاخير ؛ فان كانوا فيما بينهم ذئابا ، فقد كانوا
تجاه الاعداء اسودا ؛ فيقول من قصيد طويل :

ويا رب نبت تعتريه مرارة وقد كان يسقى عذب ماء السحاب
علمت بتجريبى امورا جهلتها وقد تجهل الاشياء قبل التجارب
ومن ظن امواه الزواجر عذبة قضي بخلاف انظن عند المشارب
ركبت الهوى فى رحل كل حبيسة (١) تواصل اسبابى بقطع السباب
قلاص (٢) حناهن الهزال كانها حنيات نبع (٣) فى اكف جواذب
اذا وردت فى زرقاء الماء اعينا وقعن على ارجائها كالحواجب
بصادق عزم فى اجمانى يحيلنى على امل من همة النفس كاذب
ولا سكن الا مناجاة فكرة كانى بها مستحضر كل غائب
فلما رأيت الناس يهرب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راعب
احتى خيال كنت احظى بوصله له فى انكرى عن مضجعى صد غائب
فخر :

فهل حال من شكله عليه تغير نحافة جسمى وايضااض ذوائبى
اذا عد من غاب الشهور لغربة عدت لها الاحقاف (٤) فوق الحقايب
ولى فى سماء الشرق مطلع كوكب جلا من طلوعى بين زهر الكواكب
متى تسمع الجوزاء فى الجبو منطقي تصح من معانى الارتجال الغرائب

(١) الطل ؛ الشاخص من آثار الدور ؛ (٢) التناهى ، البعد ؛ يعنى ترانى على مقربة من مزنة
او بعد منها ؛ (٣) الضراء ، جمع ضرو ، والضارى من الوحوش الذى تعود اكل لحم الصيد ودمه
واولع به ؛ (٤) الغياض ، جمع غيضة ، الاجمة مجتمع الشجر فى مفيض الماء ، (٥) الكناس
بالكسر مستتر الظبى من الشجر ؛ (٦) الذكاء ، بالضم ، الشمس

اخوان الانس والصفاء :

وكم لي من صفو وود محافظ لذي العيب من اعدائه غير عائب
أخي صبوة نادمته الراح والصبأ له من يد الايام غير سوالب
معتقة دع ذكر إحتباب عمرها فقد ملئت منها انامل حاسب
إذا خاض منها الماء في مضمحل الحشا بدا الدر منها بين طاف وراسب
ليالي لم يذهبني الا لثالثا نظمن عقودا للمستين الذواهب

مصيبة صقلية بين اعداء الخارج واعداء الداخل :

ولو ان ارضى حرة لاتبعتهأ بعزم يعيد السير ضربة لازب
ولكن ارضى كيف لي بفكأكها من الاسر في ايدي العلوج الغواصب
أحين تغاني (١) اهلها طوع فتنة يضرهم فيها نازه كل حاطب
ولم يرحم الارحام منهم اقارب تروى سيوفنا من دماء الاقارب

وصف ابطال صقلية في الجهاد

وكان لهم حذب (٢) الاصابع لم يكن رواجب (٣) منها حاتيات رواجب
اناس اذا ابصرتهم في كريهة رضيت من الآساد عن كل غاصب
إذا خالدوا في مازق الحرب جردوا صواعق من ايديهم في سحائب
لهم يوم طعن السمر ايد مبيحة كلا الاسد في كراتهم للشعالب
تخب (٤) بهم قب يطيل صهيلها بارض اعاديهم نياح النوادب
إذا ما ادارتها لذكر حسبتها تدور على اتهامات فوق الكواكب
إذا سكتوا في غمرة الموت انطقوا على البيض بيض المرهقات القواضب
تري شعل النيران في خلج (٥) الضبا تذيب المنايا من اكف المواهب
اولئك قوم لا يخاف انحرافهم عن الموت ان حامت اسود الكتابب
إذا ضل قوم عن سبيل الهوى اهدوا واى ضلال للنجوم الشواقب ؟

(١) الحبسية ، من الخيل المحبوسة في سبيل الله . هذا هو الاصل (٢) قلاص جمع قلائص وهذا جمع قلووس ، وهي الناقة الطويلة القوائم (٣) نبع ، شجر للقسى وللسهام (٤) الاحقاف ، جمع حقف وهو الموج من الرمل ، كما تقدم ، والحقائب جمع حقب وهو مدة ثمانين سنة وقيل غير ذلك .

وكم فيهم من صادق الناس مفكر اذا كر في الاقدام لا في العواقب
غزواتهم في بلاد ايطاليا :

اذا ماغزوا في الروم كان دخولهم بطون الحلايا (١) في متون السلاهب
يموتون موت العز في حومة الوغى اذا مات اهل الجبن بين الكواعب
حشوا من عجاجات الجهاد وسائدا اعدت لهم في الدفن تحت المناكب
فعادوا اقول الشهب في حفر البلا وابقوا على اندنيا سواد الغياهب
التسوجع والخنن :

امثلها في خاطري كل ساعة ومرى لها قطع اندموع السواكب
احن حنين البننت للموطن الذي مغاني غوانيه انيه جواذبى
ومن سار عن ارض ثوى قلبه بها تمنى له بالجسم اوبىة آيب
ثم استمع اليه يشدو بذكر وطنه وقومه فيرفع ذكر صقلية الى السماك
الاعزل ويسموا باهلها الى منزنة الابطال :

رجال الحرب الصقليون :

رعوا ورق البيض الذى زهره دم لهم ورقى عن زهرة الروض تبسم
جبابرة في الروع تعدو جيادهم بهم فوقها رشح الوشيح (٢) المقوم
تنوء (٣) بهم فى ذبل الخط انجم سحائبها نقع وامطارها دم
ترحل من آجارها (١) الاسد خيفة اذا نزلوا ثلرعى فيها وخيموا
ترى كل جو من قناهم ونقعهم يكوكب ان ساروا اليه ويعتم
فصاح غداة الحرب عز سكوتهم وانسنة الاغماد عنهم تترجم
كان بايديهم اذا ضربوا الطلا (٢) عزائمهم لو انها تتجسم

(١) تغاني اهلها ، استغنى بعضهم عن بعض (٢) حذبه بالسيف - ضربه او قطع اللحم
دون العظم (٣) الرواجب - المفاصل اصول الاصابع : حاتيات - حثيته خطته واحكمته وفئلته
يعنى انها - بعد قطع الاصابع - لم يكن فى امكانها ان يحكم بعضها بعضا (٤) تخب ، تسرع ،
قب اى خيل ضامرة البطون (٥) اثلج - بالفتح الفساد : والضبا يقال ضبته النار غيرته
وشونه : والضبابى الرماد ولعله يريد انك ترى شعل النيران فى رماد فاسد من جثثهم وامتعهم
فليحذر .

اذا ما استوى فعل المنايا وفعلهم
 اعاريب ابقى فى تباريح (٣) حبههم
 صحبتهم فى موحش الارض مقفر
 سقا الله عنا عذبة (٧) الدمع ان بك
 بارض يميمت الهم عنك سرورها
 وكم لى بها من خل صدق مساعد
 يفيض على ايدى الكماء سماحة
 اذا فرت الابطال كر وسفيه
 يموج به بحر كان حبابه (١٠)
 ونحن بنو الثغر الذين ثغورهم
 ومن حلب الاوداج (١) يغذى فطيننا
 لنا عجز الجيش اللهام (٢) وصدرة
 يضاعف ان عد الفوارس عدنا
 نؤخر للاقدام فى كل ساعة
 فان كان للحرب العوان معول
 ونسج يوم الروع من نسج جردنا (٤)
 فمن كل صنديد على اعوجية
 بارواح ابطال الوغى فهموا هم
 لهم اعوج (٤) مايوجفون (٥) وشدقهم (٦)
 به الذئب يعوى والغزالة تنغم
 ت ديارا بها للجسم قلب مقيم (٨)
 ويمحو ذنوب انبؤس فيها التنعم
 مهين العطايا وهو للعرض مكرم
 على انه من نجدة يتضرع
 محل ودم العليج فيه محرم (٩)
 عليه دلاص (١١) سردها منه محكم
 اذا عبست حرب لهم تتبسم
 بحجر من الهيجاء ساعة يقطم
 بحيث صدور انسمر فينا تحطم
 كان الشجاع الفرد فينا عرمرم
 تاخر ما يلقي الختوف تقدم (٣)
 علينا فما كل انكواكب ترجم
 علينا ملاء (٥) للقساعم (٦) ترقم
 بكراتها طير الملاحم تلجم

اسطول المسلمين الصقل :

وطائرة بالدمر ملء عنانها لها السبق فى شأو البروق مسلم

(١) بطون الخلايا ، الخلايا جمع خلية ، ما يعسل فيه النحل ؛ والسدبة من الخيل ، الجسيمة ؛
 والسلهابة الجريئة . ولم يتضح لنا ما يريده الشاعر هنا ؛ ولعله يريد انهم اذا ما غزوا فى
 الروم كان دخولهم فيهم دخول الزنابير فى بطون الخيل فليحرر (٢) الوشح الاشتباك والوشج
 فى الاصل شجرة تصنع منها الرماح وتطلق على الرماح ذاتها . (٣) ناء به الحمل ينوء اثقله
 واماله . ببلى الرماح الدقيقة ؛ الخط مرفأ للسفن بالبحرين حيث تباع الرماح - يعنى تثقل بهم
 فى حمل الرماح الدقيقة اسنة الرماح الحديدية اللامعة كالنجوم ، النقع الغبار

رمينا عدة الدين فى عقر دارهم بعادية فى غمرة الموت تقحم
 تعوم بها بين العلوج مظلة كما حلقت فتخ على الجو حوم (٧)
 فمن حامل من غير فحل وفرخها لدى وضعها فى ساحل الروم صيلم (٨)
 ومنسوبة للحرب منشاة لنا طوائر بالآساد فى الماء عوم
 كان قسيا فى مؤاخرها التى يفوق منها فى المقادم اسهم
 وترسل نبطا يركب الماء محرقا كمهل (١) به تشوى الوجوه جهنم
 مدائن تغزو للعلوج مدائننا فتفتح قسرا بالسيوف وتغنم
 ومتخذى قمص الحديد ملابسا اذا نكل (٢) الابطال فى الحرب اقدموا
 كانهم خاضوا سرايا بقية ترى للثريا فيه عينا عليهم
 صبرنا لهم صبر الكرام ولم يسغ لنا الشهد الا بعد ما ساغ علقم (٣)
 فغادر افواها بهم هبر ضربنا بواحدنا من مرهقات يثلم
 وان بايدنا الحديد نناطق اذا ما غدا فى غيرها وهو ابكم

الرأية الحمراء :

واجنحة الرايات فينا خوافق كان دم الابطال فيهن عندم (٤)
 امن ابرق بالدار او مض بارق كطائش كف بالبنان يسلم
 مرى من عيون ساهرات مدامعا وكحلها بالنور والميل مظلم

(١) آجارها جمع وجار ، حجر الاسد يعنى ترحل من اجارها (٢) الطلا ، بالكسر الاعناق
 او اصولها (٣) تباريح الحب توجهه (٤) اعوج ، فرس شهير لبني هلال وتنسب اليه الاعوجيات
 (٥) أوجف الفرس ، جعله يعدو ؛ (٦) شدم : فحل للنعمان ومنه الشدقيات من الابل يعنى
 ان خيلهم العتاق وابلهم الفحلة ن جودتها لا تستحق تسييرها واسراعها بل تسيير وتعدو وحدها ؛
 أعلم انه لقرار الابطال وكره على العدو يختص به وحده فيبقى لسيفه حكم المل ولدم العدو فيه
 (٧) عذبه الدمع ، مانعته وتاركته ، شحيته ؛ (٨) منيم ، معبد مذلل بالحب ؛ (٩) يعنى والله
 الحرم لا حق لاحد دونه ؛ (١٠) الحياض بالفتح ، ما يعلو الماء من الفقاقيع ؛ (١١) دلاص ، يقال
 درع دلاص أى ملساء لينة ؛ سردها ، نسجها

الحنين لصقلية البائسة الاسيرة :

ويا عجباً من روضة زار طيفها جفونا من التهويم فيها توهم
أنم بساقى عبرة حد قفرة بمنسم حرف كلما بل يلطم
واهدى اربجا من شذاها ودونها بمقتحم الاهوال شهب وحضرم (٥)
وللصبح نور فى الظلام كما اكتسى حميما (٦) بطول الركض فى الصدر ادهم
احن الى ارضى التى فى ترابها مفاصل من اهلى بلىن واعظم
كما حن فى قيد الدجى بمضلة (٧) الى وطن عود من الشوق يرزم
وقد صفرت (٨) كفاى من ريق الصبا ومنى ملآن بذكر الصبا فم

* * *

أليس هذا الشاعر الفحل ، جديرا بما قاله فيه ابن بسام : « هو شاعر
ماهر يقرطس اغراض المعانى البديعة ، ويعبر عنها بالالفاظ النفيسة الرفيعة ،
ويتصرف فى التشبيه المصيب ، ويفوص فى بحر الكلام على در المعنى الغريب »؟

رثاء صقلية

واخيرا بلغ بابن حمديس الياس من انقاذ صقلية ، مبلغا جعله يعلن عن
ذلك الياس اعلانا فيه حرقه المروج ، وزفرة المتنازع فيقول ، ونحن نجعل من
قوله هذا خاتمة هذا الباب ، ونهاية هذا الكتاب :

(١) الوداج عروق بالعتق - يعنى من دم عروق أعناق الإعداء يغذى فطيننا حال قطامه وهو
فى أحضان الحرب (٢) اللهام بالضم العظيم من الجيش (٣) يعنى اننا نؤخر لاجل الاقدام فى كل
ساعة ما دام التقدم يفضى الى الخلف المحقق : (٤) الاجراد الفرس القصير الشعر رقيقه والسباق،
(٥) ملاء . جمع ملاءة - الربطة وهى من الثوب ما يكون من تسج واحد غير ذى لفقتين او كل
نوب لين رقيق : (٦) القشاعم جمع قشعم ، القشعم الاسد ، اى قشعم الموت : (٧) كان شاعرنا
المعلق ، قد اطلع على الغيب فوصف فى هذه الايات الثلاثة الطائرات المدمرة المدينة
(٨) الصيلم . الداهية ، والامر الشديد

اعاذل دعنى اطلق العبرة التى عهدت لها من اجمل الصبر حابسا
اود لارضى ان تعود لقومها فسبأت ظنوني ثم اصبحت يائسا
وعزيت فيها النفس لما رايتها تكابد داء قاتل السم ناحسا

* * *

صقلية كان الزمان بلادها وكانت على اهل الزمان محاربا
فكم اعين بالخوف امست سواها وكانت بطيب الامن عنهم نواعسا
ارى بلدى قد سامه الروم ذلة وكان بقومى عزه متقاعسا (٢)
عدمت اسودا منهم عربية ترى بين ايديها اعلوج فرائسا
اما ملئت رعبا « قلورية » بهم واردوا بطارقا بها واشاوسا (٣)
وساقوا بايدي السبي بيضا حواسرا (١) تخال عليهن الشعور برانسا
افى « قصريانا » رقة يعمرونها واسما من الاسلام اصبح دارسا
ومن عجب ان الشياطين صيرت بروج النجوم المحرقات مجالسا
واضححت لهم « سرقوسة » دار منعة يزورون بالدربين فيها النواوسا (٢)
مشوا فى بلاد اهلها تحت ارضها وما مارسوا منهم ابيا ممارسا
ولو شققت تلك القبور لخرجت انيهم من الاجداث اسدا عوابسا
ولكن رايت الغيل (٣) ان غاب ليثه تبختر فى ارجائه الذئب مائسا

(١) المهل بضم الميم ، القطران الرقيق وما ذاب من صفر او حديد : (٢) اذا نكل تكص وجبن :
(٣) العلقم ، المنطل : (٤) العندم ، دم الاخوين : (٥) حضرم القوس ، شد توتيرها (٦) حميما
عرقا ومنه سمي الحمام لانه يعرق (٧) مضلة ارض يضل فيها : - عود المسن من الابل والشاء :
- يرزم ، رزم ، البعير يرزم لا يقدر ان يقوم من هزال .

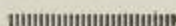
(١) صغرت ، خلت : ريق الصبا ، لمعانه . (٢) متقاعسا ، ثابتا متنيما : (٣) اشاوسا ، جمع
اشوس ، الشديد الجرى ، فى القتال .

تم الكتاب
والحمد لله رب العالمين



(١) حواسر ، منكشقات (٢) النواويس ، جمع ناووس ، مقبرة النصارى (٣) الغيل ، الاجمة
موضع الاسد .

اهم المصادر الغربية



كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر	لابن خلدون
كامل التواريخ	لابن الاثير
اتحاف اهل الزمان	احمد بن ابى الضياف
مروج الذهب	للمسعودى
الامامة والسياسة	لابن قتيبة
نهاية الارب	للتويرى
الفارسية	لابن قنفذ
تقويم التواريخ	لحاجى خليفة
المؤنس	لابن ابى دينار
رحلة	ابن جبير
رحلة	التيجاني
معجم البلدان	لياقوت الحموى
وفيات الاعيان	لابن خلكان
مسالك الابصار	لشهاب الدين اعمرى
نزهة المشتاق فى اختراق الافاق	للشريف الادريسي
الوافى فى الوفيات	للفقدي
نقح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب	للمقري
كشف الظنون	لحاجى خليفة
طبقات اللغويين	للسيوطى
خريدة القصر	عماد الدين الاصفهاني
طبقات علماء افريقيا (نشر الدكتور ابن ابى شنب)	محمد بن الحارث
الفتح القدسي	عماد الدين الاصفهاني
ديوان	ابن حمديس

محمد فريد وجدي

دائرة معارف القرن العشرين

اعمال الاعلام ، فيمن ولى قبل الاحتلال من

لابن الخطيب

ملوك الاسلام

حسن حسنى عبدالوهاب

تعاليق وحواشى على اعمال الاعلام

« « «

بساط العقيق فى حضارة القيروان

« « «

المنتخب المدرسى من الادب التونسى

الى غير ذلك من نصوص عربية جمعها العلامة المحقق الاستاذ ميكال عمارى

Biblioteca Arabo-Sicula « المكتبة العربية الصقلية » فى كتابه الجليل :

(Lipisa) 1857

اهم المصادر العربية

La grande Encyclopédie Française.

Le Épigrafi Arabiché de Sicilia - M. AMARI

Les Civilisations des Arabes - G. LEBON

Storia Dei Musulmani de Sicilia M. AMARI

Les Civilisations de l'Afrique du Nord - Vitor PIQUET

L'école Méditinal de Kairouan - D. A. BEN MILAD

La Domination Musulmane en Sirile - H.H. ABDELWAHAB

Le Moyen âge - Albert MALET

Histoire de l'Algérie - H GARROT

Histoire de la Tunisie - G. LOTH

Les Siècles obscurs du Magreb - E. F. GAUTIER

La Berberie Orientale sous la dynastie des Benous l'Aghlab - Von Derheyden

Origine de la Renaissance en Italie - GEHART

Contribution des Arabes aux Progrès des Sciences Médicales - ABDALLAH

MANSOURI

Les Invasions Barbares - Ferdinand LOT

Histoire du Moyen Age - G. MARÇAIS

Histoire de l'Afrique du Nord - Ch. André JULIEN

Manuel d'Art Musulman - G. MARÇAIS

Essai sur l'Architecture des Arabes - Girauld DE PROGEY

الفهرست

الجرمان . اخراج المسلمين		﴿ القسم الاول ﴾	
مذابح صقلية		وصف جريزة صقلية	
الحكم الاسباني	8	السواحل	
الجمهورية		الجبال	
بونابارت		المياه . المناخ	
عهد الظلمات		الثروة الطبيعية	
غاريبا لذي		السكان	
الحكم الطلياني		المجتمع	
﴿ القسم الثالث ﴾		﴿ القسم الثاني ﴾	
امهات المدن والعالم والآثار		موجز تاريخ صقلية	
بالرمة	38	الفنيقيون . الاغريق	19
قصر الفوارة والعزب		تدخل قرطاجنة	
القبة . القصر الملكي . الكاتدرائية		روما وقرطاجنة	
المتحف والاضواحي		الحكم الروماني	
مسينا		الروم - المسلمون	
شيفالو . ترميني . مازرة		الترمان	
مرسى علي . طرابنش . قلعة النساء		مملكة الصقليتين	
		تاريخ صقلية —	

طبرمين . قطانية

سرقوسة . نوطس

﴿ للقسم الرابع ﴾

الحكم الاسلامي الاغلبى

نشأة الدولة الاغلبية

المحاولات الاولى للفتح

اسباب الفتح

العزم على الفتح

* اسد بن الفرات

المعارك الاولى

* محمد بن ابي الجوارى

غلطة الروم

ابن فرغلوش الاندلسي

الوباء

* زهير بن عوف

فتح بالرمة

احتلال مسينا الاول

القاضى ابن ابى معرز

* ابو الاغلب ابراهيم

الحرب البحرية

وقائع قصر يانة

المسلمون في ايطاليا

فتح مسينا ولسى

* العباس بن الفضل

فتح قصر يانة

محاولة فتح رومة

محاولة فتح اقريطش

انهزام الروم فى البحر

* عبدالله بن العباس بن الفضل

* خفاجة بن سفيان

المراة فى السياسة

مقاومة سرقوسة

حادثة طبرمين

فتح مالطة

* محمد بن خفاجة

* احمد بن امر يمينى

* جعفر بن محمد بن بربر

* احمد بن ابى عبد الله الاغلبى

فتح سرقوسة

* الحسين بن رباح

نكبة بحرية

* الحسين بن العباس

عصر الولاة والارهاب	محمد بن الفضل
109 * الحسن بن ابي خنزير	89 * سواده بن محمد بن خفاجة
110 * علي بن عمر البلوي	* عودة الروم
110 احمد بن قهراب	91 * ابو مالك احمد حبشي
— * الخلافة العباسية	* ابو العباس عبد الله بن الاغلب 91
— رجوع الفاطميين واندحارهم	الاتصار البحري
نذالة وسقوط	في قلورية
113 * ابو سعيد الضيف	فتنة عمياء
114 سالم بن راشد	95 * ابراهيم بن الاغلب
— الفتح في جنوب ايطاليا	— احتلال طبرمين
القاضي ميمون النزيه	فتح رمطة
طريقة القضاء في اروبا	في ايطاليا
مبدا ظهور النرمان	— سيرة ابراهيم بن الاغلب المجنون
استمرار الفتح بايطاليا	الدعوة الشيعية
— الثورة	انهيار الدولة الاغلبية
* خليل بن اسحاق الطاغية	العبيديون بالقيروان
الروم والنرمان	تأسيس المهديّة
121 * عطاف الازدي	105 * محمد السرقوسي
﴿ القسم السادس ﴾	* علي بن ابي الفوارس
عصر الاستقلال الذاتي	﴿ القسم الخامس ﴾
123 * الحسن بن علي	الحكم الاسلامي الفاطمي

العدل اساس الملك	قصيد ابن قاضي ميله في مدحه
فتح طبرمين	صفحة سوداء في تاريخ الفاطميين
مسجد ريو	* تاج الدولة جعفر 143
محاولة الروم في جنوب ايطاليا	— ثورة على
معركة المجاز الكبرى	— ثورة الامة
* احمد بن الحسن بن علي 128	خسارة جنوب ايطاليا
—	الهجرة الى صقلية
الاجهاز على الروم	استطرد عن اعمال المسلمين 145
الصلح	—
ختان اطفال الجزيرة	—
* ابو القاسم علي 130	* اسد الدولة احمد الاكحل 153
—	— سياسة فرق تسد
تدخل النرمان	تدخل المعز بن باديس
رسالة البابا للامبراطور	نكبة هائلة
نتيجة التدخل النرمانى	* مصميص الدولة حسن 155
الفاطميون بمصر	* القادر بالله بن الثمينة 156
استمرار الفتح	الحرب الاخوية والخيانة
انتصار قلورية الاكبر	خراب دولة المعز على يد بني هلال
* جابر بن ابي القاسم علي 137	قصيد ابن رشيق عن خراب
* جعفر بن محمد 138	القيروان
من اجل جارية يخرّب ملك	ملوك لطوئف بافريقيا
* عبد الله بن محمد 140	—
* ابو الفتوح يوسف	—
—	تميم بن المعز

محاولة انقاذ صقلية	
ابن حمديس يهزم الشور	161
الانجلاء النهائي عن صقلية	
آخر مقاومة	
سيرة النرمان الاولى	
﴿ القسم السابع ﴾	
صقلية الاسلامية تحت الحكم النرمانى	
* رجاء الثانى	165
ملوك النرمان بصقلية	167
النفوذ الاسلامي تحت امرة النرمان	168
بعد مائة عام - حكاية ابن جبير	
* الملك غيلام	
النصرانيات يزى المسلمات	
ابتداء امر الفتنة فى الدين	
الزعيم ابن حمود	
حادث اليم	
* فريدريك الثانى ملك صقلية	177
اقرار المسلمين بجنوب ايطاليا	177
تاسيس المملكة	
البلاط - الافكار الدينيه	
فى الحرب الصليبية	
اخراج آخر المسلمين من صقلية	
استشهاد مسلمى نصيرة	
﴿ القسم الثامن ﴾	184
(التمدن والعمران)	
النظام الادارى	
القضاء	—
الجباية والديوان	—
الحرية الدينية - التسامح	—
الزراعة	
الصناعة. التجارة	—
الآثار	
نزهة المشتاق	—
بالرمة	188
مسينا - طبرمين	189 - 190
قطانية . لنتني . سرقوسة	190 - 191
نوطس، رغوس، بثيرة	191 - 192
جرجنتي . مازرة . مرسالا	193 - 194
طرابنة . برطينق . قريننش	195
الحزان . الصنم قلعة النساء	
قصر يانا	—
حياة اللغة العربية	

عمر بن رحيق	انتشار العلم والادب
محمد بن الحسن بن علي بن بكر الربيعي -	قسطنطين الافريقي
— محمد بن خراسان	محمد بن علي المازري
— محمد بن أبي فرج بن فرج	محمد بن يونس التميمي
الشريف بن محمد الادريسي	— محمد بن محمد بن ظفر
جمهرة من العلماء والكتاب والشعراء 213	عبد الرحمان بن عمر
— ابو الحسن احمد بن الحسن الكلبي	ابن ابي العباس
ابو القاسم عبد الله بن سليمان الكلبي -	عيسى بن عبد المنعم
محمد بن عيسى بن عبد المنعم	— عمر بن حسن النحوي
— علي بن حبيب ابو الحسن	ابن القطاع
— عمر بن خلف بن مكي	— ابو عبد الله محمد بن الحسن
— طاهر بن عمر بن الرقباني	— الاصلاح الاسلامي
— عمر بن علي بن عمر السرقوسي	ابو الفضل مشرف ابن راشد
محمد بن علي بن الحسن بن عبد البر	عمار ابن منصور الكلبي
— يوسف بن احمد ابو يعقوب الدباغ	— الرشيد احمد بن غانم
— ابو محمد الدمعة	مجبر بن محمد بن مجبر
— سليمان بن محمد الصقلي	— مصعب بن محمد
215 بعض مؤلفات الصقليين	
217 عبد الجبار بن حمديس وشعره	

فهرست ابجدی

ابن القاسم	أ
ابن القطاع	ابن ابی دینار (مؤرخ)
ابن قهر ب	ابن ابی الفضل
ابن کاس	ابن ابی عامر
ابن وکیل (اصبغ)	ابن الاثیر
ابو الاغلب ابراهیم	165
ابو بکر المالکی	ابن الجزار (طیب)
ابو جعفر النحاس	ابن جیر
ابو حنیفة (الامام)	ابن حدیس
ابو زکریا الحفصی	ابن حمود (زعیم)
ابو سعید الضیف	ابن حوقل
ابو الطیب المتنبی	ابن الخطیب
ابو عبد الله المؤدب	
ابو عبد الله الصنعانی	ابن خلدون
ابو عبد الرحمن الاسدي	ابن رشد
ابو الفتوح یوسف	ابن رشیق (الحسن)
ابو الفرج الاصفهانی	ابن زدعة (مفتی وقسیس)
ابو الفضل الدارمی	ابن فرغلوش
ابو فهر محمد بن عبد الله	ابن قادم

ابو القاسم بن عبيد الله

ابو القاسم علي

ابو محمد عبد الله

ابو محمد الدمعة

ابو محرز الكناثي

ابو يوسف

ابراهيم بن الاغلب الاول

ابراهيم بن الاغلب الثاني

اينان

اييوس كلوديوس

اتنا

اترينا كرييا

احمد الاكمل

احمد ابن ابي الضياف

احمد ابن ابي الحسين

احمد بن ابي عبد الله

احمد بن الحسن بن علي

احمد بن حنبل (الامام)

احمد بن طولون

احمد بن عبيد

احمد الجرجاني

احمد بن عمر يحيى

احمد بن عمر حبشي

احمد القديدي

احمد بن قزح

احمد المهدي النيفر

الاخشيذ

الاخوة الاسلامية

ادرياتيكا (بحر)

اداري (نظام)

ادلغيز (امير)

ادريس الاكبر

ارجريوس (بطريق)

ارخميدس

ارغون (عائلة)

ارسلو (دوج)

الاربص

اردونيوس (ملك)

ارستقراطية

اروبا

الازهر الشريف

الاسباب	الاطلس
اسد بن الفرات	اعتصاب الجوع
الاسدية (كتاب)	الاغريق
استقرار ديني	اغسطس (امبراطور)
استقلال	الاغاني (كتاب)
	الاغليية (دولة)
استعمار	
اسطول	اغاثة (مدينة)
	افريقيا
	افنديون (مدينة)
	الافضل (الملك)
اسيا	افريطش
اسماعيل شاه	الاقطاع
اسماعيل الطبري	اكسريس
اسحاق بن عمران	اكروشي
اسحاق بن سليمان	الالمان
الاشراف (غزوة)	الكانو
الاشتراكية	الف فارم (معركة)
الاصلاح الاسلامي	املاك
اطباء	المنصور بالله (خليفة)

تاريخ صقلية —

باتنة (مدينة)
 بازيل (امبراطور)
 باقية (مدينة)
 بادو —
 بأري (امارة)
 باريس
 باسيرو
 بالرمة

بانورم
 بايزيد (سلطان)
 بشيرة (مدينة)
 بجاية
 البحر المتوسط
 بخاري
 بربر
 برتقال
 برغونيا

اموال الدولة

الاموية (دولة)
 امية بن ابي الصلت
 امير كان
 اندلس
 انكشارية
 الانسان الاول
 انكليز
 انهيار صقلية (اسباب)

انوسانت - بابا
 اوترنته (مدينة)
 اوستي —
 اوطنون (امبراطور)
 اوكتافوس —
 ايطاليا
 ايوب بن تميم
 ايوب بن المعز

بنو هلال	برندبزي (مدينة)
بوانية - معركة	بردويل (زعيم)
بومباي	برطينق
بوربون - ملوك	برلمان
بوردو - مدينة	البصرة
بونابارت	بطرس وبولس (كنيسة)
بونيقية - حرب	بغداد
بيا تراروسا - قصر	بقر
البيت الحرام	بلاطة
ببيان لبريف - ملك	بلزمة
بميز نطة	بلقان
بينيفانت - اماره	بنو بويه
ت	بنو جبارة بن مكى
تاج الدولة	بنو حماد
التجارة	بنو الحسن
تداول الولاة	بنو حمدان
تركيما	بنو خراسان
الترك	بنو الرند
التسامح الديني	بنو سامان
تقويم المنصور	بنو الطبري
التمدن	بنو مدافع بن جامع

ترميني - مدينة

تن - سمك

تميم بن المعز

تونس

التونسية - البلاد

تير - نهر

تيمورلنك

تيهرت - عاصمة

ث

ثرمة - مدينة

الثريا - مجلة

الثروة الفلاحية

ثقة الدولة

الثقل النوعي

الثورة الكبرى

الثورة العالمية

ج

جابر بن أبي القاسم

جاريه

جامعة سالرنه

— مونبيلي

— نابولي

جبايه

جبار - مؤلف

جربة

جرجان

جرجنتي

الجرمانيون

الجريد

الجزائر - سقوطها

الجزائر - قطر

جزية

جص

جعفر بن احمد

جعفر بن فلاح

جعفر بن محمد

جعفر بن محمد بن برب

جعفر بن يوسف

جلاص

جمهورية

جنصريق

جنوب ايطاليا

جنوة

جوهر الصقلي

جوزاف بونا بارت

الجواري

جوير - مؤلف

جيلبون

ح

حادث البنت المسلمة

الحاكم بأمر الله

حاجي خليفة

الحبشة

حبيب بن أبي عبيدة

ح. ح. عبد الوهاب

الحجاج بن يوسف

الحديد

الحرية

حرية الدين

الحرير

الحسابات العامة

حسان بن النعمان

الحسن بن احمد بن نافذ

الحسن بن أبي خنزير

الحسن بن علي الكلبي

الحسن بن عمار

الحسن بن عمار بن علي

حسن بن محمد البغائي

حسن بن يزيد

الحسن بن يوسف

الحسين بن احمد

الحسن بن العباس

الحسين بن رباح

حلوان - مدينة

حنايا

حنبل

حنون

حملة الاريب

خ

خالد بن أبي حبيب

الخالصة

ختان اطفال الجزيرة

ديار بكر	الخراج
دى ساسو	خراسان
دى قالو	خرج الرعونة
دينس	خريطة الادريسي
دواوين	حزف
ديوان المظالم	الخطبة
ديوان	خفاجة بن سفيان
ديوانة	الخلافة .
ذ	١٨١
الذكي النحوي	الخلدونية
الذهب	خلق القرآن (محنة)
ر	خليل بن اسحاق
راشليس	د
رجار الاول	دار صناعة تونس
رجار الثاني	دار مبرغ
٢٣٠ ٢٣٧	دانمارك - بلاد
رجيو	دعاة الهزيمة
رخام	دمشق
ردولف	دمياط
رسالة البابا	دنيابر - نهر
الرستمية (الدولة)	دومنيون

الرشيد احمد بن قاسم	الزكاة
رغوص	زلازل
رقادة	زلازل قطانيا
رمطة	زلازل مسينا
135 - 138	زنجوج
رهبان	الزهراء
روبير الترماني	زهير بن عوف
روح بن حاتم	زي النصرانيات
روسيا	زيادة الله الاول
رولان الترماني	» الثاني
رومان	» الثالث
روم	الزيتون
	الزيتونة - جامع
	س
روما	سارنة
ز	سالامين
الرابع	سالسو
الزبير	سالم بن راشد
الزراعة	سامانية (دولة)
زعفرانة - قرية	سبته
زقاق - مدينة	سبستكين (قائد)

سودان	سبرينة (مدينة)
سيكار	سبط
سين (نهر)	ستراتيج
ش	سجلهاسة
شارل الاصلم	سحنون
شارل دانجو	سردينيا
شارل العاشر	سردين
شارل مارتيل	سرقوسة
الشام	
شامبيوني (زعيم)	سر من راى (مدينة)
شان سى (الصين)	سعيد بن عثمان
الشتاء	السكان
شرلمان	السلط (الفصل بين)
الشريف الادريسي	سلديس
شريك	سليمان بن محمد
الشعراء	سمرقند
الشعير	سمك
شلندي	سواب
شمال افريقيا	سواده بن محمد
134 - 163	سوسة
شيفالو (مدينة)	

الشيعة الاسماعيلية

ص

الصافي (قائد)

صاحب المظالم

صبغة

صدر بعل

الصعيد المصري

صفافس

صقالبة

صلاح الدين الايوبي

صليبية (حرب)

صمصام الدولة

الصناعة

الصنم

صنماجة

الصيف

صيقول (شعب)

الصين (الانراك في)

تاريخ صقلية —

ض

ضرائب

ط

طارق بن زياد

طارنطة

طانكرت (ملك)

طاهر الرقباني

طبرستان

طبرمين

طرابلس الغرب

طرابنه

الطقس

طرمولي

طرميس

طغيان

طليان

طنجة

الطور

ع

العاقد لدين الله

العباس بن الفضل

العباسيون

عبد الرحمان (الثالث)

عبد الرحمان الداخل

عبد الرحمان بن زياد

عبد الرحمان بن العباس

عبد الرحمان بن محمد

عبد الرحمان بن القاسم

عبد الرحمان الغافقي

عبد الرحمان بن رستم

عبد الله الاغلب

عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

عبد الله بن ابي سرح

عبد الله بن احمد

عبد الله بن الحسن

عبد الله الحضرمي

عبد الله بن حبيب

عبد الله بن سليمان

عبد الله بن العباس

عبد الله بن محمد

عبد الله بن المعز

عبد الله بن منكوث

عبد الله بن موسى

عبد الحق بن خراسان

عبد المسيح

عبد المؤمن بن علي

العييد

عبيد الله المهدي

عبيد الله بن الجبحاب

عدوة (معركة)

عثمان بن عفان

عثمانية (دولة)

العرب

166 - 109

العربية (اضحلالها)

عراق

العزير بالله

عطارين

عطاف الازدي

عناية	عقبة بن نافع
عنب	علقمة
عياض (القاضي)	العلم
عيسى بن عبد المنعم	علي بن ابي طالب
غ	علي بن ابي الفوارس
الغابات	علي بن حبيب
غارات الهمج (كتاب)	علي بن زياد
غاندي	علي بن العباس
غاريبا ليدى	علي الرضا بن موسى
غرادات	علي بن يوسف
غريغوريوس (بابا)	عمار بن علي
غليام الفاتح	عمار بن منصور الكلابي
غليام الاول	عماري ميكال
الثاني	عمال الفلاحة
الثالث	عمال المناجم
غوسطاف لوبون (مؤلف)	عملكرض
ف	عمر بن ابي محرز
فارس	عمر بن حسن النحوي
فاطمة البتول	عمر بن خلف المكي
فاطمية (دولة)	عمر بن رحيق
	عمر بن علي السرقوسي

فكتور عمانويل الاول

الفلاحة

فلسطين

الفنيقيون

الفوارة

ق

قابس

قابو (مدينة)

القادر بالله بن الثمنة

القار

قاطون

القاموق (مدينة)

القاهرة

القبة (قصر)

قبر مسيحي

القدم الشريف

القديس يوحنا (كنيسة)

القرامطة

قرصان الاندلس

— بيزنطة

— المسلمين

فاشيست

فاليز (مدينة)

الفتح بن خاقان

فتيان غليام

الفتنة في الدين

فرجيوة

فرديناد

« الثاني

فردينان لوط (مؤلف)

الفرس

فرنسا

الفرنسيون

فرنسوا الاول

فريدريك الثاني

الفسطاط

فسقية الاغالبية

فضة

الفضل بن جعفر

» بن يعقوب

فكتور بيكي (مؤلف)

القطن	فرسان الترمان
القضاء	قرطاجنة
قضاء القرون الوسطى	قرطبة
قلاع حصينة	قرقنة
قلعة السبت	قرقشنة
قلعة الملك (انتصار)	القرون الوسطى
قلعة النساء	القرية الصقلية
قلعة نصر	قسطنطين الافريقي
قلورية	قسطنطينية
القماش	قشالة
القمح	قصب السكر
القنطرة	قصر سعد
قنوات الري	قصر العمارة
القوطة	القصر الملكي ببارمة
قونية	قصر المولى
القيروان	قصريانا
ك	قطانية
كاندراية بالرمة	القطاني
كافور الاخشيدي	

كافور (سياسي)

كاربوناري (جمعية)

كارليانو (معركة)

كارولين (امبراطورة)

الكاهنة

الكبريت

الكتايب القرآنية

الكتان

كـتامة

123 - 153

الكتيبة الخامسة

كرسكا

كستنه

كستيلامارى

كسيلة (زعيم بري)

كسين (دير جبل)

كفر فريدريك الثانى

كلس

كليمان الرابع (بابا)

كنائس

كدستسا (ملكة)

كنعان

كورا دين (راهب)

كوزو (مدينة)

كوفي (خط)

ل

اللباس

اسي (مدينة)

لنقيني (مدينة)

لندن

اصيرة (مدينة)

لوثير (امبراطور)

لوردات

لويس (امبراطور)

— (ملك ايطاليا)

— فليب (ملك فرنسا)

— القديس

ليريتو

ليمون

ليون التاسع (بابا)

م

مازرة

محمد بن الاغلب	ماغز
محمد بن الحارت الحشني	ماغون
محمد بن الحسن	مافيا (جمعية سرية)
محمد بن الحسن الربيعي	ماكسويني
محمد بن خراسان	مالك بن انس
محمد بن خفاجة	مالطة
محمد بن عبد البر	مالي
محمد بن عبد الله	المأمون (خليفة)
محمد بن علي المازري	مانويل
محمد بن عيسى	متحف بالرمة
محمد بن القاسم الثقفي	— قطانية
محمد بن الفضل	— سر قوسة
محمد بن محمد بن ظفر	ملوس
محمد بن منصور السمعاني	التوكل على الله (خليفة)
محمد بن يونس التميمي	المجانيق
محمد الثاني العثماني	المجاز (انتصار)
محمد علي باشا	مجبر بن محمد
محمد السرقوسي	مجفور (بطريق)
المحمدية	محمد (صلعم)
محمود الثاني العثماني	محمد بن الاشعث
المدن	محمد بن ابى الجوارى

مدينة النورة	مصعب بن محمد
المرأة	مصعر (امير)
المرأة في السياسة	معاوية بن خديج
المرجان	معبر صقلية
مرسى علي (مرصالا)	المعتمد بن عباد
مروان (مكتبة قصر)	المعتصم بالله (خليفة)
مروان بن محمد	معروف الرصافي
مسائل صقلية (كتاب)	المعز بن باديس
مساجد	المعز لدين الله
	المعزية (جزيرة)
مستعمرة	معطية
المستنصر بالله الحفصي	مفرم
مسرح سرقوسة	مفتي
مسيحية	مفرج بن سليمان (امير)
مسينا	مقبرة مسينا
	المقتدر بالله (خليفة)
مشرف بن راشد	مقدونيا
مصاب القيروان (قصيد)	مكتبة بالرمة
مصارف	المكشفي بالله (خليفة)
مصر	مكوس
	الملك الكامل

نارنج	مليلي (مدينة)
الناصر	مملكة الصقليتين
نخيل	المناخ
نذالة	منصور بن نصر (زعيم)
نربونة	المواريث
نرمان	الوحدون
	موركولي - راهب
168 - 164	موسى بن نصير
نرمنديا	الموصل
نرويج	المهدية
نصر بن الصمصامة	مفيليك - نجاشي -
نصيرة (مدينة)	ميناء - مدينة -
نقش حديدة	ميمون القاضي
نقود (مجموعة)	» السيف
نلسون (امير بحر)	ميمونة - الاميرة
نمسا (دولة)	» الهذلي
نهضة اوروبا	ن
نوارين	نابولي
نوطس (نوتو)	
191	
نويل دي فرجي (مؤلف)	نابوليون الثالث

الوهابية

ى

اليابسة (جزيرة)

ياقوت الحموى

يحي الطراز

يعقوب بن اسحاق (امير بحر)

يمامة

يهود

يوحنا بروتشينا

يونان

يوسف بن ابي حبيب

يوسف بن عبد الله (ابو الفتوح) 138

142

يوسف بولفين

يوسف الدباغ

يوغوسلافيا

هارون الرشيد

هاستينق

هجرة

هشام بن عبد الملك

هملقون

الهند

هو هانستوفن

هيارون (الملك)

و

وادي الامير

واري (اوريا)

الوباء

الولايات

الوليد بن عبد الملك

الوندال

انتهى

طبع بمطبعة ام ق بمرکوز

رقم النشر 160/69

